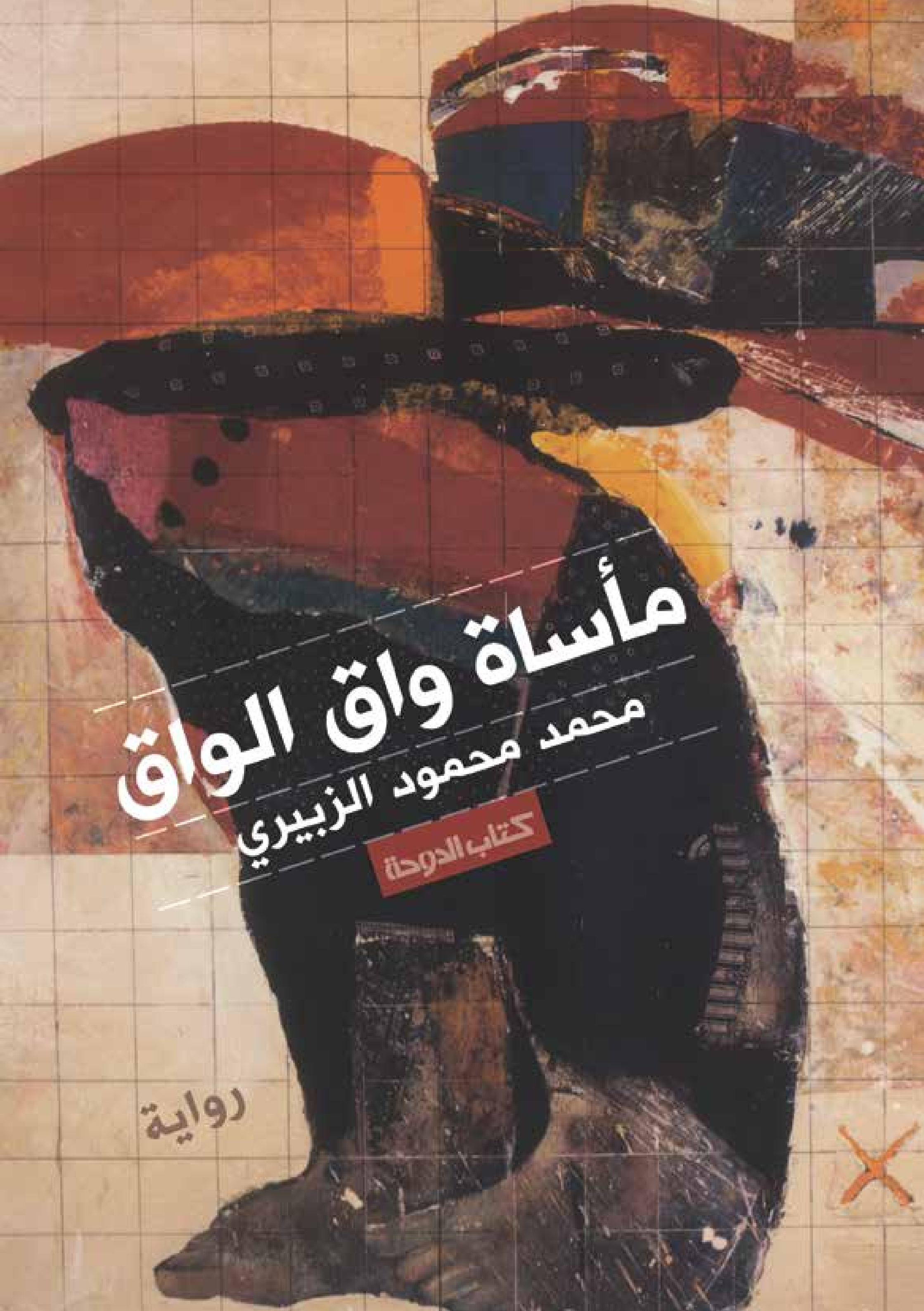

مأساة واق الواق

محمد محمود الزبيري

كتاب الدوحة

رواية

محمد محمود الزبيري

مأساة واق الواق

تقديم: د. عبد العزيز المقالح

كتاب الدوحة 55

يوزع مجاناً مع العدد 98 من مجلة الدوحة ديسمبر 2015

مأساة واق الواق

محمد محمود الزبيري

الناشر :
وزارة الثقافة والفنون والتراث - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

لوحة الغلاف: فرج دهام - قطر

الإخراج والتصميم: علاء الألفي - مجلة الدوحة

المواد المنشورة في الكتاب تُعبِّر عن آراء كتّابها ولا تُعبِّر بالضرورة عن رأي الوزارة أو المجلة.

تقديم

للشاعر الكبير الشهيد محمد محمود الزبيري، الكثير من الكتابات الفكرية والسياسية، ظهر منها قبل رحيله كتابان هما:«الخدعة الكبرى»، و«الإمامة وخطرها على وحدة اليمن»، كما ظهر منها، بعد وفاته، كتابان آخران، هما: «دين وثورة»، و«منطلقات نظرية»، وله من الكتابات الإبداعية النثرية عمل روائي وحيد هو «مأساة واق الواق»، موضوع هذه القراءة المتواضعة التي أنجزتها بمناسبة مضيّ أربعين عاماً على استشهاده «1965م». ولا أخفي أن هذا العمل الروائي الوحيد للشاعر الشهيد قد أوحى لي بمجموعة من الخواطر التي لم تشملها القراءة، ومنها أن شهيدنا وشاعرنا الكبير كان يطمح إلى كتابة أعمال فنّية خارج إطار فنّ الشعر الذي اشتهر به، كرسالة منه إلى الجيل الجديد من المبدعين اليمنيين، أن لا يقفوا عند حدود كتابة القصيدة التي كادت تكون كلّ الأدب في يمن ما قبل الثورة، وأن يتّجهوا نحو عالم القصة، والرواية والمسرح؛ لما لهذه الفنون من تأثير على الشعوب، ومن قدرة على إحداث حراك اجتماعي، وفكري، وسياسي.

وإذا كانت الظروف السياسية للشاعر الشهيد قد حالت دون تحقيق ذلك، فإنه كان يتمنّى أن يجد بين مبدعي اليمن، في عهده الجديد، من يُعنى بهذه الفنون. ويبدو أن تلك الأمنية قد تحقّقت، وبدأ المبدعون الشبّان يتّجهون، فرادى وجماعات، إلى هذا النوع من الكتابات السردية، حتى صار لنا منها، في وقت قصير، عدد لا يُستهان به، لاسيّما في مجال القصّة القصيرة.. ولا تفوتني- في هذا الصدد- الإشارة إلى أن كلّ محاولة لسبر غور شخصية الزبيري الشاعر والشهيد والمناضل لا تتمّ إلاَّ بقراءة هذا النصّ السردي الملحمي، الذي كان خاتمة كتاباته الإبداعية والسياسية، وخلاصة فكره الروحي وفكره الثوري معاً، أما أولئك الذي حاولوا البحث عن صورته وعن مواقفه في الكتابات السياسية والحزبية، بخاصّة تلك التي أعدّها الآخرون، ومازالوا يحاولون، فإنهم يظلمون الرجل، ويظلمون الحقيقة، ويقدِّمون للقارئ إنساناً آخر من صنع أوهامهم وخيالاتهم. ومن المؤسف أن تروج بيننا نحن- معاصري هذا العلم الوطني الثوري- كتابات تنزّ كذباً، وتفيض حقداً، وشتماً مغلَّفاً بأكاديمية عارية عن كلّ موضوعية طالته؛ انتقاماً من نقائه واستقامة مواقفه.

إن هذا العمل الروائي الملحمي الوحيد للشاعر الراحل يندرج- بنجاح- في إطار الأعمال الروائية: العربية، والعالمية؛ بما امتلكه من مقوّمات بنية الرواية، وبما اختزنه من سرديّات الحكي الروائي. وإذا كان خطابها الشعري قد طغى على خطابها القصصي، فإن ذلك راجع إلى أن هذه القصيدة التراجيدية أخذت شكل الرواية، وصدرت

ضمن محاولة الخروج من تأثير المناضل السياسي الذي سكن وجدان ذلك الشاعر، ليحقِّق نزوعه إلى التنويع، والتواصل بالسرد والقصّ معاً، لعلّهما يكونان أكثر فاعليّةً في الارتقاء بالوعي الوطني لدى الإنسان اليمني العازف عن القراءة، وفي الحرص على متابعة الملاحم الشعبية، وأحاديث البطولات التاريخية الخارقة، كَسِيرة كلّ من سيف بن ذي يزن، وعنترة ابن شداد، وأبي زيد الهلالي.

والحقّ أن هذا العمل الروائي الشعري حقَّقَ ما لم تحقِّقه آلاف القصائد التحرّيضية والهجائية للنظام المباد، ونجح، من خلال استخدام تقنية، ليست مبتكرة تماماً، في التقاط صور الواقع المذهلة والمرعبة، وخروجه بصور مدهشة ومثيرة، تلاقي الواقع والخيال في صنعها.

لم يبدأ محمد محمود الزبيري كتابة روايته من الصفر، فقد سبقه عشرات من الروائيين العرب، حتى في اليمن نفسه، فقد سبقت جهده الروائي محاولتان، على قدر من الأهمّيّة الريادية، هما: راوية «سعيد» للمحامي محمد علي لقمان، ورواية «يوميات مبرشت»، للصحافي الطيب أرسلان، لكنني أشكّ في أن الزبيري قد اطّلع على هاتين الروايتين، وإذا كان قد اطّلع عليهما، فانه لم يستفد منهما، من قريب أو بعيد، لا في الأسلوب ولا في الفكرة.

ويشير عدد من النقّاد الذين تناولوا «مأساة واق الواق» إلى أن الزبيري كان ينظر- في أثناء كتابتها- إلى أنموذجَيْن سرديَّيْن عربيَّيْن، على درجة عالية من الشهرة، هما «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري،

و«حديث عيسى بن هشام» لمحمد المويلحي، لما يجمع بين هذين العملين ورواية الزبيري من لقاء بين عالمَي الدنيا والآخرة. والحقّ أنني لا أستطيع أن أثبت، أو أنفي إن كان هذا الروائي الشاعر قد نظر إلى أيّ منهما، أو إليهما معاً، فالصيغة التي اختارها لروايته لا تحتاج إلى تأثّر، ويمكن التقاطها دون جهد، مما يتحدّث فيه الناس عن الثواب والعقاب، ومشاهد الجنّة والنار، وهذا لايقلِّل من أهمّيّة التأثّر والتأثير، فالتناصّ ـ أدبياً وفنّياً ـ غير مستبعَد، ولكن مصدر شكوكي يأتي من حيث إنه لو كان قد اطّلع على أحد هذين العملين أو تأثّر بهما، لكان قد تفادى فكرة تحضير الأرواح أو التنويم المغناطيسي، ولكان له في «فكرة المنامات» مندوحة، وكانت رحلته الشاقّة إلى عوالم الجنّة والنار انطلاقاً من التعبير المشهور «رأيت فيما يرى النائم» والاستئناس بأسلوب أبي العلاء في الدخول إلى الجنّة والنار، والحوار مع المشهورين من أقطابهما. ولماذا لا نقول إن الزبيري عرف كيف يستلهم التراث الديني، ويستصفي منه قصّة (الإسراء والمعراج)، وما حفلت به من رموز الخير والشر، ومرائي الجحيم والنعيم. وقد كان لناقد أكاديمي رأي مغاير لما ذهب إليه بعض الدارسين للرواية؛ إذ رأى أن الزبيري في «مأساة واق الواق» «يندرج مع كثير من الفلاسفة، أمثال أفلاطون والفارابي، ممن كانوا يتشوّقون إلى مدن فاضلة، فالجنّة، في خياله، هي نموذج لمدينة فاضلة يبحث عنها»[1].

ولاتغيب عن البال تلك الدراسة الجادة للشاعر والناقد عبدالودود سيف؛ إذ فصل، بالمقارنة، وجوه التشابه والتأثّر بين الزبيري و«دانتي»

من جهة، وبين الزبيري و«ميلتون» من جهة أخرى، فضلاً عن إشاراته الذكية إلى جذور «مأساة واق الواق» في التراث السردي العربي، مثل «ألف ليلة وليلة»، و«رسالة الغفران»، مع ملاحظة احتراز الكاتب، في ختام دراسته القيّمة، حول تحديد «الشكل الفني الخاصّ ومجمل بناء «مأساة واق الواق»»[2].

لقد تنقَّل الروائي، في مأساته، من الواقع المفرط في قسوته، وبؤسه، ووحشيته إلى الخيال المفرط في روعته، وإدهاشه، وجلاله، وجماله. وكان، بين هذين العالمين، شاعراً يمتلك القدرة الخلّاقة على وصف ما يراه بلغة مبهورة، نجحت في نقل انبهاره وروعته، وأعطت لقارئه لحظات من السعادة، والتتبُّع الملهوف، وهو يقطع المسافات الطوال، بين الأرض من جهة، والنار من جهة ثانية، ثم وهو معلَّق بين السحب مجاوراً الملائكة أو مصغياً إلى تعليماتهم. وقد كان على الأرض، كما كان على السماء، شاعراً يمتلك من جمال اللغة وفنّ التعبير ما جعل من «مأساة واق الواق» قصيدة في رواية، ورواية في قصيدة. فقد اجتمع لها من سمة الخيال، وتدفُّق اللغة الشعرية ما جعل بعض مشاهدها قصائد منثورة، واجتمع لها، كذلك، من تسجيل أحداث اليمن، في مدّها، وفي جزرها، ما جعلها صورة دقيقة من الواقع: بإمامه، ووشّاحه، وثوّاره، وشهدائه، ومواطنيه، وبأمل مستقبله، وما يتمنّى الأحرار أن يكون عليه وطنهم مستقبلاً. والإشارة هنا، إلى أن احتفاظ الزبيري بشعريّة لغته العالية، يفضي إلى تأكيد ماذهب إليه «جون كوين» من أن «شيفرة اللغة الشعرية يمكن أن تنغرس جذورها في الملامح الشخصية

للمبدع»[3].

كتب الزبيري روايته في أواخر الخمسينات من القرن العشرين، وبعض الوقائع التاريخية الواردة، تؤكِّد على أن كتابتها تمَّت بين عامَيْ: 1959و1960م، بل إنه يشير- بصريح العبارة- إلى تاريخ بداية الإنطلاق نحو جمع أفكارها والبدء في كتابتها: «في شهر الله الكريم رمضان عام 1379هـ، وفي الليلة السابعة والعشرين، بالذات، حيث الاحتمال كبير في أنها ليلة القدر المباركة، التي تُفتَح فيها أبواب السماء لأهل الأرض ليلجأ إليها المضيّعون والمروّعون»[4]، وهي الفترة التي أعقبت إعدام الطاغية أحمد حميد الدين، للمناضل الشاب حميد بن حسين الأحمر، ولوالده، وما تركته تلك الجريمة الشنيعة في نفس الشاعر المناضل من شعور بالحسرة على رحيل ذلك الشاب، وذبحه كما تُذبَح الشاه، ظلماً وعدواناً، أمام عيني والده، وما أعقب إعدام الأب والابن من غارات عسكرية على قبيلتَيْ حاشد وخولان، وهو ما التقطه الكاتب، وصنع منه أبرز المحاور الواقعية في الرواية، التي دارت أهمّ وقعائها-كما سبقت الإشارة إليه- بين الأرض والسماء، وبين الجنة والنار.

حيث التقى الروائي بعدد من الشهداء والمناضلين الذين لم يبخلوا عن تقديم أرواحهم، دفاعاً عن الوطن، وحرصاً على إنقاذه من قبضة الطغيان، والخروج به من كهف العزلة الذي وضعته فيه الإمامة المتوكِّلية، خوفاً منها أن يرى النور، ويكتشف ما لحق به من تخلُّف ونكوص عن الانتظام في مسيرة التطوُّر المعاصر التي كانت إرهاصاتها قد بدأت

في بعض الأقطار العربية، في القرن التاسع عشر. وبقيت اليمن أو «واق الواق» وهو الاسم الرمزي الذي اختاره لها الروائي «مبتورة إلى جزئين: جزء ينهشه الاستعمار، وجزء يربض فيه الطاعون الرجعي. ويريد هذا وذاك أن يقطِّعا شعب هذه الأرض تقطيعاً ثانياً، باسم المذاهب الدينية، وتقطيعاً ثالثاً باسم السلالات العنصرية، وتقطيعاً رابعاً إلى قبائل ومدنيّين، وتقطيعاً خامساً، وهو أخطرها جميعاً وأشدّها فتكاً، لأنه يصطبغ بصفة متحضِّرة حديثة تحت شعار الديموقراطية، وذلك هو التقطيع إلى هيئات ومنظَّمات متناحرة، لها نشاط، وحياة، وعمل دائم دائب يواصل البتر والتقطيع، ويجعل لكلّ أنواع الانقسامات القديمة البالية التي يخجل المثقَّفون منها قناعاً حديثاً، ومنطلقاً عصرياً، ويحاول أن يجعل لها وجوداً حيّاً بعد أن أوشكت على الاندثار. وكلّ هذه الانقسامات، بأنواعها، قد وضعت عقبة في طريق التحرُّر، فرغم الإجماع النظري والنفسي على ضرورة الخلاص من حكم الوشّاح، هناك حالة عامّة من التلكُّؤ، والحيرة، والعجز، والشلل أصابت قضية التحرُّر في الصميم، بسبب هذه الانقسامات»[5].

تبدأ الرواية، إذاً، أحداثَها في الأزهر الشريف، وفي ليلة القدر، حين ذهب العزّي محمود، بطل الرواية وراويها، حزيناً كئيباً حائر النفس إلى ذلك المكان، لعلّه يجد فيه بعض العزاء مما يعانيه، وتعاني منه بلاده. وفي محراب الصلاة سمع كوكبةً من علماء الأزهر يتحدّثون في قضايا الدنيا والآخرة، ويخوضون في هموم الأمم القريبة والأمم البعيدة، لكنهم- شأن كلّ من في مصر وبقية أقطار الوطن العربي-

لايتذكّرون اليمن، ولايشيرون إلى مأساتها، من قريب أوبعيد. وكأن اسمها لم يرد عليهم من قبل. وعندما حاول- باستحياء- أن يحدِّثهم عنها، عن اليمن «واق الواق»، وعن مأساتها الرهيبة فوجئ بأنهم لا يعرفون عنها شيئاً، بل لايتذكّرون اسمها، ولاموقعها من خريطة العالم.

وبلغت بهم الحيرة، في أمره وأمر بلاده، إلى درجة الشكّ في حكايته، وذهب بعضهم إلى القول بأنه، ربّما، يكون قد «هبط علينا من طبق طائر في طفولته، فنشأ نشأة عربية، ونسي قصّته، ولم يبقَ له من وطنه إلا رؤيا حالمة».

لقد أراد العلماء مساعدة ذلك الإنسان الحائر الضائع، ولكن، كيف يتسنّى لهم ذلك، ويستطيع أن يعثر على وطنه، إن كان له وطن؟ هناك وسائل خرافية، وأخرى علمية. وبعد أن استبعد العلماء أسلوب تحضير الأرواح، كوسيلة للتعرّف إلى وطن العزّي محمود؛ لما يتّسم به من ضلال وخداع للبسطاء من الناس، رأى أحدهم أن يترك الأمر للشيخ سعدان زكي، وهو من هو في التقى والتبحُّر في العلوم الروحية: قديمها، وحديثها، ليقوم بالكشف عن اليمن «واق الواق»، عن طريق التنويم المغناطيسي، وهو فنّ «من الفنون النافعة المشروعة التي لاتتنافى مع الدين، ولامع العلم».

وفي مقصورة خاصّة، في مسجد سيّدنا الحسين (رضوان الله عليه) تَمّ التنويم المغناطيسي، وفي دقائق معدودة، استطاع الشيخ سعدان- بإشعاعه الروحي الأخّاذ- أن يُنيِّم العزِّي محمود، ليبدأ رحلة البحث

«عن سرّ الغموض الذي يلفّ هذا البلد المسمّى «واق الواق»، الذي ظلَّ سرّاً مغلقاً على جميع أهل الأرض».

***

أما عن ملحمية الرواية، فتكاد تكون من أبرز سماتها، فقد استعرضت جملة موضوعات في عمل واحد، وجمعت بين الملائكة والبشر، وبين الشهداء والطغاة، وبين الأرض والسماء، وبين الجنّة والجحيم، وكلّ ذلك يؤهِّل هذا العمل ليكون ملحمة، تروي للعالم، في وقت من الزمن، ما كانت عليه الأوضاع في يمن ما قبل الثورة، مستعرضةً بطولات المناضلين اليمنيّين، وصبرهم في السجون والمعتقلات، وفي ساحات الإعدام، عند مواجهة الموت: ساعة يُقتَل الابن ذبحاً أمام عينَيْ والده، وساعة تندب الإم أبناءها الثلاثة، وهي واقفة شامخة، تفضح الطاغية الكبير، وتنذره عواقب فعلته، وكأنها عرّافة «دلف» في الأساطير اليونانية. والأجمل أن يتمّ ذلك بأسلوب يتلاءم مع الملحمية ، وبلغة شعرية تتناسب والأجواء التي تجمع بين الحقيقة والخيال.

ويلاحظ أن الزبيري استعاض عن آلهة الملاحم التقليدية بالملائكة وبالشهداء الذين صار لهم، من القدرة على التحليق والانتقال من مكان إلى آخر، ما للملائكة أنفسهم من قدرات الطواف والتحليق.

وما أشبه الحديث عن «لميس» في «مأساة واق الواق»، وهي تخطر فوق أمواج من اللهب والدماء في آفاق اليمن المأسور، بحديث (هوميروس) في مطلع «الإلياذة» عن تلك الفتاة الجميلة التي كانت

«تخطر فوق الثلج، وتميس على رؤوس الموج»[6].

وفي الأخير، لا ننسى أن الزبيري كان في هذا العمل الملحمي مثالاً للمبدع الذي ينتج عمله الروائي الوحيد خارج قوانين الكتابة الروائية ، وهو يذكِّر بعدد من المبدعين العرب الذين يتركون لمواهبهم العنان، دون تمثُّلٍ لأنموذج مسبق، ومنهم المبدع العربي المغربي الذي رحل ـ مؤخّراً ـ محمد زفزاف، ومن بين أهمّ مقولاته: «لست كاتباً، وإنما أنا مجرّد إنسان، يحاول أن يعطي انطباعات عن هذا العالم، مثلما سبق للآخرين أن أعطوا انطباعاتهم»[7].

وليس في كلمة (انطباعات) ـ كما وردت هنا ـ ما يقلِّل من أهمّيّة الأعمال العظيمة للمبدعين الكبار، في إخلاصهم وتواضعهم، وفي كمالهم الأدبي وكمالهم الأخلاقي.

د. عبد العزيز المقالح

هوامش:

(1) د. عبدالحميد إبراهيم، القصة اليمنية القصيرة ، 171، دار العودة ـ بيروت.

(2) الزبيري شاعراً ومناضلاً: مجموعة من الكتّاب اليمنيّين ، ص 258، دار العودة.

(3) جون كوين، النظرية الشعرية ، ترجمة أحمد درويش ، ص 401 دار غريب ـ القاهرة.

(4) محمد محمود الزبيري، «مأساة واق الواق»، ص 105، ط. مركز الدراسات والبحوث اليمني عام 2004م

(5) المصدر السابق نفسه: ص25.

(6) هوميروس، الإلياذة، ترجمة دريني خشبة، ص(10)، دار العودة ـ بيروت.

(7) محمد زفزاف، مجلة «آفاق»، العدد 61ـ62، 1999م، ص 256.

مأساة واق الواق

في شهر اللّه الكريم، رمضان، عام 1379هـ، وفي الليلة السابعة والعشرين بالذات، حيث الاحتمال كبير في أنها ليلة القدر المباركة التي تفتح فيها أبواب السماء لأهل الأرض، ليلجأ إليها المضيَّعون والمروَّعون، وتنفتح فيها أرواح البشر للالتقاء بعالم الروح في الملأ الأعلى، ذهب العزّي محمود إلى الأزهر الشريف حزيناً كئيباً حائر النفس، واتّجه صوب محراب الصلاة، حيث رأى، على مقربة منه، كوكبة من العلماء الأفاضل الأخيار يتذاكرون، ويتراجعون، ويناقش بعضهم بعضاً في شئون العلم والدين والسياسة.

سمعهم العزّي محمود يتحدّثون عن قضايا الدنيا والآخرة، ويخوضون في مشاكل الأمم البعيدة والقريبة، ويضعون كلّ هذه المشاكل في معايير الإسلام، ويقضون فيها قضاءهم، ويصدرون فيها فتاواهم، ويعلنون ـ في ثقة واعتزاز ـ أن الإسلام يجب أن يُعنى بكلّ صغيرة وكلّ كبيرة،

وأن يصدر فيها حكم اللّه.

وعجب العزّي محمود لِسعَة الاطِّلاع عند هؤلاء العلماء، ولشعورهم الغيور المرهف إزاء كلّ مأساة إنسانية على وجه الأرض: مأساة الكونغو، مثلاً، ومأساة التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، ومأساة الهنود الحمر في أميركا.

وحتى محنة الأخلاق في فنادق الشرق الأقصى التي تعرَّض لها الصحافي أنيس منصور أصدروا فيها فتاواهم.

ولم يبقَ مكان في الأرض إلا طارت إليه المناقشة، وصدرت فيه الأحكام، وتطلَّع العزّي محمود إلى هؤلاء، واستشرف أحاديثهم الجريئة المنيرة، وانتظر أن يتحدّثوا عن بلاده، وفيها أحداث ضخمة تُعتَبَر موضوعاً خصباً لأحكام اللّه، ولكن الحديث يمضي ويمضي، ويكتسح آفاق الأرض، وينتهي منها، ويعلن الختام.

وكان العزي، في أثناء سماع هذه المناقشة، يجلس بعيداً، في انكماش واستحياء، والحقّ أنه لم يحضر إلى الأزهر من أجل النقاش والبحث عن الفتوى، وإنما كان هارباً من كآبة نفسه وأحزان بلاده، يلتمس روحانية سماوية في هذه الليلة المباركة، تغسل الظلام الذي حَلَّ بقلبه، غير أن ارتياحه لأحاديث العلماء عن أحزان أهل الأرض حرَّكت نفسه للدخول في نقاش معهم عن قضايا الساعة في وطنه العزيز، وقد خاب أمله، في نهاية المطاف، عندما انتهى حديث العلماء الأفاضل دون أن يتعرَّضوا لاسم وطنه، على أيّ نحو، وفي أيّ مجال.

وعندئذٍ، تقدَّم منفعلاً هائج النفس نحو الجماعة التي أوشكت أن تتفرَّق، وبادرهم بصوت خفيض، يحيّيهم، فردّوا عليه ورحَّبوا به.

وتقدَّم العزّي محمود وصافحهم واحداً واحداً، وتحركت الحلقة كلّها، قياماً وقعوداً، لمصافحة الزائر الغريب حسب السجايا الكريمة الأريحية التي عُرِف بها الشعب العربي عامّة، وخصوصاً في الإقليم الجنوبي الذي لا يكاد يجاريه في أريَحيّته وطيبته ولطفه شعبٌ من شعوب الأرض، وتوجَّه أحد العلماء بسؤال الزائر قائلاً:

هل يمكن أن نتعرَّف بالاسم الكريم؟

ـ نعم...أنا العزّي محمود.

ـ من أيّ بلد؟

ـ من مملكة (واق الواق)، ولم يكد ينطق بهذا الاسم حتى ماجت جنبات الحلقة بأصوات مختلفة، اختلط فيها الضحك الخافت بالتساؤل الحائر، والتحم بعضها في بعض، فلم تستطع أن تنتصر فيها كلمة واحدة، فتعلو وتتّضح، واختلطت كذلك الملامح والنظرات بين الدهشة والابتسام والقلق، وارتفع صوت ضخم:

ماذا تقول يا أخانا الكريم؟ من «واق الواق»؟ هل تبدأ الحديث مع قوم التقيت بهم، لأوَّل مَرّة، بهذه النكتة؟

قال العزي: إنما أتكلّم عن الحقيقة، فليس من كرامة الأزهر، ولا من

كرامة اللقاء الأوّل معكم أن أهزل أو أضحك...

فازدادت الحيرة، وارتفعت الأصوات المختلفة من جديد، ولكن الملامح كلّها، بدا عليها شيء من الذعر والوجوم، وانبرى أحد العلماء مبتهجاً، كأنه أفضلهم جميعاً في الذكاء والألمعية، واكتشف الحَلّ، وأقبل على العزّي محمود قائلاً:

أنا فهمت ـ ياأستاذ ـ أنك لاتهزل معنا حقّاً، ولكنك تتحايل على جمعنا الذي كاد أن ينفرط عقده، وتدفعه بلطف ورفق للدخول في أحاديث أسطورية طريفة من فنون آدابنا العربية التي تتحدّث عن اسم هذا البلد وعن طرائف وأساطير تتعلّق به، تُعتَبر من أروع ما خلّفه أدبنا العربي، وأنا أعرف أن هذا الأدب الخلّاق استطاع أن يبتكر هذه التسمية، ويجعل منها مصدراً للوحي والإلهام، ويخلق لها في حياتنا شخصيةً ووجوداً، حتى أصبحت، وهي من صنع الخيال والفنّ، وكأنها موجودة فعلاً في الكرة الأرضية، وحتى انطلى ذلك على بعض العقول الساذجة، وظنّوها بلداً حقيقياً، يعيش فيه شعب من البشر.

قال ذلك والتفت إلى بقية الرفاق من العلماء، كأنما يسألهم رأيهم.

فارتفع صوت آخر بين جماعة العلماء، وكأنما قد تخلّص من كرب المفاجأة، وقال:

والأعجب من ذلك ـ ياأستاذ ـ، وتأييداً لكلامك، فلقد عرَّفت بنفسي كثيراً من الناس، يعدّون هذا البلد الأسطوري المختلق بلداً عربياً وجزءاً

من أرض الأمّة العربية، وهذه مأساة الغباء في جيلنا الحديث، هذا الجيل الذي بطش بمواهبه عصر السرعة، ففقد القدرة على التعمُّق في تراثنا الأدبي القديم، أراد أن يعرف كل شيء فعجز عن التعمُّق في أي شيء، وما دام الغباء قد جعل من «واق الواق» وطناً من أوطان الشر فلا بأس عليه من أن يجعله قطراً من أقطار العرب..! وماذا يضيرنا نحن ـ العرب ـ مادمنا مجزَّئين ممزَّقين، يمزِّق أوصالنا الطغاة الرجعيون والاستعماريون، أن يزداد عدد أقطارنا أو يكثر، وأن يموت شعب من شعوبنا أو يعيش؟ وإننا بهذا الشتات لا نكاد نستشعر الفرق في هذه الأقطار بين بلد أسطوري وبلد حقيقي. ونحن، في الواقع، قد نستطيع أن نتعايش مع الأساطير، وذلك أيسر علينا وأخفّ عبئاً على معركتنا من أن نتعايش مع الوجود الحقيقي للشياطين، أولئك الذين {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ}.

ومَدَّ العالِم الألمعي يده، فشَدَّ على يد العزّي محمود، وهو يتهلَّل بشراً ولطفاً، وقال: ماذا ترى ـ يا أخانا العزي ـ في هذا الكلام؟ ألم نستطع الاهتداء إلى سرّك المبهم؟ وعلى كل حال، فإننا نشكرك إذ ألهبت جوّ الجلسة، وأعدت إليها حرارة الحديث، وخرجت عن الجدّ إلى موضوع طريف.

فأطرق العزّي محمود قليلاً، ومسح على جبينه، وقال:

أنا أقدِّر شعوركم الطيِّب نحوي، وتحايلكم على التلطّف بي، وأنا

أعرف مدى حرصكم على الرفق، وأنكم لاتريدون مواجهتي بما أكره، غير أني مضطرّ إلى أن أعترف لكم، في غير عتب عليكم، بأنني قد أكون في حكمكم من هذا الجيل المنكوب بالغباء، كما أعترف بأنني ـ شخصياً ـ ربّما كنت، على ظنّكم، واقعاً في الخدعة الكبرى؛ لأني مؤمن كإيمان الصوفي بأن «واق الواق» بلد له وجود فعلي، يعيش فيه شعب من شعوب البشر.

على أنه، ربّما كان تعلُّقي بالأدب وتعشُّقي لفنونه الخلّابة هو ما جعلني أخلط بين حقائقه وأساطيره، وقد قُدِّر عليَّ أن أعرف وأقرأ الكثير عن «واق الواق»، بل إن أوّل كلمة سمعتها ووعيتها في حياتي، على لسان أمّي ولسان جَدّتي، هي هذه الكلمة السحرية. وحينما كنت أحبو على الأرض ويلوِّث التراب يديّ وملابسي كانتا تقولان لي: هذا تراب طاهر لأنه من أرض «واق الواق»، وأنني أنا خُلِقت منه، وخُلِقت أمّي وجدّتي، فأدخلتا في روعي ـ دون قصد منهما ـ أن تلك الأرض التي كنت أحبو عليها هي ـ بالنسبة إليّ الأمّ الأولى والكبرى، ومن الجائز أن السيِّدتين كلتيهما توارثتا هذه الأسطورة كفنّ من الفنون الشعبية الشائعة، ولكنهما لقَّنتانيها، لا كأسطورة، وإلا فإنني أؤمن بها أكثر من إيماني بوجود الشمس والقمر. قد أكون مخدوعاً في إيماني هذا، ولكني أنا لا تهمّني الحقيقة خارج نفسي، وأنا أشعر أن هذا البلد ـ كما لقَّنتني أمّي، على الأقلّ ـ هو التربة الطاهرة الحبيبة التي جُبِل منها جسدي، وصِيغَ من طينتها قلبي وعقلي، فهو ـ وإن لم يكن له وجود في خريطة الأرض ـ موجود في دمي وفي إحساسي، ومتجسِّد في هذا

الكائن الذي يحدِّثكم، الآن، بلسان عربي مبين. إنني حزين، فعلاً، لأن أراكم تواجهونني وتصارحونني بأن بلدي إنما هو مجرّد أسطورة، لكن هذا سيدفعني إلى الشعور بمسؤوليّتي نحو هذا البلد الضائع اليتيم أكثر من أيّ وقت مضى.

إنني أنا إنسان حَيّ أمامكم، يحدِّثكم، فلو أنني خُلِقت من الفراغ المحض، أو التقطتني الأقمار الصناعية في طريقها إلى الفضاء الخارجي، وقذفت بي إليكم، لاستطعت- بعزمي وإيماني- أن أجعل من الأسطورة حقيقة كبرى، فالإنسان كائن عظيم جبّار، ينطوي فيه العالم الأكبر في شكل بذور من الأحاسيس الخلّاقة التي تنمو وتتوالد وتأتي بالمعجزات، وإذا كانت نواة النخلة- على صغرها وجمودها- تحمل في أحشائها جسد نخلة تملأ الفضاء عندما تنطلق طاقاتها الذاتية، فجدير بالإنسان الذي نبت من تربة أرضه أن يحمل في بذور خلاياه جنين وطنه الكبير، وكلّ ماهو في حاجة إليه أن لايخون الحقيقة فينحرف عن مهمّته في هذا الوجود، بل عليه أن يضع نفسه في بيئة النواميس الطبيعية لتطلق عواملها فيه، كما تفعل بنواة الثمرة تحت التراب.

وليست الخيانة- في رأيي- إلا خيانة المخلوق لطاقته الهائلة التي تكمن فيه، فنواة الثمرة التي تسقط في التربة، ولا تنغرس فيها خائنة لجنينها الضخم الذي تحمله، وبدلاً من أن تؤدّي دورها، وتتفاعل مع أرضها الأمّ تضع نفسها لعبةً في يد الأطفال والمجانين، يتراشقون بها في عرض الطريق.

وارتفعت يد ضخمة تشير بالتوقُّف عن الحديث، وقال صاحبها:

مهلاً مهلاً، يا أخانا العزي.. كيف تفترض وجودك في الفضاء الخارجي وتعلُّقك بأرض «واق الواق»، في حين أن وجودك المفروض في الفضاء ينفي أنك نواة من تلك الأرض؟

وعلى الفور استطرد العزّي محمود، ورَدّ عليه قائلاً:

ـ لو أنني وجدت نفسي في الفضاء، ووجدت أحاسيسي توحي لي بالانتساب إلى بلد معيَّن لصدقت شهادة أحاسيسي، فإنها تكون ـ حينئذ ـ فطرة صادقة لا تكذب. نحن، لو وجدنا على أرضنا هذه قطعة من الحجر متخلّفِة عن حطام نيزك، لاستطاعت هذه القطعة الصخرية أن تهدينا فتفصح عن أصلها بمنطق عناصرها وذرّاتها، وأن تنتسب إلى الكوكب الذي تطايرت عنه، وبهذه المناسبة أوّد أن أسمعكم بعض أبيات من شعري حول هذا المعنى، قلت فيها:

وهَبْني أمتطي عنق الثريّا

وأملكها وأرهقها ركوبا

وتسبح في فضاء اللّه تحتي

أوجُهها شروقاً أو غروبا

إذاً، لوجدتني في النجم أحيا

هجين العرق مبتوراً غريبا

وراحت فطرتي تلوي بعنقي

إلى وطني وتنشدني الهروبا

أغار من الحصى وأقول شوقاً

لطوب الأرض في صراوح: طوبي

وأعجب من هذا الشعر وأدلّ منه على أن المخلوقات لا تستطيع التنكُّر لأصولها أن تتذكّر سرّاً من أسرار الذرّة التي ظلت منغلقة على نفسها بلايين السنين متظاهرةً بعقوق أصلها وجحوده والتنصُّل منه، ولكنها لم تستطع أن تستمرّ في الكذب، فاعترفت أخيراً، للعلماء، بانتسابها إلى الشمس، وبأنها ليست إلا نواراً متراكماً متجمِّداً من سلالة هذا النجم الإلهي الضخم، وأن ما يمسك كيانها هو نظام شمسي في أحشائها كنظام الجاذبية بين الشمس وتوابعها، وأن الكرة الأرضية، برمّتها، ليست إلا مجموعة مركّبة من هذه الذرّات، انفصلت عن الشمس، ولا تزال تقطع رحاب الكون منذ الأزل، تدور وتجول حنيناً إلى الشمس، وطنها الأوّل.

وأراد العزّي محمود أن يستمرّ فاعترضه المتحدِّث الأوَّل بين العلماء قائلاً:

كلّ هذا مفهوم، يا أستاذ. ولكن، إلى أيّة نتيجة تهدف؟ فلقد شككننا

في أمر هذه الأسطورة، وكدت أن تستدرجنا، بحرارة حبّك ووفائك لها، إلى التصديق بأن لها وجوداً فعليّاً.

ـ تلك هي النتيجة التي أهدف إليها: أنا موجود فوطني موجود.. نعم سأموت يوماً، ولكن وطني سيستمرّ في إنجاب الملايين أمثالي، لأنه كائن حَيّ لا يموت.

قال المتحدِّث الأوَّل:

ـ إن الذي يمنعنا من الاندفاع معك إلى التصديق بوجود (واق الواق) هو أننا نخشى أن يكون أسلوبك الشاعري قد أفقَدَنا القدرة على النقد؛ ومن ثَمَّ أفقَدَنا القدرة على اليقين، وأنا أريد أن أثير سؤالاً، لابدّ من إثارته وهو: إذا كانت مملكة (واق الواق) موجودة فهي موجوده منذ القدم، وقد اكتشف كولمبس في عصر السفن الشراعية قارّة أميركا، فكيف لا يستطيع العصر الحديث ـ بكلّ ما يملكه من وسائل بَحْريّة وجوّيّة وأقمار صناعية ـ أن يستكشف وطنك، هذا اللغز؟

ألا يمكن ـ مثلاً ـ أن نسأل الهيئات العلمية في أميركا، تلك الدولة التي استطاعت أن تأخذ الصور التلفزيونية بواسطة أقمارها الصناعية، فجمعت بين السويس وقبرص وإيطاليا والنيل في صورة واحدة، كما رأيناها في الصحف، ألا يحتمل أن تكون قد أخذت صورة (واق الواق) فيما أخذته من صور أخرى في المعمورة؟

قال العزّي محمود:

- إن أميركا قد لا يكون لها مصلحة في اكتشاف هذا البلد الغامض إلا في الوقت المناسب لها، فربّما كانت ترى بعيونها العلمية أن في جوانح أرض (واق الواق) ثروات سرّيّة أو ذهباً أو بترولاً، فلا يوثق برأي الهيئات العلمية في هذا المجال.

قال العالم المتحدِّث:

- إذاً، فبريطانيا التي كانت لا تغرب الشمس عن إمبراطوريتها، ألا يمكن لهيئاتها العلمية أن تحلّ لنا هذا اللغز، أو تحيلنا على مصدر من مصادر علمها بخفايا الأرض وأسرارها؟

قال العزّي محمود:

وأمر بريطانيا كأميركا في هذا الشأن؛ قد لا يكون من مصلحتها أن توجِّه أنظار العالم إلى اكتشاف بلد الأساطير والأسرار حتى يأتي الوقت المناسب لها فتستغلّه على انفراد، ثم إنها قد تكون واضعة يدها الخبيثة على هذا البلد، أو جزء من هذا البلد، وهي تمتصّه في هدوء، فلماذا تثير إليه اهتمام العالم!؟

قال الشيخ المتحدِّث:

- وروسيا، ما بالها لا تقوم بعمل إنساني، وتكشف بلداً مجهولاً؟

قال العزّي محمود:

- إن روسيا، مقصيّة مبعدة عن أكثر شؤون العالم، وهي تشعر، حتى آخر

عهد سيتالين، بأنها كانت سجينة مذهبها وموقعها الجغرافي المعزول. ولو أنها قد استطاعت الآن، في عهد خرشوف، أن تتسلَّل من محبسها، وأن تضع قدمها، أو تدسّ أنفها في الأرض (واق الواق) لكتمت أنفاسها لشدّة الفرح، ولترفَّقت في كلّ خطواتها وتحرّكاتها حتى لا يشعر أحد، وهي، بعد ذلك، أقدر الدول قاطبةً على الأساليب السرّيّة، ولو استعان بها الوشّاح حاكم (واق الوق)، وطلب منها معونة فنّيّة لصناعة طاقية إخفاء، يدفن بها شعبه في مزيد من الخفاء والغموض، لبادرت روسيا وأعطته ما يريد.

- قال الشيخ المتحدِّث: هناك السنة الجغرافية التي اشتركت فيها دول عربية ذات مصالح متناقصة لا يمكن أن تتّفق، فلماذا لا توجد دولة من دول العالم تكشف هذه الأرض المسحورة، لا سيّما وأن عملاً من هذا القبيل يُعتَبَر في صميم السنّة الجغرافية؟

قال العزّي محمود:

لا تصدقوا أن العلم يعلو على كل اعتبار، فلا تزال العلوم الإنسانية والحضارة البشرية، بكلّ إمكانياتها، حتى اليوم، مُسَخَّرة للسياسة، ولا يوجد في العالم أمر ذو بال يفلت من اليد الشيطانية للسياسة. والدول الكبرى هي ذات الشأن السياسي الأوّل في العالم، ومن الجائز جدّاً أنها ـ فيما يتعلَّق بمشكلة كمشكلة (واق الواق)، تلك المشكلة الباردة التي تردمها الغيوم والثلوج وطاقيّات الإخفاء، غير اتِّفاق أو مشاورة، قد اتّفقت تلقائياً على مؤامرة صمت، وتعايش أثيم!!

قال الشيخ المتحدِّث:

ودول الحياد، ألم تشترك هي الأخرى في السنّة الجغرافية؟

قال العزّي محمود:

إن دول الحياد لا تزال في بداية مرحلة النموّ، وأهمّيّتها العالمية الكبرى لا تزال أهمّيّة قيم إنسانية ومُثُل. وأهمّيّة أخرى لها في مواقف سلبية، فهي لا تشترك في أحلاف، ولا تقبل السيطرة والنفوذ، ولا تستعمر، ولا تتدخَّل في شؤون الدول الأخرى، ولا تحابي، ولا ترضى فكرة الحرب، فهي ـ بناءً على ذلك ـ لا تملك إمكانات التحرُّك لانتشال بلد، كـ(واق الواق)، من أعماق الغموض، وإذا هي عرفت عن هذا البلد شيئاً فلن يكون موقفها منه إلا كموقفها من المريخ والقمر، حينما تتَّجه إلى أحدهما الصواريخ.

قال فضيلة الشيخ المتحدِّث:

والجمهورية العربية المتّحدة، مركز الإشعاع ومركز الثقل وقاعدة التحرُّر للأمّة العربية قاطبةً؟ فإذا كان يقال ويشاع أن (واق الواق) جزء من الأمّة العربية فقد كان ينبغي أن تكون الجمهورية العربية المتحدة ذاتَ الشأن الأوّل في محاولة اكتشاف خفايا هذا البلد المحيِّر.

قال العزّي محمود:

كلّ الدول في العالم: عربية وغير عربية، يمكنها البحث، بأي وجه من

الوجوه، عن مشكلة (واق الواق) ما عدا الجمهورية العربية المتّحدة، فإنها مقيّدة مغلولة، لا تستطيع أن تخطو خطوة في هذا الاتّجاه؛ لأن معظم الدول ذات المصالح، من الجائز أن تسكت عن كلّ شيء إلا عن تحرُّكات الجمهورية العربية المتّحدة لأنها القوّة الجديدة الخطيرة ذات المبادىء الحسّاسة التي تنسف- بطبيعة وجودها وقدسية مبادئها- مطامع الدول الكبرى جميعاً، في منطقة الشرق الأوسط.

وقد كانت الجمهورية العربية المتّحدة تملك الجرأة النبيلة الفدائية التي تستطيع بها مواجهة الدول الكبرى، مجتمعةً ومتفرِّقةً، لأنها لا تواجهها بقوّة السلاح بل بقوّة الحقّ والمبادىء، غير أن نكبة كبرى حلَّت بمصير العرب، وهي حدوث الانقسام بين تيارات متطاحنة في البلاد العربية، وكلّ هذه التيارات، مهما تطاحنت: في الظاهر أو في الخفاء، فهي توجس خيفةً من النفوذ الشعبي الذي تتمتّع به الجمهورية العربية المتّحدة في كلّ قطر عربي، إذ هي قد أصبحت - بدون جدال- رمزاً مجسِّداً لآمال العرب ومبادئهم ومثلهم العليا.

ولهذا، صار موقف الجمهورية العربية المتّحدة موقفاً دقيقاً حسّاساً من كلّ القضايا ما عدا القضايا ذات الصبغة الدولية والعربية الجماعية، كقضيّتَيْ فلسطين والجزائر. فالجمهورية العربية المتّحدة هي- في الحقّ- آخر دولة تستطيع أن تتحرّك في شأن (واق الواق)، ولها ألف عذر وعذر في ذلك، نعم، إنها تستطيع أن تفعل شيئاً لو أصبحت (واق الواق) موضع إجماع بين الدول العربية، أو أصبحت ذات صبغة دولية.

قال فضيلة الشيخ المتحدِّث:

حقاً، إنها مسألة محيّرة، ليس من المحتمل أن نتقدَّم فيها خطوة واحدة، ثم استدار بوجهه المشرق كمن تذكَّر شيئاً هامّاً مفاجئاً، وقال:

يا أخانا العزّي محمود، دعك من تساؤلنا عن القوى الدولية المتعالية.. لماذا لا يكون أنيس منصور قد اكتشف وطنك، وتحدَّث عنه ـ فيما تحدَّث عنه ـ على أنه من الدول والقارات والقرى النائية والجزر المجهولة؟

-إن أنيس منصور تحدَّث عن كل شيء عن (واق الواق)، وأنا أعجب منكم، يا معشر العلماء: أتبحثون عن شهادة أنيس منصور لتطمئنّ قلوبكم إلى وجود هذا الوطن؟ وهو لا أعتقد أنه يؤمن بكم، ولا أظنّه قد دخل الأزهر قَطّ؟ وربما لا يكون قد اكتشف أن للأزهر وجوداً؟ ولكن، دعونا من هذا كلِّه، فإن مشكلة (واق الواق)ـ كما يبدوـ مشكلة يمكن تناولها بطريقة أخرى، نبحثها فيما وراء الطبيعة، وما دمتم قد تعرَّضتم لاسم أنيس منصور، فما رأيكم في تدبير من هذا القبيل، نشترك فيه جميعاً على مائدة مستديرة، وأجمعكم بأنيس منصور في جلسة لتحضير الأرواح، بطريقته الروحية المشهورة، ولعلّنا في هذه الليلة المباركة وفي هذا الجامع المقدّس نستطيع مالم تستطعه الأوائل والأواخر، فنكشف أسرار (واق الواق) عن طريق تحضير الأرواح، بعد أن عجزنا عن استخدام سائر الطرق المعقولة الأخرى؟!

قال المتحدِّث الأوَّل:

أعيذك بالله- يا أستاذنا العزي- من هذا الضلال! أتصدِّق هؤلاء الهازلين الذين يزعمون لك تحضير الأرواح؟ وهل من المعقول أن تكون الأرواح طوع أمر السِّلال والأطفال والفتيان العابثين؟ ثم، ما الذي يمنع من أن تكون إحدى اليدين الحاملتين للسلّة تخدع اليد الأخرى، فتدفع القلم إلى الكتابة في سبيل غرض ما أو نكتة عابرة؟ بل، وما الذي يمنع أن تكون كلتا اليدين مخدوعتين، تتحرّكان بالقلم تلقائياً، لأنهما لا تستطيعان السكون التامّ، ويأتي عمل اللاشعور، بعد ذلك، موجِّهاً خفيّاً لسير القلم، وكتابة كلمات وعبارات تدهش الحاملين للسلّة أنفسهم، وتخدعهم من حيث لا يشعرون؟

-يا أخانا العزّي محمود، إن شؤون الحياة وأسرار الأرواح والكائنات الخفية في هذا الكون أشدّ تعقيداً واستعصاءً من هذه المهازل التي اختلط بها الحقّ بالباطل، والحابل بالنابل، وأنا لا أوافق كبار علمائنا في الأزهر، الذين زعموا أن الشياطين تحلّ في السلّة، وتملي على الكاتبين ما يكتبون، فإنه حتى أمر الشياطين والأباليس لا يمكن تناوله والوصول إلى أسراره بمثل هذه البساطة، وحتى أنيس منصور، أمره كأمر إبليس، لا يؤخذ الشأن فيه بهذا الشكل من الجدّ الساذج، لقد جاء بفرية السِّلال هذه كفنّ شيطاني من فنون الصحافة، فأخذ الناس البسطاء هذا الفنّ الماكر مأخذ الجدّ، ولم يردّهم، بعد ذلك، إلى الصواب رادّ: لا تهديد المدارس والجامعات، ولا فتاوى العلماء والفلاسفة.

وتحرّك أحد العلماء في جلسته، وقال:

أما أنا، فعندي رأي آخر وسط: أنا مع زميلي فضيلة الشيخ في أن تحضير الأرواح لا ينطلي على عقولنا، ولا ينبغي أن تدخل إلى أماكننا المقدّسة، ولكن، لنا في التدابير الروحية المشروعة مندوحة عن الانزلاق في المهازل المضلّة، وكلّكم يعرف ـ يا أصحاب الفضيلة ـ أخانا العلّامة التقيّ فضيلة الشيخ (سعدان زكي)، هذا الشيخ الذي جمع بين تقوى اللّه والتبحُّر في علوم الشريعة والإلمام الواسع بعلم النفس والعلوم الروحية: قديمها، وحديثها، وقد طبَّق معارفه كلّها بممارسة البحوث الروحية عن طريق التنويم المغناطيسي، حتى أصبح مرجعاً للناس في كشف الأسرار والخفايا التي تعجز عنها أجهزة الأمن العامّ. والتنويم المغناطيسي ـ على العموم ـ من الفنون النافعة المشروعة التي لا تتنافى مع الدين ولا مع العلم، وحسبكم أن التنويم أصبح يُستخدَم في المستشفيات لإجراء العمليّات الجراحية، فهو ليس دجلاً ولا تضليلاً، فما رأيكم يا جماعة؟

وما كاد يتمّ تساؤله حتى نهضوا جميعاً، وأخذ متحدِّثهم الأوَّل بيد العزّي محمود، واتّجهوا به خارج الجامع الأزهر، وتوقَّف العزّي محمود يسأل مرافقه المتحدِّث الأوّل قائلاً:

ولكن، ما دام التنويم عملاً مشروعاً، فلماذا لا يتمّ إجراؤه في الجامع الأزهر؟!

قال فضيلة المتحدِّث:

-إننا ذاهبون من مسجد إلى مسجد، وفضيلة الشيخ (سعدان زكي) لا

يجري عمليّات التنويم إلا في مقصورة خاصّة في مسجد سيِّدنا الإمام الحسين (رضوان اللّه عليه)، ولعلّنا إذا ما واتانا الحظّ ندركه في هذه الليلة المباركة، فيكون ذلك فألاً حسنا لمصير(واق الواق).

مسجد سيّدنا الإمام الحسين وما حوله، في ليالي رمضان، تتجلّى فيه قدسية الصيام والعبادة وطقوس رمضان، كما لا تتجلّى في أيّ مكان آخر في القاهرة أو في غير القاهرة: جماعات يصلّون، وجماعات يرتّلون القرآن، وجماعات من حول المسجد ينشدون الأناشيد الدينية، ويرقصون، وجماعات في المنعطفات والقهوات المجاورة يدخِّنون الشيشة، ويشربون الشاي، ويتسامرون. وقد استطاع فضيلة الشيخ سعدان أن يخلق الهدوء في وسط الضجّة الهائلة، بفضل الاستعداد في مكانه الخاصّ المهيَّأ لمثل هذه الجلسات، وكاد الشيخ سعدان يعتذر لزملائه من العلماء لولا أن قدَّموا له العزّي محمود ضيفاً، وبسطوا له مشكلة الخلاف على أسطورة (واق الواق)، وأشعروا هذا العالِم التقيّ بأنه إذا تَمَّ العثور على هذا البلد واكتشافه بهذه الطريقة الروحية، فربّما كان أهله عرباً حقّاً، فيكون الشيخ قد قام بعمل عربي جليل!

قال الشيخ سعدان:

أنا عندي وسيط، أستطيع تنويمه بسهولة، ولكن طبيعة المشكلة التي نحاول بحثها تقتضي أن يكون الوسيط هو صاحب المشكلة بالذات، فهل عند ضيفنا الأستاذ العزّي محمود مانع أن يكون هو الوسيط في هذه المهمّة؟

قال العزّي محمود:

- هذا ما كنت أتمنّاه، فلا أَحَبّ إليّ من أن أذهب بروحي إلى أجواء بلادي الحبيبة، وأنقل إليكم- بأمانة وإخلاص- كلّ ما أشهده هناك، وأراه.

قال الشيخ سعدان:

نحن متأكِّدون من صدقك وإخلاصك أوّلاً، أمّا ثانياً، فأنا منوِّمك؛ ومعنى ذلك أنني أسيطر عليك سيطرة تامّة، لاتستطيع معها أن تحدِّثني إلا بالحقّ.

قال العزّي محمود:

اتَّفقنا، ولكن، بقي شيء آخر هو أننا لم ندبِّر تسجيل هذه الرحلة الروحية حتى نتركها كوثيقة روحية للناس.

قال أحد العلماء:

كيف تظنّ هذا ـ يا أخانا العزّي محمود ـ ونحن كلّنا جئنا إلى هنا لنكون شهوداً للتاريخ، وسنسجِّل ما نسمعه منك، وما نلاحظه على ملامحك في أثناء التنويم.

ثم أخذ قلماً وورقاً، وقعد على الكرسي يستعدّ للكتابة، أما الشيخ سعدان فقد هيّأ كرسيّاً آخر مستطيلاً، من القماش، من النوع الذي يُستعمَل للراحة، وأجلَسَ العزّي محمود عليه، وظلّ هو واقفاً خلف الكرسي، وطلب من العزّي محمود أن ينظر بإمعان، إلى عينيه الملتهبتين بإشعاع روحي أخّاذ!

وماهي إلا دقائق معدودة حتى شهق العزّي محمود شهقة مسموعة، واسترخت أعضاؤه وتخشَّبت، واصفرَّ لونه، وبدا كأنه قد انتقل إلى جوار ربّه؛ مما أثار الرعب بين جماعة العلماء الذين أخذ كلّ منهم كرسيّاً، وراح يتابع هذه العملية في سكون وذهول.

وبدأ العزّي محمود يتكلَّم.. الكلمات تخرج من فمه وكأنها تخرج من جثّة ميّت لاحراك به، ويبدو أنه كان مُدلّهاً بحبّ بلده، وكانت روحه تحاول أن تنطلق، حتى بدون تنويم؛ لذلك سرعان ما استجابت روحه للإشعاع السحري المنطلق من عيني الشيخ سعدان، ولكن العزّي محمود كان لسانه يختلج كالخائف المضطرب لهذه الحالة الجديدة التي ألمَّت به.

قال الشيخ سعدان:

لاتخَفْ، تحدَّث، وانطلق حيثما تشاء، إنني سأمنحك القدرة على الانطلاق حيثما تلهمك روحك، وسوف تهديك، لامحالةـ إذا كنت صادقاًـ إلى حقيقة وطنك، إلى موقعه من المعمورة، وستعرف ما إذا كان جزيرة في البحر أو وطناً مسحوراً أو مدفوناً تحت الرمال أو معلَّقاً بقدرة قادر بين السماء والأرض..! وستكون مضطرّاً، تحت سيطرتي، إلى أن تصارحنا بكل الحقائق التي تكتشفها في هذه المرحلة: ستخبرنا ما لون هذه الأرض، وما جنسية أهلها، وما لغاتهم كما تتخيّلهم أنت، أم أنهم مخلوقات من نوع آخر خلّفتها التكوينات الأولى للأرض، وتركتها كمتحف للنماذج القديمة من مخلوقات اللّه، منذ أسدل على نهايتها الستار، بعد التطوّرات الأخيرة في قصّة الأرض وما عليها!.

وعلى كل حال، فإن لنا من وراء رحلتك الروحية هذه أهدافاً ضخمة. إننا لو استطعنا، بوسائلنا الروحية، أن نكشف هذا البلد العجيب فإننا نكونـ حينئذٍـ قد فضحنا الدول الكبرى فضيحة مخزية: فإما أن نقضي على سمعتها العلمية، إذا كانت لم تعرف بعد وجود هذا البلد، أو نقضي على سمعتها الإنسانية، فيما إذا كانت تعرف وجوده وتتستّر عليه، كما يفعل اللصوص بمسروقاتهم. ومحاولتنا هذه، في الحالتين، ستكشف للعالم سخف البحوث الكونية التي تتّجه لاكتشاف الكواكب والنجوم. بينما يوجد على أرضنا هذه وطن كـ(واق الواق)، لا تزال معلومات الحضارة الحديثة عنه، ربّما، أقلّ من معلوماتها عن القمر والمريخ، قد تكون الأخبار الأسطورية عن (واق الواق) أكثر، لكن الثقة بها أقلّ، وما يدرينا؟ فقد يكون العثور على هذا البلد حلّاً

لمشاكل غامضة من مشكلات عصرنا الحديث، وقد تكون المخلوقات في (واق الواق) هي الحلقة المفقودة في دراسة الجنس البشري أو غيره من الأجناس، فيسدّ اكتشافها حاجة العلم في هذه الناحية، وقد يحلّ بعض الألغاز المحيِّرة في أصل الحياة، على أنه من المحتمل ـ أيضاً ـ أن المخلوقات في (واق الواق) أكثر تقدُّماً منا بآلاف السنين، فتخرِّج من شعبها أساتذةً للبشر، ومن يدري؟ فمن المحتمل أن السرّ في غموض هذا البلد أن لديه وسائل علمية متقدِّمة جدّاً، استعان بها على صنع مادة سحرية مكَّنته من أن يظلّ سرّاً مستغلقاً على أهل الأرض جميعاً؟ ومن يدري؟ فربّما كانت الأطباق الطائرة تنطلق من هذه البقعة المطلسمة.

بل، ومن يدري؟ قد يكون العزّي محمود نفسه هبط علينا من طبق طائر في طفولته، فنشأ نشأة عربية، ونسي قصّته، ولم يبق له من وطنه إلا رؤيا حالمة.

ورأى جماعة العلماء أن العزّي محمود، وهو متخشِّب على الكرسي، هامد الجثة تماماً، ما إن سمع حكاية هبوطه من الطبق الطائر حتى ارتعدت شفتاه فيما يشبه الابتسام، ولكن الشيخ سعدان سلَّط عليه روحه القوّية، وقال له: استمرّ في همودك واستسلامك لإرداتي، ولا تظنّني أهزل في هذا الكلام، فأنا في موقف كلّه جدّ، ولم أتحدّث هذا الحديث الطويل معك إلا لأعِدّك للرحلة إعداداً روحياً كاملاً، وأُشعرك بأهمّيّة أهدافها.

قال العزّي محمود:

-إني لست في حاجة إلى تشجيع أو تحريض أو إعداد. إنني مضطرم كالجحيم باللهفة إلى لقاء بلادي، فأسرع بي- يا أستاذ- وأطلق روحي من محبسها، فإني أكاد أتمرَّد عليك وعلى جسدي، فأنطلق بلا منوِّم ولاتنويم.

قال الشيخ سعدان زكي:

إذاً، قد أعطيتك إشارة البدء، فانطلقْ بكل حرّيّة، وسأتركك ترى وتسمع وتطير وتتَّخذ كلّ وسائل المحاولة والتحايل لاكتشاف أسرار بلدك والوصول إليه، في السماء كان أم في الأرض، ولن أتدخَّل إلا في هذه الدفعة الروحية الأولى التي أطلقك بها إلى المجهول، أو عندما تعود فنأخذ المعلومات عنك قبل أن تستيقظ، لأنك قبل اليقظة ستكون تحت سيطرتي، وستكون عندك القدرة الكاملة على استذكار كلّ شيء مَرَّ بك في رحلتك هذه.

قال أحد العلماء، وهو الذي كان، منذ تناول القلم والقرطاس، يكتب ويسجِّل:

إن معنى هذا- يا أستاذ سعدان- أن صاحبنا سيظلّ الساعات الطوال غائباً صامتاً، فيضيع وقتنا نحن بلا عمل، والأفضل أن نخرج لشأننا، ونعود إلى الساعة التي تحدِّدها لعودته من الرحلة.

قال الشيخ سعدان:

-هوّن عليك ياصاحب الفضيلة، أتظنّ أن حساب الزمن في الحياة الروحية يساوي حسابه في الحياة العادية؟ كلا.. إن عالم الروح له منطق آخر ونواميس مغايرة لنواميس الحياة التي تعوّدناها، ألا ترى أنه حتى النائم الحالم قد يطوي، في ومضة خاطفة من سباته، قصّة من الرؤيا، تستغرق السنين من سنيّ الروح؟ وماعليكم إلا أن تنتظروا برهة قصيرة. وهاهو ضيفنا العزّي محمود ينطلق في هذه اللحظة، ليصبح ضيفاً لعوالم مجهولة، قد يكون فيها مالايخطر على بالنا.

وأخذ الشيخ سعدان يضع يديه في صدره، ثم يمدّهما شيئاً فشيئاً، في عصبية وانفعال، على الجسد الهامد في كرسي التنويم، فانطلق تنهُّد طويل من فم العزّي محمود، وهمد كأنما قد همد إلى الأبد، وأشار الشيخ سعدان إلى أصحاب الفضيلة بالصمت، وترك الجسد النائم على الكرسي، ثم أشار إليهم بالخروج من مقصورته، وخرج معهم إلى ضريح الإمام الحسين، فقرأوا عليه الفاتحة، ثم انصرفوا إلى زاوية من زوايا المسجد، وصلّوا ركعتين تحيَّةً للمسجد.

ثم استدار الشيخ سعدان إلى جماعة الشيوخ، وأخرج مصحفاً صغيراً كان في جيبه، وقال لهم:

سوف أقرأ هذه الآيات الكريمة بصوت مرتفع، وعليكم أن تسايروني في القراءة بدون صوت، وأخذ يتلو من سورة «النمل» قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الّذي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ)، ومابعدها، وارتفع صوته بشكل ملحوظ عندما

بلغ هذه الآية: (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)، ومضى في قراءته حتى توقَّف قليلاً عند هذه الآية: (قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي).

ولما انتهى من قراءة السورة نهض من جلسته، وأومأ إلى العلماء بالنهوض، وأخذ يحثّهم، وهو يتّجه إلى مقصورته، قائلاً:

لا أحبّ أن تعتقدوا بأنني قرأت هذه السورة معكم لأستعين بها على هذه البعثة الروحية التي نطلقها هذه الليلة، فآيات القرآن أعظم وأجلّ من أن تُستخدَم لمثل هذه الأمور، ولكني قرأتها على سبيل المراجعة لموقفنا هذا، والاستئناس بمثل تلك الآيات التي تشير لنا إشارات ذات مغزى إلى أن هناك علوماً روحية أو غير روحية قد لا تأخذ بيد الإنسان إلى ما وراء طاقته العادية المنظورة، ومعظم الناس في هذا العصر يحاولون التفريق بين الروح والعقل، وأنا لا أؤمن بهذا التفريق، فالإنسان، برمّته، قوّة خلّاقة، وتجزئته إلى عدّة قوى، يُعنى ببعضها ويهمل البعض الآخر، ماهو إلا إهدار، لامنطق له، لجانب هامّ من كيان الإنسان، بل هو مدعاة للفشل في العناية، حتى بالجانب الذي تتّجه إليه العناية، لأنها ستكون عناية مبتورة.

قال ذلك الشيخ سعدان، وهو يمشي، حتى بلغ باب مقصورته، ففتحه ودخل متّجهاً إلى كرسي التنويم، وأشار إلى أصحاب الفضيلة، وكانوا قد شغلهم شاغل عن القرطاس والقلم بملاحظة الجسد الهامد على

الكرسي، وكأنما كانوا يظنّون الظنون بحياة هذا النائم الممدَّد على كرسيه المرهوب، ولكن الشيخ لم يشأ أن يهتمّ بقلقهم هذا، وأخذ يمدّ يديه في اتّجاه صدر النائم ويسحبها إليه، مَرّة بعد مَرّة، وإذا نَفَسٌ مديد يتنفّسه العزّي محمود النائم، فبادره الشيخ سعدان بقوله: لابدّ أنك قد انتهيت من المهمّة.

فنطق العزّي محمود بصوت هزيل خفيض قائلاً:

لقد انتهيت، نعم، وإنها ـ لو تعلمون ـ رحلة رهيبة رائعة جدّاً! فكم أيّاماً تركتوني في هذه المقصورة؟ قال الشيخ سعدان: ليس هذا وقت الحساب، ونحن الآن في حاجة إلى أن تقصّ علينا رحلتك خطوةً خطوةً، وتحدّثنا بكل مارأيت وسمعت، وستظلّ نائماً كما أنت حتى تنتهي من حديث الرحلة كاملاً، هيّا، هيّا، تكلَّمْ.

والتفت الشيخ إلى الكاتب، وأشار إليه بأن يكتب..

العزّي محمود يتكلّم:

بدأت، منذ اللحظة الأولى، أرى شموعاً سماوية ملوَّنة جميلة، تتلألأ في الأفق، وتَتَّجه بأشعَّتها إلى قبر الإمام الشهيد (سيّدنا الحسين). لقد صنعت طريقاً من النور متّصلاً بين السماء والأرض شطره هنا ينصبّ على القبر، والشطر الآخر.. آه، ياإلهي! إلى أين أراه ممتدّاً؟ إنه ممتدّ هناك، إلى كربلاء، يا إلهي، وهأنذا أرى مخلوقات هائلة تملأ، بتحرّكاتها، أجواء الفضاء: كبكبة هنا، وكبكبة هناك، إنهم الملائكة من رفاق الإمام الحسين وجنود ليلة القدر في حفلات ربّانية ملائكية، لا أستطيع حصرها. وهؤلاء العمالقة الذين يمرقون بين النجوم والكواكب كالبروق الخاطفة، لقد كنت أراهم، وأقلق ـ لأوّل مرّة في حياتي ـ على مصير هذه النجوم ومجرّاتها؛ خشية أن تتحطّم تحت أقدامهم الضخمة، أو تنالها ضربات أجنحتهم، ولم أستطع أن أفهم ـ لشدّة ذهولي ـ

كيف لم يحدث هذا، وأنا أرى أنه لايوجد موضع قدم في الأفق إلا ويمرق منه ملك هابط أو ملك صاعد، رغم علمي بأن هذه المخلوقات روحانية لاتحتكّ بأجسام النجوم؟ وأقبل مخلوق عملاق ينقضّ نحوي من الأفق. ياللخطب! ماذا يريد..؟ وأنا أحاول الفرار، ولكن، كيف أستطيع وكلُّه أضواء وأشعّة تخرج كلّها من عيونه الشاخصة، في كل جارحة من جوارحه؟ وصرخت، مذعوراً، بالكلمة المأثورة التي تعوَّدنا أن نقولها عند الاستماع إلى صوت الرعد: (سبوح قدّوس ربّ الملائكة والروح)، فخفض لي جناحه واقترب مني قائلاً: ما أنت؟ وماخطبك؟ قلت له: إنني أريد روح الإمام الحسين الشهيد، ولكن، كيف أعثر عليه في هذه الضجّة ووسط هذا الرعب؟ فكأنما أخذ الملاك الضخم من هيبة الحسين، وخرج ساجداً مستغفراً، ثم نهض وقال: مالك ولهذا الأمر الجلل؟

إنا نحن ـ الملائكة ـ لانستطيع أن نقترب بألسنتنا من السؤال عن هذه الروح الكبيرة.. قلت للملاك: ذلك لأنكم غير مكلَّفين بأعباء الحياة مثلنا، قال الملاك: إذاً، فأنت روح لا تزال في عداد الأحياء، لم تمت بعد، فكيف خلصت إلى عالمنا، واستطعت أن ترانا، وتتحدَّث إلينا؟ قلت: لأنني منوَّم، أطلقني إلى عالمكم الشيخ سعدان زكي.

قال الملاك: إن الشيخ سعدان اسم عطر في السموات، وخليق بروح أن ترشدك إلى حيث تريد، غير أن الإمام الحسين الشهيد لا يمكن أن تجده هنا، إنه في جنّة الخلد، بين النبيّين والصدّيقين.

قلت: إنني كنت أودّ لقاء الإمام الحسين لأن لنا عنده شؤوناً وشجوناً كثيرة، وقد كنت أسمع باسمه الكبير عند نشأتي الأولى، في بلدي الذي ضيَّعته، فلا أدري أين أجده: في سماء، أم في أرض!.

قال الملاك: ينبغي لك- مادمت خارج بلدك- أن تبحث عنه، فإنه لايقبل في السماء صرف ولاعدل لمن يضيِّعون أوطانهم، وأنا أقصد بالضياع الضياعَ المعنوي الذي يرادف الخيانة، أما إذا كنت تقصد ضياعاً حسّيّاً فإنني لا أستطيع أن أفهم عنك شيئاً، وكيف أفهم أن وطناً ينطوي في الخفاء؟

قلت: هذا هو الذي حدث، وأنا مثلك، لا أستطيع أن أفهم، ولكنني وجدت نفسي خارج وطني، ورأيت العالم كلّه يجهله، وينكر وجوده، ويتّهمني بأني مجرَّد شاعر غبي، وأنا، رغم أني لا أجد الدليل الذي أبرهن به للناس على وجود وطني، إلا أن إيماني بهذا الكائن وإحساسي بالارتباط به أكبر دليل على وجوده.

قال: كيف وُجِدت خارج وطنك؟ ومتى شعرت بأنك خرجت، أو أُخرِجت منه؟

قلت: هذا هوالذي يحيّرني! أنا لا أتذكّر شيئاً، وإنما عرفت نفسي هائماً وملتهباً كالقذيفة، ولا أعرف من أين انطلقت، ولا أعرف مَنْ أطلقني، إنما الذي أتذكَّره، في غموض، أنني كنت أحبو على تراب عاطر حبيب، وكانت أمّي وجدّتي تقولان لي: إنه تراب (واق الواق) الذي نبتَّ منه، وها أنا ذا أحنّ إليه فلا أجده، ولا أجد الناس يذكرونه

إلا كأسطورة، وإذا تحدّثتُ عنها، كحقيقة، أخذهم العجب مني، وهذا موقف يعذِّبني، وأنت ملاك تجوب السماء والأرض، فهل تستطيع أن تأخذ بيدي؟

قال الملاك: مادمت لاتزال في عداد الأحياء فإننا ـ معشر الملائكة ـ لانملك أن نتدخَّل في شؤونكم، وقد حيل بيننا وبين التعرُّض لأمركم منذ ناقشنا الربّ في شأن خلق أبيكم آدم، وقلنا: (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)، فلا تعوِّل عليّ، ولا على أمثالي. وإن الشيخ سعدان لأقدر على أن يدفعك بقوّة روحه إلى حيث لا أستطيع.

قلت: إن روح الشيخ سعدان هي التي انطلقت بي للحديث معك، وتركت لي اختيار الوسائل إلى هدفي، ولا عليك إذا لم تصنع لي شيئاً، وإنما أنا الذي ـ ربمّا ـ انتفع بك من حيث لاتدري ولاتقصد، فقل لي، بربّك: مامهمّتك؟ وإلى أين أنت ذاهب؟

قال الملاك: إن مهمّتي، في هذه الليلة المباركة، هي أن أتلقّى أوامر السماء في استجابة دعاء الداعين، والتجوّل في أنحاء الأرض.

قلت: إذاً، فسوف أنطلق وراءك بروحي حيث تذهب، ولابدّ أنك سوف تستقصي، وتجوب كلّ مكان.

قال الملاك: ذلك هو المفروض، غير أني لا أكتمك بأني لم أسمع، قَطّ، في أوامر السماء، شيئاً يتعلّق بهذا الاسم العجيب الذي ذكرته، فقد

يكون له اسم آخر، وقد يكون في الأمر سرّ لا أعرفه، ولكني- على كلّ حال- سأنطلق، ثم افعل أنت ما بدا لك. قال ذلك، ثم تحرّكت أجنحته الهائلة صوب المجهول، وكان أسرع من لمح البصر، ولم أستطع أن أمسك إلّا بآخر ريشة في أحدى أجنحته، وإذا بي أمرق معه كالسهم في فضاء اللّه، ورأيتني أحلِّق معه في آفاق الكعبة المقدَّسة، وأشهد الملائكة يصعدون من آفاق الكعبة بمطالب الصائمين والعاكفين والمتبتّلين إلى اللّه، ورأيت الملاك صاحبي يتناول الأوامر والتوجيهات دون أن يتوقّف، ووجدتني معه في سماء الصحراء على يمين الكعبة، وهو ينصت إلى دعوات الأكواخ في القرى، ويبدي اهتماماً ظاهراً بها، أكثر من أيّ مكان آخر، رغم أني لم أرَ فيها منارةً ولا مسجداً ظاهراً، وبينما كان في صدد هذا إذا بعملاق من عمالقة السماء يعترضه فجأةً، ويقول له: انحرف صوب البحر الأحمر. هنا كلمة السرّ، لاتقترب، لا تقترب.. فانحرف كالخاطر الذي ينتقّل من شرق إلى غرب دون أن يبدو عليه أنه قطع مسافة ما، وأخذ يحلِّق بعد البحر في آفاق السودان وأرتيريا والحبشة والصومال. ومن العجب أنني رأيت الملائكة، هنا، لا يحملون الدعوات في سجلّ محفوظ كما رأيتهم من قبل، وإنما كانت الدعوات تنطلق نفسها في صحبة الملائكة، في شكل قلوب بيضاء كالفراشات الجميلة.

وعاد الملاك صاحبي إلى البحر. لا أدري أيّ بحر! وما هي إلا هنيهة حتى اعترضتنا غيوم متلبّدة محمرّة كأنها اللهب، نابضة بالحركة كأنها دماء قلوب، دافئة نبيلة كأنها أرواح قدّيسين.

كان الملاك يحاول اختراقها فلا يستطيع، وأخذ يدور ويدور في غير جدوى. وأخيراً، لاحت لنا فوق هذه الغيوم سفينة تشبه عشّ الطائر من بعيد، وفيها أضواء لألاءة، وحولها أشباح تذهب وتجيء، واقترب الملاك من هذا العشّ السحري الضخم، وإذا بنا نسمع صوتاً حنوناً يسبح فوق الغيوم العجيبة، ويرفّ على جنباتها كأنه عطر سماوي ينفخها بقدسيّته، وتبيَّنت هذا الصوت، شيئاً فشيئاً، فإذا بي أجده نغماً موزوناً كأنه الشعر، والملاك كأنه ما كان يعنيه من الأحاسيس ما يعنيني! قلت في نفسي: يا إلهي إنك علَّمتني مالا يعلمه هذا الكائن الضخم الطيّب ذو الأجنحة الكثيرة، وقلت للملاك: ألا تستريح لهذا النغم الجميل؟ ألا تستطيع أجنحتك الهائلة العدد، الهائلة القوى أن تتعلَّم طيران الأنغام؟

قال الملاك: لاتنتظر مني أن أدخل معك في نقاش، فأنت الذي تشبَّثت بي رغماً عني، وأنا لا أعترف بوجودك معي، وحذارِ أن يعرف أحد أنك ترافقني، أو يرى شخصك، أو يسمع صوتك.

عبارات، قالها الملاك في جدّ وصرامة وقسوة، ورأيت أني لابدّ من أن أطوي شبحي في كهف من كهوف ريشه الجمّ الغزير، فانغرست واختفيت، لكني ظللت مأخوذاً بالأنشودة السحرية، وناشدت الملاك أن يتوقّف حتى أستوضح ألفاظها ومعانيها، وسار الملاك الطيِّب في غير اكتراث لضراعتي، ولكني دهشت إذ رأيت أنه ينجذب نحو الصوت بلا إرادة منه، بل على كره، ولمّا دنا منه لمحت غادة بارعة الجمال كأجمل ما صاغته أشعة الشمس، وطهَّرته قدسية السماء، ورأيت على

يدها مجدافين من عقيق أحمر، تجدِّف بها لسفينة العشّ، وبين يديها حور كالأقمار، ولاحظت أنها لاترتدي ملابس النساء، وإنما ترتدي أجنحة كالأجنحة الملائكية، وشدّ ماكانت دهشتي وحزني كبيرين حينما رأيتها تبكي، وهي تنشد وتردِّد، بصوتها السماوي، هذين البيتين:

ضيعت في صخب الأمواج ألحاني

وخنت فنّي وآلامي وأحزاني

عصرت روح بلادي أدمعاً ودماً

فقهقهَتْ من صنيعي خمرة الحانِ

لقد كانت دهشتي عظيمة جداً إذ سمعت هذين البيتين، تنشدهما حورية سماوية، ورغم شدّة حزني فإنني شعرت بالعزّة والفخار.. وحاول الملاك أن ينحرف عن سفينة العشّ، وأن يتّجه بعيداً عنها، وإذا به ينحرف إليها كأنما تحوّلت أجنحته، وانقلبت صخرة ثقيلة تنحدر إلى قاع سحيق، وكاد أن يصطدم بعشّ السفينة، وكانت الحورية الفاتنة قد ذهلت لاقتراب الملاك منها، فما تعوّدت، منذ ركبت هذه الغيوم الدامية، أن يقترب منها مخلوق، فأومأت، بمجدافها العقيقي، إلى الملاك أن يتوقّف، وكانت قد توقّفت أنغامها الشاعرة، وسكتت لوقع المفاجأة، فعاود الملاك محاولته في الانطلاق بعيداً، دون أن يتحدّث مع حورية العشّ، وانطلق حتى كاد يتجاوز الغيوم، ثم انقلب على عقبه مرتدّاً نحو السفينة المسحورة حتى أوشك أن يطيح بها، وعندئذٍ،

صرخت في وجهه، وظنّته يتحرّش بها، لكنه ظنَّها تتحرَّش به أيضاً، وتجذبه، بقوّة خفيّة، في سفينتها، فقال:

أيّتها الحورية المجهولة، إنني لا أدري كيف أنجذب إلى عشّك! فهل صنعت شيئاً خفيّاً في هذه السفينة؟ قالت الحورية: بل أنت الذي تهاجمني أو تجذبني نحوك. لا أدري.. وإذا كنت لا تعرفني، ولا تستطيع أن تثق بصدقي، فكذلك أنا، بالنسبة إليك، فالحلّ العادل الوحيد أن تفتِّش سفينتي، وأفتِّش ريشك وأجنحتك.

ـ قال الملاك:

نحن ـ معشر الملائكة ـ لا ندخل في مشاحنات واتّهامات، ولا نتعرّض للتكذيب، وأنا أكاد أجد عندك رائحة آدمية من روائح الفساد في الأرض، والحقّ أنه ليس عندي ما أكتمه أو أخفيه، إنما علقت بي، على غير طلب مني أو رغبة، روح آدمية، لعلّ بينك وبينها تشابهاً.

واستطرد العزّي محمود قائلاً:

وهنا أحسست بالوقوع في ورطة، قد لا يكون منها مخرج، فلو تخلّى عني الملاك فوق هذه الغيوم الدامية التي عجز هو عن اجتيازها فربّما ابتلعتني إلى الأبد، وما إن سمعت الحورية كلمة الملاك عن الروح الآدمية حتى بدأ عليها شيء من الاشمئزاز والصرامة، وقالت:

إذاً، فأنا أشدّ حرصاً على ابتعادك عني، مادمت تحمل هذه الروح!

ـ قال الملاك:

ـ أنا كذلك، لم أعد أطيق حمل هذه الروح لأنها قد تكون حمّالة ذنوب، وقد توقعني في محاذير كما وقعت الآن، فربّما كانت هي السبب. قال الملاك ذلك ونفضني من ريشه حتى وقعت على حافة السفينة وتشبَّثت بالمجداف العقيقي، وصعدت على ظهرها، فتصايحت الجواري وفزعن إلى حوريّتهن، وما إن لمحتني الحورية حتى ندت من فمها صيحة الدهشة، وقالت للملاك:

ـ من أين جئت بهذا الإنسان؟ من أين جئت به؟

ـ قال الملاك: لقد لقيته منطلقاً من مسجد سيدنا الحسين، أطلقته روح كبيرة من هناك، ولكن لماذا هذا السؤال المتلهِّف؟

ـ قالت الحورية: إنه حفيد من أحفادي!!

ـ الملاك: وكيف تعرفينه بهذه السرعة؟

ـ الحورية: إنه دمي، كيف أجهله..؟

ثم استطردت الحورية قائلة:

ألا ترى هذه الغيوم المتلبِّدة الحمراء؟ إنها قطرات من دماء الشهداء أحفادي، باركتها روح السماء، ورفعتها إلى الأفق، فأصبحت بحراً لجّيّاً مسحوراً في الفضاء كما تراها، وقد سألت الله أن يخرجني من الجنّة لأكون ربّانة هذه الدماء، أحرس طهارتها وأرعاها حتى لاتسقط

قطرة منها إلى الأرض فتطؤها وتلوِّثها أقدام المستعبدين، فتحزن لذلك أرواح الشهداء الأحرار، وسأظلّ على ذلك حتى تتطهّر طينة بلادي، ويتحرّر العبيد من أحفادي، وقد أقسمت على اللّه: مادام احفادي عبيداً أن يبقي هذه اللجّة الدموية في سماء وطنهم، تمنع عنهم الغيوث السخية السمحاء التي كنت أعرفها في عهد أبي وأجدادي، والتي كانت بها أرضنا جنّة من جنّات اللّه.

قال الملاك:

لقد فهمت أنك حورية من أصل آدمي، فما اسمك؟

الحورية: اسمي لميس، ابنة أسعد الكامل.

الملاك: لعلّ اسم بلدك هذا (واق الواق)، وهو البلد الذي تبحث عنه هذه الروح الآدمية التي كنت أحملها، ما دمت قد عرفتها من أحفادك!

الحورية (تشير إلى لجّة الغيوم التي لاحت كأنها بدأت تغلي عندما سمعت اسم (واق الواق)، وأمرتها بالهدوء):

نعم إنه هو، وهو البلد المضطهد اليتيم الذي أجمعَ العالم على دفنه حيّاً، فأقسمت أرواح الشهداء ودماؤهم أن لايحرّر الشعب إلا نفسه، أو ينقرض، وأن من مهمّتي، هنا، بأمر اللّه أن أمنع، حتى الملائكة، من مساعدة هذا الشعب لأن لعنة اللّه ستنزل به وتحلّ بأرضه إلى الأبد إذا لم يتولّ هو بنفسه غسل العار عنه. وإن أخوَفَ ما يخافه الشهداء أن يتصدّى لإنقاذ شعبهم شعب آخر، ولو كان شقيقاً، بل وأن تتصدّى

لإنقاذه حتى السماء، لأن العار، حينئذ، لن يفارق اسمه، وسيكون تحرّره لعنة أبدية عليه، على أن اللّه لايساعد من لايساعد نفسه.

ألا ترى كم من قرون وعصور مرّت على اللعنة والعار اللذين حلّا ببني إسرائيل، لأنهم كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه، ولأنهم قالوا لموسى {قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}!؟

إن دماء الشهداء الأبرار الذين قدَّموا رؤوسهم فداءً لوطنهم هي الذخيرة من الشرف التاريخي لهذا الشعب، ولولاها لما استطاع أن يرفع رأسه بين الشعوب، وهي العامل الوحيد الذي يدعونا إلى التفاؤل لأن القدر جعل لدماء الآدميين كرامة، لاتسمح بأن تذهب هدراً.

الملاك: ما هو سرّ انجذابي إلى سفينتك، حينما كنت تنشدين البيتين من الشعر بصوتك الجميل؟

الحورية: لست أدري.. إلا أنني عندما أنشد هذين البيتين من شعر العزّي محمود تثور نفسي، وتثور لجّة الدماء هذه، ونشعر بأن العالم كله حانة خمر سكرى، تسخر من مأساتنا وتقهقه، فلعلّ الدماء تنفّست أنفاس الغضب في طريقكم، فدفعتكم، نحوي.

قال العزّي محمود:

وهنا، حانت لي الفرصة لأن أتكلَّم، بعد أن خفّ ما ألمّ بي من الذعر، فقلت: لعل السبب، كما قد لا تعرفين- أيّتها الحورية القدّيسة- أن

صوتك الرائع نفخ في هذا الشعر روحاً من روحك السماوية فمازج الروح الأصلية في الشعر، فانجذب صاحبها إليك.

الحورية مندهشة ومتهلّلِة:

صاحبها....؟ أَوَ أنت صاحبها؟ أنت العزّي محمود؟

العزّي محمود:

نعم أنا هو.. أنا حفيد من أحفادك.

الحورية: أَوَ أنت القائل في رثاء الشعب:

ما كنت أحسب أني سوف أبكيه

وأن شعري إلى الدنيا سينعيه

وأنني سوف أبقى بعد نكبته

حيّاً أمزِّق روحي في مراثيه

وأن من كنت أرجوهم لنجدته

يوم الكريهة كانوا من أعاديه

ألقى بأبطاله في شرّ مهلكة

لأنهم حقّقوا أقصى أمانيه

قد عاش دهراً طويلاً في دياجره

حتى انمحى كلّ نور في مآقيه

فصار، لا الليل يؤذيه بظلمته

ولا الصباح إذا ما لاح يهديه

فإن سلمت فإني قد وهبت له

دقائق العمر ماضيه وآتيه

وكنت أحرص لو أني أموت له

وحدي فداءً، ويبقى كلّ أهليه

لكنه أجل يأتي لموعده

ما كلّ ما نتمنّاه نلاقيه

وليس لي بعده عمر، وإن بقيت

أنفاس قلبي تفديه وترثيه

فلست أسكن إلا في مقابره

ولست أقتات إلا من مآسيه

وما أنا منه إلا زفرة بقيت

في التيه، بين رُفات من بواقيه

كنّا جيوشاً تلاقي الدهر دارعة

واليوم وحدي، بلا درع ألاقيه

إذا وقفت جثا دهري بكلكله

فوقي، وجرت بيافوخي دواهيه

وإن مشيت به ألقت غياهبه

على طريقي شباكاً من أفاعيه

تكتّلت قوّة الدنيا بأجمعها

في طعنة مزقت صدري وما فيه

قال العزّي محمود: نعم، ولكني لا أتذكَّر في أيّة مناسبة قلتها.

الحورية: إذاً، ما كان أحبّ إليّ ـ وأنت هذه الدفعة الحارّة من دمي ـ أن تكون إلى جانبي هنا، للحفاظ على رفعة هذه الدماء.

العزّي محمود: ألم يكن الأحرى بي أن أبقى في المعركة حتى أنجح، أو أجيء إليك من الطريق الصعب الذي سلكه إليك الشهداء الأبرار من أحبَّتي؟؟

الحورية: إنك لم تخبرني بوجهتك وحقيقة قصدك إلا ما سمعته من

الملاك رفيقك.

العزّي محمود: إنني معذَّب بضياع وطني من حساب أهل الأرض، ولا يعادل هذا العذاب إلا الحزن، لأن شعبي هو المسؤول عن ضياع نفسه، وقد أدهشني أنك- وأنت أمّ كبيرة من أمّهات شعبي- تساهمين في عزله وإخفائه، لا عن أهل الأرض فحسب، بل عن أهل السماء.. وقد بلغ الأمر بك إلى حَدّ أن تحرِّضي ليلة القدر على مقاطعة هذا البلد التعس، إذ تسخِّرين الحرّاس الشداد على منع ملائكة الليلة المباركة من الاقتراب منه!

ولحسن الحظّ، إنني أفهم وأقدِّر وجهة نظرك، وقد أصبحت مقتنعاً ومرتاحاً لأن الأقدار كلّها تدفع شعبنا إلى الاعتماد على نفسه وإلا انقرض، وكلّ الذي أخشاه أن هناك تسلُّلاً من القوى الكبرى الشرّيرة للتدخُّل من أجل مصالحهم بينما القوى العربية المتحرِّرة، الخيرة، ممسكة عن التدخُّل كلّيّةً، تجنُّباً للصعاب، وإيماناً منها بقدرة الشعب وإبائه!

وأنا، منذ الليلة، قد دخلت في جدال مع بعض علماء الأزهر الذين زعموا أن بلادنا (واق الواق) مجرَّد أسطورة، وأنا لم يكن عندي دليل قاطع مقنع للآخرين، وكلّ ما أمتلكه من دليل هو إحساس بوطني وإيماني بوجوده وعظمته، وقد بعثوني بواسطة الشيخ سعدان زكي لأبحث عن موقع هذا الوطن، وأتحقّق من أمر وجوده، وأحمل لهم أخباره وأسراره، وإنه ليسعدني أن تكوني تعرفين اسمي قبل أن ألتقي

بك، وأَملي أن تيسِّري لي الدخول إلى وطني بعد أن حُرِمت منه خلال الشطر الأكبر من حياتي.

الحورية: أنا جدّ سعيدة بلقائك، راضية عن وفائك، ومتَّفقة معك في الهدف، غير أنه تقرّر- بصورة قاطعة، لا تقبل النقاش- أن الشهداء ومبادئهم وأهدافهم المحدَّدة ومُثُلهم العليا التي ماتوا لأجلها.. كل هذه الاعتبارات هي صاحبة الحقّ الأوّل في تقرير مصير بلادنا، على النحو الذي يقرِّره الشهداء أنفسهم، وما دامت أنت القائل في شعرك: «إنما يملك التراب شهيده»، فإني لا أشعر بالحرج إذا صارحتك بأنني لا أسمح، حتى لك أنت، بالتسلُّل إلى وطنك إلا أن تذهب بجسدك الحيّ، وتموت في ترابه.. ثم، ما الذي يجدي؟ على وطنك أن يقتنع بوجوده حفنة من علماء الأزهر أو ملايين من سواهم؛ إذ هو وجود- لو اقتنعوا به- غير مشرِّف.

العزّي محمود: إنني أذعن لقدسية الوفاء نحو الشهداء، غير أنهم لايستطيعون أن يسيِّروا حركة الشعب، وهم وراء الحياة.

الحورية: هناك مبادئهم وتراثهم النضالي وأهدافهم المعروفة لديكم، فإن كنتم لازلتم على صلة الوفاء بهم فارجعوا إلى تلك المقدَّسات، ولا تحيدوا عنها.

العزّي محمود: إن معظمهم- كما يبدو- كانوا يعيشون تحت الإرهاب، فلم يخلِّفوا تراثاً عقائدياً معروفاً للناس، ونحن، وإن كنا، بوَحيٍ من إحساسنا الخفي، ننشر ونكتب ونرسم الأهداف والمبادىء، إلا أننا

نريد أن ينبثق كلّ ذلك من الواقع المتجدِّد لبلادنا، فنحن نؤمن بالوجود الحَيّ للوطن والشعب، ونؤمن بأن هناك أحداثاً متجدِّدة كبيرة، وأن العالم لايعرفها، وأن شعبنا، لايمكن أن تتخلّى عنه وحده نواميس الحياة، فلا تثور إرادته لمغالبة المقبرة الأثيمة التي تحاول أن تدفنه حيّاً. ثم هل تتصوَّرين أن منوِّمي، الشيخ سعدان- بوحي من شكوك زملائه- يريدني أن أحقِّق فيما إذا كان شعبنا هذا من طراز المخلوقات الآدمية أو هو طراز غريب، فأنا- مع تقديري لوجهة نظرك- يهمِّني أن أرجع إلى الشيخ وزملائه بمعلومات تشرّفني، وتردّ اعتباري كآدمي من الآدميين لا كقذيفة من قذائف الطبيعة المجهولة.

الحورية: قلت لك إنه قد تقرَّر، قطعياً، أن لا يُسمَح بمثل هذا التسلُّل، على أنك لوشئت أن تحاول تغيير هذا القرار فإن الذي يملك التغيير هم الشهداء أنفسهم.

العزّي محمود: وهل لنا نحن- الأحياء- أن نقتحم الحاجز المقدَّس بيننا وبينهم؟

الحورية: ألست تؤمن بأن الشهداء أحياء عند ربِّهم يرزقون..!

العزّي محمود: بلى...

الحورية: ألم يؤمن العلم الحديث بالتنويم المغناطيسي.

العزّي محمود: بلى...

الحورية: وحتى علماؤنا في بلادنا، منذ القدم، يقرّون- كما بلغني- في الشريعة التي تلتزمونها. أنتم، الآن، حكاية العجوز (المسفلة) التي تذهب إلى الأموات، وتأتي بخبر من أخبارهم فتعتَبر هذه الأخبار شهادة عادلة، يوثق بها في المحاكم الشرعية.

العزّي محمود: أذكر كلّ هذا كإشاعة، ولايبعد- في رأيي- أن تكون (المسفلة) امرأة تنوِّم نفسها تنويماً أشبه بالتنويم المغناطيسي.

الحورية: والشيخ سعدان- زيادةً على ذلك الاعتبار- عالم تقيّ من الأخيار، وله سمعة بين علماء الأزهر وسمعة في مَلَئنا الأعلى أيضاً، وتنويمه لك في هذه الليلة المقدَّسة، وفي مسجد سيِّدنا الإمام الحسين، الإمام الثائر، يجعل من رحلتك إلى عالم الشهداء، من صناع وطنك، وثيقة لها قيمتها ومغزاها، فإن سمح لك الشهداء بزيارة الوطن فقد لقيت فيهم روح الوطن كلِّه، فمن شاء وراءك فليؤمن ومن غير ذلك شاء فليكفر. إن شعبنا حقيقةٌ، لا ينال منها أن يصاب كلّ العالم، إزاءها، بالصمم والبله والعمى. ومن صَدَّ عنا حسبه الصدّ والحفا، ومن فاتنا يكفِه أنا نفوته..

العزّي محمود: لقد اقتنعت بهذا القدر من النجاح، وبقي أن أعرف الطريق إلى الشهداء، هل أستطيع أن أذهب إليهم مع الملاك رفيقي؟

وكان الملاك طوال هذا الوقت يستمع إلى هذا في إنصات، وكأنه كان يفكِّر في مخرج من الارتباط بالروح الآدمية، التي تورَّط بصحبتها، فما إن سمع العزّي محمود يثير موضوع مرافقته، حتى اضطرب لذلك،

وتحرّكت أجنحته تهمّ بالانفلات، وماكاد يهمّ بالكلام حتى ابتدرته الحورية، وقالت: هوِّن عليك، فإني أعفيك من هذه المهمّة، ولك أن تغادرنا في ذمّة اللّه مشكوراً، وأمّا هذه الروح الآدمية فإني صاحبة الحقّ فيها. وماكادت تتمّ عبارتها حتى تحرّكت أجنحة الملاك، وانطلق في الفضاء.

قال العزّي محمود: كيف أستطيع العودة وحدي؟ ولو كنت ذاهباً إلى وطني فلا يهمّني أن لاأعود منه، أما وأنا ذاهب إلى مكان آخر- ولو إلى الجنّة- فإني أشفق أن أتخلّى عن المعركة التي سخَّرت عمري لها، ثم إنه لايشرّفني أن أكون متطفِّلاً على الشهداء دون استحقاق، ودون أن أدفع الثمن الذي دفعوه.

قالت الحورية بصوت يشبه وقار الأمّ العجوز، وإن كانت تبدو في ريعان الشباب:

إنك ملزم بالإذعان لأمري، فأنت من سلالتي، ولي حقّ في روحك..

العزّي محمود: هذا أمر مقبول، ولكن، كيف أجمع بينه وبين ارتباطي وخضوعي للشيخ سعدان، وروحي مرسلة من لدنه؟

الحورية: لاعليك من ذلك. وأَمرَّت مجدافها على روح العزّي محمود، فإذا بهذه الروح تدخل مرحلة ثانية في التنويم، أعمق غوراً، وأشدَّ شفافيةً وتسامياً.

لم أعرفهم! وقد كان من المتعذَّر أن أعرفهم لأوّل مَرّة؛ لأن وجوههم كانت تشعّ وتتلألأ كأنها مخلوقات نورانية، وكنت أرى البِشْر، لايبدو على ملامح وجوههم فحسب، بل على حركاتهم وأحاديثهم، والأريج العاطر المنعش الذي يتفاوح منهم، وجوّهم الضاحك المشرق من حولهم، وكنت لا أهتدي إلى إدراك نوع الملابس التي يرتدونها لأنها لاتدع بصري قادراً على أن يتثبَّت منها، ثم هي ليست لوناً واحداً، وإنما هي ألوان تتغيَّر بين كل لمحة ولمحة بتغيُّر الخواطر والمشاعر والهواجس، فكأنما هي كلام من الضوء يصدر عن القلب، مباشرةً، من غير طريق اللسان، إلا أنني أنا لم أكن أستطيع ترجمته إلى لغة أفهمها، فهي لغة علوية خاصّة بهم، وهي أشبه بالرموز التي تصدرها الأقمار الصناعية من وراء الغلاف الجوّي فلا يعرفها إلا العلماء..!

وتبيَّن لي، حينما لاحظت بعض تحرُّكاتهم، أن تلك ليست ملابس

فحسب، وإنما ملابس وأجنحة معاً.

أقبلوا عليَّ جميعاً يعانقونني بحرارة، واحداً واحداً، ويرحِّبون بمقدمي، ولايكادون يتحدّثون فيما بينهم إلا بلغتهم الرمزية الخاصّة، وإذا تكلَّموا عن طريق الصوت المفهوم فإنما يكون ذلك عندما يكون الحديث مشتركاً معي، وبرغم ماداخلني من الإعجاب بكل ما أراه وأسمعه داخلني شيء من الذعر والأسى: أما الذعر فلأني كنت كحيوان متوحِّش يفاجَأ بحياة مدنيّة راقية، تحنو عليه وتغمره بالرفاهية إلا أنه يرتعد من الخوف والنفور، وأما الأسى فلخيبة الأمل التي صدمتني عند لقائي بهؤلاء المخلوقين، فقد أيقنت، ساعتئذ، أني كنت على خطأ حينما جادلت أهل الأرض، وزعمت لهم أن الشعب الذي أنتمي إليه شعب آدمي؛ فإن مارأيته، الآن، قد حَقَّق مزاعم المتشكِّكين في وجود شعبي كشعب من البشر، وقلت في نفسي: ربّما أن الحورية ذات العشّ كانت قد خدعتني لتستدرجني، وتجعلني ألمس الحقيقة بنفسي، فأصحو من ضلال الإحساسات الشاعرية التي تجعلني أؤمن بانتمائي إلى شعب من البشر، هو شعب (واق الواق). وهاأنا، الآن، أمام الحقيقة المؤلمة: إنني لا أنتمي إلى شعب من الشعوب الإنسانية، ولكنني كُوِّنت تكويناً إنسانياً بفعل التربية، وما يدريني؟ لعل أطبّاء الأرض أحدثوا بعض التغيُّرات في تكويني منذ الصغر.. ياللهول، فأنا ـ إذاً ـ مخلوق زائف!

لا، أنا إنسان كالآدميين، ولا، أنا مخلوق كهذه المخلوقات التي أراها أمامي وينتمي عرقي إليها، لقد عادت إليّ مشاعر الغربة أكثر مما كانت، وتذكَّرت قول شوقي:

وطني لو شغلت بالخلد عنه   نازعتني إليه في الخلد نفسي

ولكن، أين هو وطني الذي تنازعني نفسي إليه؟ كنت في الأرض أشعر بالحنين إلى وطن غامض، وها أنا، لعلّني في الوطن الغامض، وأكاد أُجَنّ من الضيق والنفور، فأين المفرّ إذاً؟ وهذا الحنين الذي لازلت أعانيه وأتعذّب به! لقد كنت في الأرض محروماً ـ حقاً ـ من الانتماء إلى وطن، ولكنني، الآن، محروم من الانتماء إلى أيّ أمل.

وخطرت لي فكرة: لماذا لا أنتحر وأخلِّص نفسي من هذا العذاب؟ ولكن، كيف؟ فليس عندي سلاح ولاسموم ولاحبل أشنق به نفسي، ثم حانت مني التفاتة إلى ماحولنا فإذا نحن على قمّة جبل أخضر كأنه الزبرجد، وعلى حافّة الهاوية منه، في القرار السحيق، أنهار بيضاء تجري، فهممت بالانفلات من جماعتي إلى حافّة الهاوية لأقذف بنفسي، ثم تذكَّرت أنني، الآن، لست إلا روحاً، ولعلّ الروح لاتموت بالسقوط من المرتفعات، ولكني ـ أخيراً ـ صمّمت على المحاولة، ووجدتني أقفز من الحافّة وأهوي، وماهي إلا لحظات، فإذا القرارات السحيقة لاتجذبني، وإذا أنا كالهباءة الحائرة في أشعّة الشمس! ولكني وجدت القدرة على التحرُّك في الهواء كأنني ملاك، فلم يرقني هذا، لأني فشلت دون الغاية التي أبغيها، وبينما أنا في هذا، إذا بواحد من الجماعة يطير من ورائي، ويمسك بي كالعصفور، وهو يضحك، ويلاطفني، ويتأوّه.

وقدَّمني إلى رفاقه الثلاثة، وهم يضحكون ويحاولون الدعابة معي، ثم بدا عليهم شيء من الجدّ والاهتمام، ولم أدرِ ماذا كانوا يأتمرون فيما

بينهم، ثم سكتوا قليلاً، وإذا بأربعة أشخاص يهبطون من حيث لاأدري، فصافحوني وشدّوا على يدي، ثم تحدّثوا مع الشهداء هنيهةً، وقالوا لي: لقد قرَّرنا تنويمك إلى المرحلة الثالثة من مراحل الصفاء الروحي، وعلى الفور، ودون أن ينتظروا جواباً مني، نفحني أحدهم بما يشبه العطر من فمه؛ وياللعجب! ماذا أصبحت؟ وماذارأيت!؟

انفرجت في عينيّ دنيا كاملة، كنت قد حِيلَ بيني وبينها بحاجز صلب عنيد من النسيان، ورأيت قصّة حياتي كاملة، وتذكّرت الاسم الحقيقي لبلادي، وقصّة خروجي منها، وكيف انقطعت صلتي بشعبي عن طريق التنويم الوطني الذي نقلني من مستوى شعبي الذي لايزال يعيش في عصر قديم إلى مستوى روح القرن العشرين، وتذكَّرت كيف أني منذ يومئذ انقطعت صلتي بالشعب في مستواه، وأخذت أكافح للارتفاع به إلى المستوى الذي وصلت إليه، حتى اعتقدت، بحكم إصرار الأمل وفاعلية التكرار، أنني قد نجحت.

وماكادت تقوم حركة عام 67هـ ـ 48م وتنتكس، حتى أُصبت بإغماءة، قطعت الصلة بيني وبين وطني وتاريخي، وخرجت إلى أهل الأرض، فكنت أجزع حين لا أرى وطني في مسرح الزحف التاريخي للبشر، ولا أرى الناس يعرفونه، ولايشهدون له وجوداً إلا اسمه الأسطوري الذي تناقلته كتبهم وأقاصيص أسلافهم؛ ومن ثَمَّ أنكروا أن له وجوداً حقيقياً؛ ولذلك كابدت المرارة الرهيبة، ودخلت في نقاش مع الناس كأنني مجنون بين عقلاء، أو عاقل بين المجانين.وأخيراً، خطوت الخطوة الأخيرة، وقدَّمت نفسي للشيخ سعدان زكي، وهاأنا أحمد هذه

الخطوة فقد آبت السكينة والسلام النفسي إلى حياتي، وهأنذا أرى كلّ الحقائق كأنما كانت مطويّة عني في ملفّات سرّية، نفثها في روعي هؤلاء العمالقة الأربعة، فإذا هي كتاب مفتوح بين يدي.

والآن، أنا أميّز كلّ شيء، وتنحلّ الألغاز لعيني: واحداً تلو الآخر، فالعمالقة الأربعة الذين تولّوا نقلي أو تنويمي إلى المرحلة الثالثة من الصفاء الروحي هم: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، والكواكبي، والفضيل الورتلاني. هبطوا إلينا من علٍ، واضطلعوا بالمهمّة لأنهم كانوا المسؤولين- في الدرجة الأولى- عن الإيحاء والتنويم الوطني الذي حجز بيني وبين الشعب، فأعادوا إليَّ الصلة الحقيقية بالشعب، من جديد، أما الأربعة الأوّلون فهم الأحبّة الشهداء: الشهيد عبدالوهاب نعمان، والشهيد زيد الموشكي، والشهيد محمد صالح المسمري، والشهيد الضابط العراقي ج. ج، وتكوَّن منهم الوفد لاستقبالي في مشارف الجنّة والتطواف بها على أقطابها وأبطالها وشهدائها، وماكدت أعود إلى رشدي بفعل دخولي في المرحلة الثالثة من الصفاء الروحي حتى وثبت إلى هؤلاء العمالقة الأربعة، فعانقتهم وقبّلتهم وشكرتهم، فقالوا إن المرحلة الرفيعة التي سمونا بك إليها هي معذرتنا إليك فيما كبّدناك- بتراثنا العقائدي- من ويلات ومصاعب، ولكنا مضطرّون للعودة إلى مقاماتنا في الجنّة بعد أن انتهينا من مهمّتنا المحدَّدة. قالوا ذلك وغابوا عني كلمح البصر، ومن ثَمَّ اتجهت إلى وفد الاستقبال المكوَّن من الأحبة الأربعة من زملائي الشهداء، وقبَّلتهم وعانقتهم طويلاً، وبكيت من فرط الفرح وفداحة المفاجأة،

وكان الشهيد عبدالوهاب نعمان يبدو عليه الجدّ والاهتمام، فقال مشيراً إلى الجماعة، وهم يتضاحكون من حولي: هلمّوا إليّ.. وسرعان ما استجابوا وأحاطوا به، وأضاف قائلاً: علينا ألا نضيّع الوقت، ولنبدأ في العمل، إن مهمّتنا معقّدة، وهي جديدة علينا وعلى الأنظمة والتقاليد السائدة في الجنّة، لقد سمح لنا رضوان بالخروج من باب الجنّة إلى منطقة الأعراف هذه؛ لأنها منطقة حرّة، واستطاعت أمّنا لميس أن ترسل ضيفنا العزيز إلى هنا، وتبلغنا نبأه، وكلّ هذه أمور سهلة ومقبولة، وكلّ من رضوان والوالدة لميس قد تصرَّف في حدود اختصاصاته المعقولة، أمّا دخولنا الجنّة مع الأستاذ العزي، وهو لايزال في عداد الأحياء، فهذا أمر عسير.

وهنا تدخَّلَ الشهيد الموشكي محتدّاً، ومَدّ يده، وأفرد أصابعه، ودفعها إلى الهواء، وهو يقول: واللّه، لن يحصل هذا.. يرجع أخي العزّي من هنا مطروداً من باب الجنّة، ونقبل هذا؟

إن قدومه هذا فرصة ذهبية لخدمة رسالتنا جميعاً، إنني سأقدِّم شكوى ضدّ رضوان إن فعلها، وسأتَّهمه بأن في نفسه شيئاً على بني آدم، لقد تدخَّل هو وأصحابه الملائكة ضدّ الوالد آدم (عليه السلام)، وأرادوا أن يمنعوه من دخول الأرض، هو وذرّيته، حينما قالوا: { أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء}، ولم يكن أحد منهم، يومئذ، بوّاباً على باب الأرض، فكيف نطمع من رضوان أن يقبل دخول الأستاذ العزّي محمود من باب الجنّة؟ واستطرد الشهيد الموشكي، وهو ساهمٌ يفكّر، وقال: إن هذا وضع غير مقبول، يجب أن نطالب نحن- الشعب، سكّان

الجنّة ـ السلطات العليا، أن لايكون الملائكة وحدهم مسيطرين على هذه المراكز الحسّاسة، ليكن منهم بّواب، ومنّا بوّاب..!

قال الشهيد محمد صالح المسمري:

أنا مع أخي زيد، أشعر بحرج عظيم إزاء الموقف، وأنا لاتقلّ صداقتي للعزي محمود عن صداقة الموشكي له، وكلّكم تعرفون أن حدّة المسمري وعاطفيَّته لاتقلّان عن حدّة الموشكي وعاطفيّته، وما حملتنا (حجّة) إلى هنا، قبل الأوان إلا نزعة مشابهة، بل وارتباط بالعزي، متشابه إلى حَدّ كبير.

إن الموقف لايحتمل الانفعال، والسبيل الوحيد أن نبحث، الآن، الأمر من الناحية التشريعية الدستورية للجَنّة، فاللّه (عَزّوجَلّ) يقول: {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ}، فلننظر في المشكلة على هذا الأساس، فهل منصب البوّاب من الأمور التي تشتهيها الأنفس، وتلذّ بها الأعين..؟

فضحك الجميع، وعاد إليهم جَوّ المرح، ولكن الموشكي لم تهدأ نفسه بعد، فقاطع أصواتهم الضاحكة، وقال:

إن منصب البوّاب منصب شريف رفيع، ولا سيّما إذا كان على باب الجنّة، ومع ذلك فأنا قد لا أبحث المشكلة من هذه الزاوية، بل من زاوية أخرى. إن عبدالملك بن مروان ـ كما تعرفون ـ قد اعتبر صحبة الصديق الذي تسقط معه مؤنة التكلُّف أعظم لذّات الحياة على الإطلاق، فلنا

أن نطالب بصحبة الأستاذ العزّي محمود على أنها متعة سامية..

ثم قال: أليس من المحزن ـ ياجماعة ـ أن يردّ العزّي محمود من باب الجنّة..!

قالوا: بلى..

قال الموشكي:

فإن اللّه قد حرَّرَنا في الجنّة من كلّ أسباب الحزن، فوصف أهل الجنّة بأنه لاخوف عليهم ولاهم يحزنون، فكيف تنكّب في الجنّة بمثل هذه الخيبة المخزنة!؟

قال الضابط العراقي ج. ج:

أنا لاأراكم تبحثون المشكلة إلا من وجه واحد، وقد كان ينبغي أن نبحثها من وجهها الآخر، غير وجه المجاملة والعاطفة؛ ذلك أن العزّي محمود رجل مسؤول عن واجباته ومساهمته في خوض معركة ملتهبة مشتعلة، ونحن ـ بعاطفتنا ـ ندعوه إلى نزهة في الجنّة، أهذا منطق؟

فردّ عليه العزّي محمود قائلاً:

أنا أحتجّ على هذا الفهم الخاطئ الذي سمعتم فحواه من الأخ الشهيد الضابط، فقد فسَّر قدومي إلى هنا بمجرّد النزهة، وأنا أرفض هذا التفسير أصلاً، لقد كان هدف رحلتي من التنويم هو البحث عن الشعب، وقد صدّتني عن ذلك أمّنا لميس، ولقد عرفت، الآن، بعد

المرحلة الثالثة من التنويم، أن المعركة قد وصلت إلى درجة من التعقيد والغليان، بحيث أصبح الرجوع إلى الشهداء أمراً لامندوحة عنه؛ لأنهم أصحاب الحقّ الأوّل في مصير هذه المعركة، فأرجو أن تفهموا مهمّتي على هذا النحو، وأن يكون النقاش على هذا الأساس.

وكان الشهيد عبدالوهاب نعمان زعيم هذه اللجنة، وقد رأى أن النقاش بلغ حدّاً لابدّ، لأجل الحصول على نتيجة بشأنه، من الرجوع إلى الجهات العليا في جنّة الخلد، وقد شاور اللجنة، فوافقت.

قدم رئيس اللجنة، الشهيد عبد الوهاب نعمان، من سفارته إلى سلطات الجنّة، وكان يبدو عليه الابتهاج ونشوة الظفر، وبعد أن حَيّانا قال:

ـ إنكم لا تتصوّرون الصعوبات التي اعترضتني: إن الناس في الجنّة في شغل شاغل، بملذّاتهم، عن الاستماع إلى الكلام عن المشاكل، بل إن الرأي العام هناك يستنكر، بشدّة، أن يعمل أيّ ساكن من سكان الجنان عمل تعكير صفو النعيم، ولم أجد لي عوناً حقيقياً متحمِّساً إلا عند الشهداء، فهم الذين تجيز لهم تقاليد الجنّة أن يحتفظوا بذكريات حقوقهم وقضاياهم، لكن، بشرط أن لا يمارسوا العمل في هذا الشأن إلا خارج الجنّة، أو يومَ الحشر، قد يُسمَح لهم بأن يبعثوا أرواحهم إلى الدنيا تستطلع ما فعل أحبّتهم من بعدهم.

لكن الصعوبة الكبرى هي التي أثارتها مطالبتنا بأن يزور الجنّة معنا ضيف، لا يزال في عداد الأحياء.

واستطرد الشهيد نعمان قائلاً:

إنني لم أفاتح رضوان (عليه السلام) بالأمر؛ لأني أعرف رأيه سَلَفاً، وإنما ذهبت إلى سلطات أخرى في الجنّة، ودخلت على رئيس منطقة من مناطق الفردوس، وهو صديق حميم، غير أنه ليس من أهل (واق الواق)، ولم يكن يعرفني، كمواطن من (واق الواق)، فنحن – كما يعرف الشهداء – لا زلنا نتستّر بهذه التسمية، حتى في الجنّة؛ لأن شعبنا لم يستطع أن يرفع رؤوسنا بعمل مجيد.

قلت لهذا الصديق:

إنني أريد أن أقدِّم إليك جنسيّتي، كمواطن من شعب (واق الواق).

قال الصديق:

من (واق الواق)؟ نحن لا نسمع بشعب يحمل هذا الاسم، لا في الدنيا ولا في الآخرة!

ـ هذا حقّ، وهناك أسباب ليس هذا وقت الحديث عنها.

ـ وما هو الباعث لك إلى تقديم نفسك إليّ وإعلان جنسيتك الغريبة، هذه الساعة بالذات؟!

ـ هناك مشكلات في بلادنا، لابدّ، لحلّها، من الرجوع إلى شهدائها، ثم إلى السلطات الأخرى في الجنّة، وقد جاءتنا، لتحريضنا للنظر في هذه المشاكل، روح آدميّة حيّة، عن طريق التنويم المغناطيسي.

ـ كلّ شعوب الأرض تحلّ مشاكلها في الأرض، ولا تلاحق شهداءها، بالمتاعب، إلى الجنّة، ويبدو ـ على هذا ـ أن أحياء شعبكم أشدّ موتاً من الأموات.

ـ ولكن شعوب الأرض ـ أيضاً ـ يسوقها في مجرى الحياة والتطوُّر تيّارٌ واحد عامّ، فيجد كلّ شعب عوناً ومؤازرة من هذا التيّار، أما نحن فنعيش خارج هذا التيّار، وعندما يمرّ هذا التيّار بنا، أحياناً، يتحوّل إلى دوامة منحرفة تجذبنا إلى أسفل.

ـ هذا غير معقول! فإن ناموس التطوُّر عامّ شامل، لا يختلف في كلّ الشعوب.

ـ تذكّر ـ يا أخي ـ أننا، في الجنّة، لا نقول اللغو، وأنا أعذرك إذا لم تهضم كلامي، جئتك بما يكاد ينقض أسس المعارف والنظريات لديك، ولكي أسهِّل عليك فهمي أضرب لك بعض الأمثال:

إن الحضارة الحديثة ـ عادةً ـ تأخذ بيد الشعوب إلى التقدُّم، حتى لو دخلت بقصد الغزو والاستغلال فإنها لا تستطيع إلا أن تدفع الشعب إلى أن يرتفع، ولو ببطء.. أمّا عندنا فإن العلم الحديث لم يقدّم لنا شيئاً غير أن يطيل عمر الطغيان والفساد، ورغم أنه يحدث أن تنتشر الأوبئة القاتلة في بلادنا، كالجدري والتيفوس والطاعون، وتفتك بحياة الآلاف، إلا أن الدول الغربية المتحضِّرة لاتصنع إزاء هذه الأوبئة شيئاً، ولاتوجِّه لوماً إلى الذين يمنعون العلاج والنجدة عن هذا الشعب، ولكنها ـ في الوقت نفسه ـ تستقدم أندر العقاقير الحديثة

المبتكرة التي تطوِّل في عمر الطغيان، وكلّما أشرف على نهايته قامت قيامة الدوائر الغربية الاستعمارية، ومَنَحته قوّة جديدة، وهي تعرف أن يوماً من حياته قد يزيد في امتداد وباء من الأوبئة، وهو- في الوقت نفسه- حكم على الشعب بالحرمان من كافة حقوق الحياة، وحماية لظهر الاستعمار. وخذ مثلاً آخر: الكتلة الشيوعية: التي تزعم بأنها المرحلة الأخيرة من مراحل تطوّر البشرية، ولكنها في بلادنا تتحوَّل إلى شيء عجيب.. إلى أداة لتدعيم عصر من العصور البدائية الأولى فتسلِّح وثناً رجعياً، وهي تعرف أنه لايستخدم السلاح إلا لمقاومة التطوُّر ولقتل النساء والأطفال وتدمير القوى، كما فعل في خولان! الأعجب من ذلك أنها تعطيه أدوات زراعية من الأجهزة الميكانيكية التي تُستعمِل في المزارع الجماعية في بلادها، ولكنها تدِرب عبيده في بلادنا على استخدام هذه الأجهزة للتوسُّع في مساحات المزارع الإقطاعية للأمراء، وهي- كذلك- تتيح لتجّار الطاغية الرأسماليين – الاحتكاريين فرصاً رابحة لاحتكار بيع السلع الاستهلاكية، أليس ذلك كلّه من الأمور الغريبة المحيِّرة؟

والأغرب من ذلك أن نواميس الجنّة تخلَّت عنك وعني فتركتك تلقي عليَّ محاضرة مزعجة، وجعلتني أعيش معك هنيهةً في مرارة وتعاسة، كأنني في (واق الواق)! أفي مثل هذه المناسبة تردّ عليّ مثل هذا الردّ، وأنت الذي أعرفك شهماً غيوراً، وقد جئتك لأمر جلل، وبلادنا تغلي وتضطرب، والأعداء يتألّبون عليها، ويستعدّون لافتراسها، ولابدّ أن يعمل الشهداء شيئاً من أجلها؟

افترض أن الروح القادمة من عالم الحياة قدمت إلى هنا، وسُمِح لها بالدخول، فما هي النتيجة؟

إن الشهداء ولاشكّ لهم منزلة، ولهم نفوذ في الملأ الأعلى ولهم- كذلك- نفوذ وقدسيّة عند شعب (واق الواق)، وعندهم أسرار خطيرة ودروس غالية، فقد انكشف لهم بِلقاء ربِّهم، وجوه الحقّ، وتجلّت لهم أخطاؤهم في الحياة، تلك الأخطاء التي تسبَّبت في اندحارهم وفشلهم، ثم إننا شعب، أجمعت كلّ الدنيا على غمطنا وتجاهل مصيرنا، فمن حقّ هذا الشعب أن يرفع صوته عالياً بين النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، كلّ هذه الأسباب وغيرها جعلت زيارة هذه الروح للجنّة أمراً في غاية الأهمّيّة.

وعند ذلك، اقتنع الصديق، وأخذ يُجري اِتّصالات بالجهات المقدَّسة العليا، وقد أجمعت كلّ تلك الجهات على أن للجنّة تقاليد ودساتير، لايمكن لأحد نقضها، حتى وصل الأمر إلى الإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب، الذي قيل له إن هذه الروح كانت قاصدة إليك، فاستطاع الإمام الحسين أن يحصل على رخصة لدخول الروح إلى الجنّة، غير أنها رخصة مشروطة بأن لايكون في هذه الزيارة أيّ نشاط سياسي، من أيّ نوع.

قال الشهيد عبدالوهاب نعمان:

وقد كانت هذه الرخصة نصراً غالياً، فليتفضّل ضيفنا العزيز.

قال الشهيد الموشكي:

كلا، إن هذه الرخصة المشروطة غالية الثمن، وأيّة قيمة لزيارة العزّي محمود لمقامات أصدقائه في الجنّة إذا لم يستطع أن يعمل من أجل وطنه شيئاً؟ إنني أوّل المتحمِّسين لدخوله، لكن، بشرط أن يؤدّي رسالته وإلا فلا.. وأقولها بأعلى صوتي.

وقال الشهيد المسمري:

أنا أوافق الزميل الموشكي، وإن كان ذلك يؤسفني.. إن رسالتنا التي قُطِعت رؤوسنا لأجلها تفرض علينا هذا الموقف فرضاً، ولانريد مجاملة الصديق العزّي محمود على حساب وطنيّته، وإذا كان إبليس قد أخرج أبانا آدم من الجنّة فارتكب بذلك جرماً، فإننا قد نفعل العكس، فندخل زميلاً إلى الجنّة، ونحوِّله عن رسالته، فنرتكب جرماً كجرم الشيطان، وإن كنّا في الظاهر عملنا عملاً مضادّاً لعمله؛ فالعبرة بالغايات والمقاصد، وأنا أعتقد أن الصديق نفسه لايستطيع، الآن، أن يكون سعيداً بدخول الجنّة، وهي تحول بينه وبين رسالته، أليس هو القائل:

كلّما نلتُ لذّة أنذرتني

فتلفتُّ خيفةً من زماني

وإذا رمتُ بسمة لاح مرأى

وطني فاستفزّني ونهاني

قال الضابط العراقي:

العبرة بأهمّيّة الرسالة المحدّدة التي يريد أن يؤدّيها في هذه المناسبة، فإن كانت رسالة هامّة عاجلة فلا يجوز أن نتهاون بها، وإن كانت عاديّة، أو يمكن تأجيلها، فلا ضير علينا من التسامح وتقبُّل هذا الفضل الكبير من سيِّدنا الحسين (عليه السلام)، فعلى الزميل العزّي أن يحدِّد المهمّة.

وعند ذلك قال العزّي محمود:

إنني أخجل، الآن، لو دخلت الجنّة متخلّياً عن الرسالة التي ذُبحتم أنتم من أجلها، وذُبح سواكم من الشهداء الذين أَنشُد لقاءهم، وسيعذِّبني هذا الخجل، ويحرمني طعم الجنّة، ولم أكن في حاجة إلى الوقاحة، قَطّ، كما أنا اليوم، والحقيقة أني لو ملكت هذه الصفقة لاستطعت، الآن، أن أظفر بمتعة كبرى، غير أنها متعة على حساب متعتكم أنتم، فما أظنكم تستريحون في الفردوس بمنظر زميل لكم تخلّى عن قضيّتكم إيثاراً لراحته ومتعته: إنه ـ في هذا ـ كمن يبيع إخوته من جزّار، وينشد الغنى من ثمن الدم الحرام، ولن يختلف حالي عن هذا إلا بأني سأقبض الثمن مؤخَّراً، وهو اختلاف لا أهمّيّة له.

وكان الشهيد عبدالوهاب نعمان يستمع إلى هذا الكلام، وهو يبتسم ابتسامة الرجل الأريحي الذي اعتاد أن يتنازل عن حقوقه في الحياة

والموت، فكان يعجب إذ يستمع إلى كلام إنسان يضع حقوقه في حياته موضع التقديس، وقد نفد صبره بعد هنيهة، واندفع بوعي من أريحيّته وطيبته، وقال:

إننا نعفيك ـ يا ابني ـ من حقوقنا في الخجل، وندعوك أن تدخل معنا بشخصية أخرى غير شخصيّتك التي اختلقت لها المسؤوليات اختلاقاً، إنني أنا دخلت السجن، وأنت طفل صغير، ولبثت ثلاثين عاماً، بين السجن وبين إجازات صغيرة خارجه، ولقد ذُبِحت بعد ذلك ـ حقّاً ـ بعد أن كبرتَ أنت، وبلغت سنّ النضال، وأصبحت شريكنا في رسالتنا ومتضامناً معنا في تحقيق الغايات المقدَّسة، ولكنك لست وحدك، فإنه كان إلى جانبنا المئات من الناس، سلا الأكثرون منهم عنا، وانصرفوا لشئونهم، وانقلب البعض منهم ضدّ رسالتنا المشتركة، وبقيت أنت ومجموعة قليلة من الأحبّة مقيَّدين بقيود ثقيلة من الوفاء، وإنها لفرصة لك أن تجدنا نحن ـ أصحاب الحقّ ـ نعطيك إجازة من تلك القيود، تدخل بها معنا الجنّة بعض الوقت، في خلسة من ضميرك، وعلى غفلة من رفاقك الأحياء.

قال العزي:

ولكن، ما هذا يا شيخ عبدالوهاب...؟ أنسيت يوم وداعنا الأخير، ونحن في مطار الصافية، حين فاجأتني بقلبك الكبير وأخبارك اليائسة، إذ قلت لي: «إننا قد أحيط بنا، وإن المأزق لا علاج له، ولا مخرج منه»، وحدثتني ـ يومئذ ـ وأنت مقبل عليّ بوجهك السمح المتهلِّل،

كما أراك الآن على مشارف الجنّة، قائلاً إنك تعرف النتيجة المحتومة سلفاً وإن كلّ شيء سينهار سريعاً، وأبديت لي غبطة عجيبة بأنك (ستذهب فداء، وأننا سننجو، ونبقى خميرة لحركة أخرى)، وذلك هو نص العبارة التي قلتها يومئذ، وأكّدت تلك العبارة قائلاً إنك مسرور وراضٍ ومطمئنّ إلى وفائنا للرسالة المشتركة. أفننجو- يا شيخ عبدالوهاب- بعد ذلك، من الذبح ومن إغراء شياطين الطغيان، وتأتي أنت، كقدّيس، تدعوني إلى جحود حقّك وعقوق دمك؟

وهَبْني- يا شيخ عبدالوهاب- تخلّصت من حقوقكم، أنتم الشهداء جميعاً، فهل الأمر كلّه ينتهي هنا؟ إن وراءكم حقوق الأحياء من الشعب وحقوق الأجيال القادمة من سلالتهم، وحقوق المطرودين المشرّدين من بلادهم، وحقوق قدسيّة الأرض الأمّ التي جُبِلنا من ترتبها.

قال الشهيد عبدالوهاب نعمان:

ألم تكن أنت حائراً منقطعاً ذاهلاً عن مجريات الأحداث في الوطن؟

قال العزّي محمود:

نعم، لكن المرحلة الثالثة من التنويم قد كشفت لي كلّ شيء، وأرتني الوطن شاخصاً من وراء الغيب، كأني أعيش في الساعة.

ثم أخذ العزّي محمود يسرد قصّة الخطوط العريضة في بلاده، منذ البداية حتى الآن:

مراحل الصراع بين الشعب والحكومة:

1ـ منذ قيام الحكم الوشّاحي الأوّل، قضى الشطر الأكبر من عهده يضرب القوى الداخلية، بعضها ببعض، وأهمّ هذه القوى القبائل؛ فكان يحارب القبيلة بالقبيلة حتى ترك القبائل كلّها عاجزة عن التجمُّع لمقاومته، وكان يستعين على سحق هذه القبائل ـ أيضاً ـ بالدهاء والإرهاب والرهن الآدمي وتخدير الأعصاب وإطلاق يده في ذبح خصومه بلا محاكمة، وكان يجنّد، لحملاته الكبيرة، بعض الشخصيات القويّة التي كانت مخدوعة، وكانت تؤازره عن عقيدة.

2 ـ ثم انتقل الحكم الوشّاحي إلى مرحلة أخرى، استدار فيها إلى الشخصيات والعائلات الكبيرة، فأخذ يسحقها ويضرب بعضها ببعض ـ أيضاً ـ حتى تَمّ له ما يريد، واستدار على عرشه كما يهوى.

3 ـ وحَلّت مرحلة ثالثة، وهي نشأة الحركة الفكرية التي قادتها الطبقة المستنيرة الشابة متمثِّلة في رعيلها الأوّل، من أمثال الشهيد أحمد المطاع، وأحمد محمد نعمان، وأحمد عبدالوهاب الوريث، والشهيد حسين الدعيس، والمحلوي، والعزب، والشماحي، والعزّي السنيدار، وآل السياغي، وناشر عبدالرحمن، والشيخ حيدرة، وغيرهم ممن لا نستطيع التعرُّض لذكرهم.

وأخذت هذه الطبقة المستنيرة تنفث في وعي الشعب روحاً جديدة، وهي، وإن لم تكن محدّدة الأهداف، ولا متّسمة بِسِمة المعارضة، ولا متَّخذة شكلاً تنظيمياً، إلا أنها كانت البذرة الأولى لحركة الأحرار

المنظّمة، المعارضة، التي جاءت فيما بعد، والحركة الفكرية هذه لم يُكتَب لها، في حينها، أن تنتشر على نطاق واسع، فلم تستطع أن تكسب إلى جانبها قوى شعبية، بل احتبست نفسها في مجال ضيِّق من الشبّان، فاستطاع الطغيان أن يعتقل رجالها، ويستعدي عليهم الرأي المحافظ المتديِّن الذي لم يكن يُفهَم عنهم إلا أنهم كانوا يريدون اختصار القرآن.

ومَرَّ وقت طويل، وتضاعفت آلام الشعب، وتكشّفت سرائر العائلة الرجعية، وتفاعلت ـ تلقائياً ولا شعورياً ـ قوى القبائل والعائلات والشخصيات المتذمِّرة وحركة الشبّان الفكرية المستنيرة، ونضجت، واختمرت، وأصبحت تصلح للعمل الثوري والتنظيم الجماعي.

4 ـ ثم ظهرت المرحلة الرابعة في أوّل حركة منظّمة ثورية علنية في أخريات الحرب العالمية الثانية، وكان أبرع ما في هذه الحركة جرأتها على مواجهة الطغيان المقدَّس، وجهاً لوجه، بإصرار وثبات، ثم قدرتها على تجميع كلّ المستويات العالمية من القوى الشعبية ذات الميول المختلفة؛ بحيث أصبحت كلّها – حتى شطر كبير من الأسرة الحاكمة – تعتبر حركة الأحرار في صالحها جميعاً، وقد أسفرت هذه المرحلة عن ثورة عام 1367هـ ـ 1948م، وسرعان ما انتكست هذه الثورة، وكان السبب الرئيسي الضخم في هذه النكسة أنه، رغم التفاهم بين المستويات القيادية، فقد ظلّت القاعدة الشعبية في القبائل– رغم تذمُّرها– جاهلة لأهداف هذه الحركة، وعاجزة عن فهمها والتفاعل معها، فاستطاعت فلول الرجعية الحاكمة أن تستغلّ القاعدة الشعبية بين

القبائل، وتثيرها ضدّ الثورة، غير أن هزيمة ثورة 48 كانت هي الوسيلة العجيبة الفعّالة التي نشرت فكرة الثورة على أوسع نطاق، وهبطت بها من المستويات القيادية العالية إلى القاعدة الشعبية، تماماً كما فعل الإسلام بالتتار الذين حطّموا الإمبراطورية الإسلامية، ثم انهزم طغيانهم روحياً، فاعتنقوا الإسلام، فأصبحوا هم قوّته الكبرى. وقد كان هذا التحوُّل لابدّ له من عدّة سنين حتى يختمر وينضج، وتنضج معالمه.

5 ـ ثم دخلت الثورة في مرحلتها الخامسة كتطوّر طبيعي للمرحلة السابقة، وكانت قد وجدت فرصتها منبثقة مع ثورة القومية العربية، منذ 1952، وتعاظم مَدّ هذه المرحلة، واتَّسع، واستفحل الحماس لها والإيمان بها والجهر فيها بمبادىء متطرِّفة، كان لها ردّ فعل مختلف في المستويات القيادية العالية؛ مما أدّى إلى انتشار الريبة المتبادلة بين الجهات المختلفة؛ ومن ثّم أدّى هذا إلى التفكُّك وظهور تيّارات تحارب فكرة الثورة حرباً سافرة حيناً، ومُقَنَّعة أحياناً. وكانت ثورة 55 مثالاً حيّاً للتيّارات المتطاحنة، وقد اشتركت في هذه الثورة عناصر ثورية، هم الجيش وقادته وعناصر من البيت المالك الرجعي، وهم الذين تزعّموا هذه الثورة. ومن وراء الجهاز الثوري الذي كان قائماً، يومئذ، ومتسلِّماً زمام السلطة، كان بقية الأحرار منقسمين في أسلوب التجاوب معها، فالمتعجِّلون المتسرِّعون يرون في هذه الثورة خطوة إلى الإمام، والمحتاطون المشفقون يرون فيها خطراً لرجعية متجدِّدة لقوى زائفة القناع، فكان عليهم أن يعملوا عملين مختلفين: فمنهم من عارض الثورة مباشرةً، ومنهم من حاول الاتّصال بقيادة الجيش

لإقناعها بتنحية الوجوه الرجعية من جهاز الثورة. وعلى كل حال، فقد سقطت الثورة لأسباب أخرى، قبل أن تستطيع الانقسامات التأثير عليها. وعلى أثر سقوطها تعاظم خطر التيّارات الممالئة للأحرار، وكَثُر في المستويات العالية عدد من العائلات الحاكمة المرتابة والمتوجِّسة خيفةً من أهداف حركتهم، وكان كلّ مبدأ مزعج تنادي به ثورة القومية العربية ضدّ طبقة من الطبقات الاجتماعية في البلاد العربية يكون له ردّ فعل شديد في الطبقات المماثلة لها في بلاد (واق الواق)، وبذلك اشتدّ الخلاف بين من كانوا حلفاء الأمس ضدّ الطغيان الرجعي، فانقلبت كثير من القمم العالية ضدّ نفسها ومبادئها، وارتدّت عن مرحلتها الثورية، وارتمت متهالكةً في أحضان الرجعية والطغيان: إما متستِّرة أو مجاهرة، وبقي فريق، ممن في وجوههم حياء، وفي قلوبهم ضمائر، في موقف سلبي حائرين، لا يدرون أين يتّجهون! وفي إبان هذه النكسة المحزنة، ومن وراء هذه الهزيمة، على السطح كان هناك مَدّ ثوري في الأعماق يكتسح القاعدة الشعبية اكتساحاً خاطفاً أسرع من أن تستطيع القيادة الثورية، بوسائلها المحدودة، توجيهه والتحكُّم فيه، فانفجر هذا المَدّ عدّة انفجارات تلقائية: في القاعدة الشعبية بين أفراد الجيش، وفي القاعدة الشعبية بين القبائل، وكان كلّ ذلك خارج نطاق السيطرة القيادية للأحرار. وبطبيعة الحال، فإن هذه الانفجارات التلقائية العمياء ارتكبت أخطاء، ولم تجد من يجرؤ على قيادتها وتقويم اعوجاجها؛ وبذلك خلقت صورة شائهة للثورة، فزادت في عدد الخائفين من التحرُّر والأحرار، ولكن هؤلاء الخائفين لا يتجاوزون نطاق طبقات محدودة

في بعض المدن. وفي خلال هذه التطوُّرات النفسية (ذات الملامح الثورية البارزة وذات التقلُّبات والنكسات والهزائم) أتيحت فرص ذهبية للحكم الرجعي وللدول الأجنبية، فاضطرّت الرجعية الحاكمة أن تتخلّى عن نفاقها المعروف وتظاهرها بالنفور من الأجنبي، كما تخلَّت الدول الأجنبية عن شروطها الفاضحة لعملائها، فتقدّمت إلى الحكم الرجعي بعروض مختلفة، وتحالفت معه تحالفاً صامتاً، فمَكَّنها من أن تتغلغل، بسمومها وأموالها وخبرائها، في أحشاء البلاد المتعطِّشة لأيّ لون من ألوان التغيير، وكان همّه الأكبر أن يستند إلى طمأنينة خائنة وثقة فاجرة بالدول الأجنبية، تساعده، بالعون المادّي والعون المعنوي، حتى يضرب معقل القوّة الشعبية الجديدة في (بكيل، وحاشد)، فأنفق الأموال، بسخاء، على بعض رؤساء القبائل، حتى يجعل منهم الخونة ضدّ العهود والمواثيق التي تحالفت على أساسها القبائل الوطنية. وقد استطاع، بعدد قليل من المشايخ، أن يجد ثغرة خائنة من هؤلاء، فخانوا عهدهم مع ابن الأحمر، وأضعفوا ثقته بنفسه وبقبيلته، وبرغم أن ابنه الشابّ الثائر حميد وجد في قبيلة (بكيل) الأبطال الأوفياء إلا أن أباه الشهيد حسين بن ناصر الأحمر – نظراً لسنّه وشيخوخته – أراد أن يجد متنفَّساً من الوقت في ظلّ أمان زائف وعهد فاجر، فسلَّمَ نفسه لمن لا يراعون عهداً ولا شرفاً ولا ذماماً. وأمّا ابنه الشابّ فقد قاوم أيّاماً تؤازره (بكيل) الشجاعة الباسلة، ثم سقط أسيراً، وأُعطِي أماناً وعهداً كما أُعطِي أبوه، وبعد أيام ذبح الابن، ثم ذُبِح الأب، وذُبِح معهما بطل من أبطال بكيل هو الشهيد عبداللطيف بن راجح. ومعنى هذه

الأحداث أن الحكم الفاسد الرجعي قد أثار على نفسه حقداً جماعياً شاملاً لمركز الثقل في قوّة القبائل قاطبةً، وأن قبيلتَيْ حاشد، وبكيل هما القوّة المحاربة الرئيسية في البلاد، وترتبط معهما كلّ القبائل برباط التحالف التقليدي. والوشّاح السفّاح، حينما قتل ابن الأحمر وعبداللطيف بن راجح، لم يكن يقصد قتلهما وحدهما، بل كان يقصد إذلال كلّ القبائل، واستعبادها، وقطع كل رأس يرتفع في المستقبل من رؤوس رجالها وقادتها، وقد أحست القبائل بذلك وفَهِمته، ونظرت إلى هذه الأحداث نظرتها إلى معركة فيها حياتها أو موتها، وهي مصمِّمة على الخلاص من هذا الخطر الداهم المستمرّ، وستبحث عن هذا الخلاص من هذا الخطر الداهم المستمرّ من أيّ طريق، والجيش نفسه لا يقلّ تذمُّراً وحقداً عن القبائل، بل هو تابع للقبائل؛ فإن كلّ فرد فيه ينتمي إلى قبيلة منها، يسالم من تسالمه ويحارب من تحاربه. وإلى جانب ذلك، يوجد خارج نطاق هذا الحكم حوالي مليون مهاجر، لا يستطيعون العودة إلى بلادهم إلا إذا زال هذا الحكم وخلفه حكم شعبي، ولا يوجد في الأرض مهاجرون منكوبون كالمهاجرين من هذا البلد ومن هذا الطغيان، فكلّ المهاجرين من الاضطهاد أو من البؤس في أيّة أمّة من الأمم يجدون عطفاً ورعاية من بعض دول العالم أو من المنظّمات العالمية أو من الرأي العام العالمي ما عدا المهاجرين من (واق الواق) والهاربين من سياط الوشّاح السفّاح، ومذابحه، فإنه لا يوجد من يعترف بوجود مشكلة لهم، ولا من يمدّ يد المساعدة إليهم. وفي أراضي (واق الواق) كنوز مَنْ الثروات في باطن الأرض،

وفي ظاهرها، وفيها شعب يموت جوعاً وجهلاً ومرضاً وذبحاً وتعذيباً وإذلالاً. وفي أرض (واق الواق) تراث تاريخي دفين يهمّ البشريةَ كلَّها نبشُه والتنقيب عنه، ولكن حكومة الوشّاح، التي تعتبر عملها الرئيسي دفن الأحياء، ترى من باب الأَوْلى أن تحافظ على دفن تراث الأموات من أجداد هذا الشعب؛ لئلّا يرى أمجادَهم الشعبُ، فيخجل ويثور. وأرض (واق الواق) مبتورة إلى جزئين: جزء ينهشه الاستعمار، وجزء يربض فيه الطاعون الرجعي، ويريد هذا وذاك أن يقطِّعا شعب هذه الأرض تقطيعاً ثانياً باسم المذاهب الدينية، وتقطيعاً ثالثاً باسم السلالات العنصرية، وتقطيعاً رابعاً إلى قبائل ومدنيّين، وتقطيعاً خامساً – وهو أخطرها جميعاً، وأشدّها فتكاً؛ لأنه يصطبغ بضبغة متحضِّرة حديثة تحت شعار الديموقراطية – هو التقطيع إلى هيئات ومنظّمات متناحرة، لها نشاط وحياة وعمل دائم دائب، يواصل البتر والتقطيع، ويجعل لكلّ أنواع الانقسامات القديمة البالية التي يخجل المثَقَّفون منها قناعاً حديثاً ومنطقاً عصرياً، ويحاول أن يجعل لها وجوداً حيّاً، بعد أن أوشكت على الاندثار. وكل هذه الانقسامات، بأنواعها، قد وضعت عقبة في طريق التحرُّر، فرغم الإجماع النظري والإجماع النفسي على ضرورة الخلاص من حكم الوشّاح، هناك حالة عامّة من التلكُّؤ والحيرة والعجز والشلل أصابت قضية التحرُّر في الصميم، بسبب هذه الانقسامات.

وكان من نتيجة الصراع في الداخل، على النحو الذي استبان لنا في مراحله المتعددة، أن أصبح الموقف مكتظّاً بالمخاطر الخارجية، كما لم يكن كذلك قَطّ؛ ففي داخل بلادنا، الآن، خمس دول أجنبية، تتناهبه، وتتغلغل في أحشائه، وإحدى هذه الدول محتلّة جزءاً ضخماً منه، وهي تبحث عن مزيد من التدعيم ومزيد من النفوذ، والدول الأخريات الأربع تنتظر تقطيع أوصاله لتنال نصيبها.

وإذا كانت كلّها تتنافس على المغنم، وتتسابق وتصطرع فيما بينها، فإنها كلّها ـ رغم الخلاف الشديد ـ متكتِّلة في جبهة واحدة، في سبيل هذه الأهداف الشرّيرة الآثمة:

1 ـ سحق كرامة الشعب وإرادته وحرّيّته ووحدته وإمكانياته الثورية الفعالة، بحيث لا يقوى على أن يكون خطراً على أيّ طرف من الأطراف المتنافسة.

2 ـ التحالف، في صمت، مع الحكم الرجعي الذي يكفل لها عملية إبادة جماعية متوحِّشة مستمرّة، وهي تبدو ـ في الظاهر ـ بريئة متورِّعة عن التدخُّل في الشئون الداخلية.

3 ـ إقامة ستار حديدي (غربي شرقي معاً) يلفّ هذا البلد في ظلام الصمت، حيث لا يعرف العالم عن مأساته شيئاً، ولا يَعطف عليه، ولا يدري أن له قضيّة ما.

4 ـ إبعاد القومية العربية ومقاومتها، وتشكيك الشعب فيها، ووضع العراقيل في سبيلها، وإرهابها بحرب أثيمة، حتى لا تجرؤ على أداء رسالتها في هذه المنطقة.

تلك هي صورة الشعب في أرض (واق الواق)، وصورة القصّة، والمواقف والأخطار التي تكتنفه في هذه الفترة الخطيرة من حياته.

والمعضلة الرئيسية، الآن، أن الوشّاح ـ رغم أنه مكروه مغضوب عليه عند الجميع، جميع القوى في الشعب، وجميع الطبقات، وجميع التيارات على الإطلاق ـ استطاع بمفرده أن يجعل الشعب عاجزاً عن التجمُّع حول قيادة قويّة تقف ضدّه.

وإذا كانت تلك هي المعضلة الرئيسية فإن مهمّتنا المقدَّسة أن نبحث للشعب عن طريقة أو حيلة أو معجزة، يستطيع بها أن يلتفّ حول قيادة ما، وتتجمَّع قواه في سبيل الخلاص من الوضع الخانق الذي يعيش فيه.

ولقد حاول الأحياء الأحرار من هذا الشعب أن يجدوا الوسيلة الناجحة للتجمُّع الناجح، فحالت دون مرامهم طبيعة الظروف المعقَّدة التي تخنقهم، وتخنق بلادهم، وتدفنها تحت ستار من الغموض.

والآن- ونحن على مقربة من مقامات الشهداء، أصحاب الحق الأوّل في بلادهم وفي قضيتهم- أجد فرصتنا الذهبية للبحث عن حلول لمشاكلنا عند الشهداء أنفسهم، فإنهم قد يكونون أكثر حياةً من الأحياء أنفسهم، وقد يكونون أقدر على إيجاد معجزة، زدْ على ذلك أن نفوسهم قد تسامت وانصهرت وطُهِّرت، فهم قد يستطيعون، بنظرة واحدة، أن يكتشفوا الداء، وأن يستبطنوا الأمور الخفيّة، وهم بعد في ملكوت الله حيث تتجلّى الأمور هناك على حقيقتها، دون زيف ولا كذب ولا أنانية.

إن دنيانا في (واق الواق) قد أفسدها الطغيان، وأفسدتها الحاجة والفقر والخوف والشهوات الدنيئة والذمم الخربة، وتلك كلّها رذائل قد عُصِمت منها أخلاق الشهداء، وطُهّرت منها أرواحهم، وهم- بذلك- أجدر بالصواب والرشد، وأهدى إلى مواطن العلل ووسائل العلاج.

كان العزّي محمود يقدِّم هذا التقرير الشامل، والشهيد عبدالوهاب ورفقاؤه منصتون في اهتمام ظاهر، ولمّا انتهى إلى عباراته الأخيرة قال الشهيد عبدالوهاب نعمان:

هذا اتّجاه محبّب إلى نفوسنا، وليس أحد أسعد منا به فيما لو تحقَّق، ولكن، أَلَمْ أقل لك إن الترخيص لك بدخول الجنّة مشروط بأن لا

تمارس فيها أيّ نشاط سياسي؟

ـ أيوجد عندكم، في الجنّة، طاغية أو جلّاد تجامله السلطات العليا في الجنّة؟ إذاً لمّاذا لا تقوم عندكم ثورة كثورة 23 يوليو؟!!

ـ كيف تظنّ أننا نقبل الدخول في الجنّة مع قاتل شعبنا ومذلّ بلادنا؟

ـ ولكن، ما هذا الكرب؟ كنّا في الحياة الدنيا (دنيا ما قبل ثورة 23 يوليو) نواجه هذه الكلمة أينما رحنا، وأينما توجّهنا، وكنّا نعتبر منع النشاط السياسي مجاملة دولية متبادلة بين الدول، أما في عالم الآخرة، فكيف نستسيغه؟ وكيف نفهمه؟

ـ هناك شريعة علياء سائدة في الدنيا وفي الآخرة، وهذه الشريعة تمثِّل مشيئة اللّه وإرادته. إن اللّه موجود في عالم الآخرة كما هو موجود في عالم الدنيا، فكما أنه ـ سبحانه ـ لا يدخل في أعمال العباد في الدنيا، فكذلك هو في الآخرة، إن اللّه أمر الناس بالجهاد وبالنهي عن المنكر وبالدفاع عن النفس والشرف، فإذا هم استسلموا للذلّ والعار ولم يستجيبوا لأمر اللّه فهم يستحقّون أن يكونوا عبيداً، وإذا كان اللّه (جلَّ وعلا) لا يساعد العبيد الأذلّاء، وهو خالقهم وموجدهم، فكيف تريد من الدول أن تساعدهم؟

ـ فإذا كانوا ضعفاء، لا سلاح عندهم ولا مال؟

ـ من كان في يده الحقّ فلا يمكن أن يكون ضعيفاً، فإن الحقّ فوق القوّة، ألا ترى أن الزنوج العرايا في دنياكم أصبحوا يقاومون الدول

الكبيرة ذات الأساطيل والأسلحة الذرّية، ويغلبونها، ويخرجونها من ديارهم، ويحطمون قيودها الحديدية بأجسادهم النحيفة العارية؟

ـ الواقع أنني لا أفكر في طلب مساعدة حربية من الجنّة، ولا أريد مالاً ولا سلاحاً، وكل ما أطمع فيه هو الاستئناس بآراء الشهداء أصحاب الحقّ الأوّل في بلادهم، فقد يرشدوننا في مشاكل، ضاع فيها الرشد.

ـ الذي أعلمه، الآن، أن هذا ممنوع في الجنّة، على أنه من الممكن أن يرتفع هذا المنع إذا استطاع شهيد من الشهداء العظام أن يقنع ولاة الأمور في الجنّة، وهذا احتمال بعيد جدّاً.

ـ إنني أخجل من أن أقبل الترخيص بالدخول إلى الجنّة دون أن أتحدّث مع الشهداء في شأن بلادنا، بل أنا مصمِّم على أن لا أعود إلى عالم الأحياء إذا لم أحمل رسالة منقذة إلى شعبي.

وبينما كان العزّي محمود يتحدّث على هذا النحو من الحوار إذا بملاك هائل يهبط على المتحدِّثين، وكانت لا تبدو على وجهه الإشراقات المتهلّلة التي على وجوه سكّان الجنان، ونادى هذا الملاك بصرامة وبلا مجاملة:

ـ أين العزّي محمود؟

ـ أنا العزّي محمود....

ـ أنت مطلوب من السلطات العليا في جهنّم.

وما كاد يتمّ عبارته حتى ارتعد أعضاء وفد الاستقبال من شدّة الذعر، وتغيَّرت ملامحهم المبتهجة: اصفرت ألوانهم كأنما جاءهم عكفي من الوشّاح، يسوقهم إلى (حجة)، ويستأنف فيهم عملية الذبح.

أما العزّي محمود فإن شيئاً عجيباً جعله يتماسك، والظاهر أن السبب في ذلك أنه لم يصبه ترف الجنّة ونعيمها، بل لقد كان، حتى هذه اللحظة، يعيش في جحيم من القلق والأسى والحزن على بلاده، وعلى مصير القضية التي لايزال يحمل عبء رسالتها، فلم يأته رسول جهنّم بجديد من الهَمّ، بل لقد كان يداخله، بقدوم هذا الرسول، شيء من الطمأنينة، لايدري له سبباً.

وقبل أن يردّ على أمر الملاك تقدَّم إلى زملائه الشهداء، وقال لهم:

إذا كان لي حقّ عليكم فهو رجائي الحارّ وضراعتي إليكم أن لا تفتحوا أفواهكم بكلمة، وأنا قد تعوَّدت في الدنيا أن أحبابي والمتَّصلين بي يُنكَبون، ويعاقبون على الفور، بمجرّد اتّصال بي، أو بمجرَّد الاتّهام بأن لهم صلة بي من أيّ نوع كان، وأنا أنزع عالم الآخرة أن يسوده مثل ما يسود (واق الواق) من ظلم وعسف، ولكن، أخشى عليكم من نواميس قاسية لاترحم، وقد ارتفع عنكم التكليف باستشهادكم، فلا أحبّ أن تشاركوني تبعاتي، لا سيّما وأنتم، الآن، خارج الجنّة، وربّما لاتكون عندكم المناعة التامّة ضدّ الأذى والأسى! وكلّ ما أرجوه منكم أن تعلموا أنني، حتى هذه اللحظة، لازلت مصرّاً على الالتقاء بالشهداء للغرض الذي حدثتكم به نفسه، وبدون قيود ولا شروط، وها أنا ذاهب للأمر الجديد، وعليكم أن تتشاوروا مع الشهداء، وتتبادلوا الرأي، وأرجو أن لاتفكِّروا في مشكلتي أنا من الناحية الشخصية، بل فكَّروا في الرسالة التي أحملها، إنني، الآن، ذاهب إلى حيث لا أدري، ولا أعرف لي مصيراً، وسأجعل القضية نصب عينيّ أينما ذهبت، ولا أدري

كيف يمكن الاتّصال بكم بعد هذه المرحلة الجديدة التي دخلنا فيها.

قال العزّي ذلك، ولم يسمح لأعضاء اللجنة بالردّ، بل أشار لهم بتحيّة الوداع، وتعلَّق بحلقة من الحلق الحديدية التي يدَّرَّع بها الملاك، واختفى عن أنظارهم على الفور.

في جهنّم.. وجد العزّي محمود نفسه محلِّقاً في فضاء رهيب، خارج منطقة الأعراف، ثم أحسّ- فجأةً- أن الملاك يمرق به بين ألسنة هادرة ضاربة من اللهب، وأدرك لذع النار، وصرخ من الألم، فأخذه الملاك في قبضته الضخمة، وأطبقها عليه لتكون درعاً واقياً له من ألسنة اللهب، وراح الملاك يهوي منقضّاً بسرعة هائلة منحدراً إلى قرارات هاوية سحيقة، كان العزّي محمود يستمع إلى دويّ الهول في جنباتها وإلى صرخات المعذَّبين ولعنات الزبانية وصوت الشَيّ والكَيّ واللحم المحترق..!

وكانت لحظات عصيبة، حتى ظنّ أن الملاك قد هبط في قرارة الهوّة السحيقة، ولم يكن يدري ماطبيعة هذه القرارة، ولا شكلها أو لونها! وقد دعاه الشعور بالخوف إلى أن يتخاوص بعينيه من خلال أصابع قبضة الملاك، فرأى أنها إحدى دركات جهنّم، وهي تشبه جناحاً من الحديد المصهور اللاهب، خارجاً من عرض الهوّة ومفضياً إلى كهوف عميقة واسعة متداخلة في عرض الهوّة، كهف وراءه كهف، إلى نهايات بعيدة، وقد صرخ العزّي محمود حينما رأى الملاك يدخل به هذه الكهوف، قائلاً بأعلى صوته:

ـ أيّها الملاك، هل أنت قد أمرت بقتلي؟ فإن كنت قد أمرت فنفّذ الأوامر، وإلا فإني أحذِّرك، وأؤكّد لك أنني سأموت في قبضتك اختناقاً، أو أموت خارجها احتراقاً، هل عندكم في هذه الكهوف أدوات إسعاف...؟ أسعفني بالأوكسجين..!!

قال الملاك:

ـ لاتخف، إنك تنسى، الآن، أنك روح، ولست جسداً، والروح لا تموت، ولاتحتاج إلى سخافات الحياة وأوكسيجيناتها، إن كلّ ماتشعر به، الآن، إنما هو رواسب الأوهام العصيبة كما تشعر بها في الأحلام المزعجة، فاطمئنّ.

قال ذلك، ودخل بالعزّي محمود إلى كهف واسع، يجلس في نهايته مخلوق رهيب من الزبانية، تندلع أنفاسه من خياشيمه لهباً، فاقشعرّ العزّي محمود ذعراً، وظنّ أن هذا المخلوق يأكل الآدميين من أهل النار، ويبتلعهم كما تبتلع التنّور الحطب، ثم يتجشّأهم من أنفه لهباً، وتصوّر العزّي محمود ـ لصغر حجمه أمام هذا المخلوق ـ أنه قد يصبح بعد لحظات قشّة صغيرة في أتون هذا الكائن الرهيب، لكنه رأى فوق مكتبه لوحةً مكتوباً عليها الآية الكريمة: {وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا}.

وما إن أفرجت قبضة الملاك عن العزّي محمود حتى أقبل عدد من الزبانية، كما لو أنهم ينفِّذون أوامر روتينية جاهزة، فألبسوه درعاً واقية ضدّ اللهب، مزوَّدة بنظّارات لوقاية عينيه ولتقريب المرئيات في ساحات

الجحيم المترامية الأطراف، ثم ركَّبوا على الدرع جناحين طيّارين، ورغم هذه العناية الظاهرة كان الذعر لايزال مسيطراً عليه.

وبعد أن أتمَّ الزبانية تجهيزه ودَّعهم الملاك الذي جاء به، وطار، فاشتدّ شعور العزّي محمود بالضياع والتورُّط، وتصوَّر الهوّة المرعبة التي تفصل بينه وبين الحياة والأحياء، ولأوّل مَرّة، تصوَّر أن الدنيا جميلة وساحرة، وتستحقّ أن يلتاع المرء من أجل فراقها، ويرتاع، وتذكَّر الأزهر الشريف، ولاح في خياله كأنه جنّة من جنان اللّه، غير أنه شعر بالحقد والضغينة على أولئك العلماء الذين نصحوه بالذهاب إلى الشيخ سعدان، وتمنّى لو أن الأقدار أخذت بيده إلى الصحافي (أنيس منصور) ليستحضر له الأرواح في سلّة من السلال، وليعفي نفسه من هذه الأهوال، ولو بخرافة من الخرافات.

كان العزّي محمود يفكِّر في هذا الهمّ الناصب، وإذا به ينطلق مع عدد من الزبانية إلى سلسلة من الكهوف حتى انتهى به السير إلى كهف ضخم مكتوب على بابه: {مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللّهَ مَا أَمَرَهُمْ}، ورأى أمام عينيه أحرفاً من اللهب تهتز في الهواء مكتوباً بها: (المكتب الرئيسي لإدارة جهنّم).

وتذكّر الإعلانات الكهربائية على مداخل السينما في شارع كشارع سليمان باشا في القاهرة، فازداد حسرةً والتياعاً، ثم راح، في خلال هذه الذكريات، يواجه الهول الهائل في هذا الكهف الذي يمتدّ إلى مسافات لايحدّها البصر، وتنتشر في جنباته الرؤى المفزعة من آلات

التعذيب التي لا يأتي عليها الحصر، من معسكرات الأفاعي والثعابين والحيّات، ومعسكرات الزبانية الغلاظ الشداد، ومن اللجان العديدة التي تجتمع على الدوام لابتكار وسائل جديدة للتعذيب.

وبينما العزّي محمود سائر في وسط الأهوال تقدَّم إليه مخلوق مرعب، لم يرَ أفظع منه قطّ، كان ـ فيما يبدو ـ يبتسم مرحِّباً بالقادم، ولكنها ابتسامة تعدّ فَنّاً من فنون الإرهاب الذي ترتعد له الفرائص.

وقدّم نفسه قائلاً:

أنا مالك، خازن الجحيم.. أهلاً بضيفنا، ومرحباً.

وعقد الخوف لسان العزّي محمود، فلم يردّ، وأضاف خازن الجحيم:

أنت ضيفنا.. اطمئنّ، إنه لن يمسّك عذاب غير عذاب الضمير، إن كنت مذنباً، وهو عذاب لادخل لنا فيه لأنه جزء من حياتك الدنيوية التي لازلت مُتَّسماً بها، ثم قال:

أتدري لماذا جئنا بك إلى هنا؟

وهنا، استطاع العزّي محمود أن يقول ـ بصعوبة بالغة ـ: لا أدري.

قال مالك:

ـ لقد تناقلت أنباء قدومك سلطات الجنّة وسلطات النار، لأنها أنباء طريفة وغريبة، وعرفنا أنه سُمِح لك بالدخول إلى الجنّة، ولكنك مُنِعت

من مزاولة النشاط السياسي فيها، ونحن نعرف أن الأحرار الأحياء لايسعدهم الدخول إلى أعظم مقامات الجنّة ماداموا لا يمارسون أداء رسالتهم، ثم أشار إلى بعض اللجان من الزبانية المجتمعين للتفكير في ابتكار وسائل التعذيب، قائلاً:

هؤلاء هم المسؤولون عن طلبك إلى هنا، فإذا كنت تنوي لوماً أو شكراً فقدِّمه إليهم.

وأخذ مالك يقدّمهم إلى العزّي محمود، واحداً واحداً، قائلاً:

هذا الرعب، وهذا الهول، وهذه النقمة، وهذا الحريق، وهذا الخازوق، وهذا.. هذا الوشّاح.

وأطلق مالك ضحكة اهتزّت لها آلات التعذيب، ثم قال:

إن هذا ليس اسمه الأصلي، ولكن، سَمَّيناه به بعد أن التقطت آلاتنا حديثاً من الأحاديث التي كنت تهاجم بها الوشّاح. وقد خُتِم أحد هذه الأحاديث بقول اللّه عَزّ وجل: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}، فكان علينا أن نضع هذه الآية موضع الاعتبار، وأن نتولّى نحن إعداد العذاب لهذا الوشّاح الذي بشَّرتنا بقدومه إلينا، وقد كان أشدّنا حماساً هذا الذي سمّيناه الوشّاح، فقد تطوَّع بأن يكون المسؤول الأوّل عن تعذيب وشاحكم.

ثم استطرد مالك قائلاً:

إن هذه اللجنة هي التي تلقَّت أنباء قدومك وحيرتك وإصرارك على مزاولة النضال السياسي، على أن تظلّ مطلقاً من القيود والشروط، فرأت أن تطلب من السلطات العليا استقدامك إلى هنا كسائح، أو ضيف، على أن تكون لك الحرّيّة كاملة في القيام بأيّ نشاط سياسي، بل للقيام – إن شئت – بممارسة التعذيب هنا..!!

وهنا، ظهر على العزّي شيء من الفزع، فقال:

إني اناشدكم اللّه أن تعفوني من هذه المهمّة، إنني لم أُخلَق لهذا..

قال مالك:

على رسلك، إن هذه هي المهمّة الرئيسية لاستقدامك.

وقال العزّي محمود:

إذاً، فأنتم تريدون أن تجعلوا مني وشّاحاً آخر! عفواً، يا سادتي، فإني لا أستطيع أن أتقبّل شرف هذا المنصب..

قال مالك:

يبدو أنك لم تدرك غرضنا، على وجه التحديد: إن لجنة الابتكار ابتكرت وسيلة جديدة للتعذيب، وهذه الوسيلة هي أنت..

قال العزّي محمود:

ـ أنا؟ أنا آلة من آلات التعذيب في جهنَّم؟ هل يعقل أن أكون خازوقاً

أو مطرقة؟ وهل من العدل أن يكون هذا عقاباً لإنسان مثلي، اختار طريق الأحرار؟ ولكن، يبدو لي- ياخازن الجحيم- أن هذه دعابة رهيبة من دعاباتكم، هنا، لضيوفكم.

قال مالك:

لا. أبداً إنها حقيقة وليست دعابة، ولكنك، الآن، مرهف الإحساس، لاتدعني أنتهي من بياني.

واستطرد:

إن لجنة الابتكار ما إن سمعت باسمك- وهي تعرفك لكثرة ما يشتمك الطغاة والجلّادون، وهم يكابدون العذاب عندنا- حتى خطر لها خاطر فريد، وهو أن هذا الاسم يؤذي هؤلاء المجرمين الظالمين، ويجعلهم يتميَّزون غيظاً وحنقاً كلّما ذكروك، فلماذا لانستقدمك إلى هنا، لتطلّ عليهم وهم يُعَذَّبون، فيشتدّ، لذلك، عذابهم، ويتضاعف؟

وهنا، تخفَّف العزّي محمود من فزعه الشديد، وأدرك أنه لن يتحوَّل إلى آلة تعذيب كما توهَّم، ولن يمسّه العذاب بأيّ شكل من الأشكال، إنما هو ضيف مكرَّم، أتيحت له فرصة أن يشهد أعداء الشعب، وهم يُجلَدون في الجحيم، ويُسحَبون على وجوههم، وفاجأه مالك بطريقة أخرى من طرائفه قائلاً:

إنا نحن- جنود اللّه- متّصلة أرواحنا بروح اللّه؛ وبذلك تتكشَّف لنا الأمور فنعرفها في دقائقها وأسرارها، لا سيّما ما يتعلَّق منها بأهل الجنّة

وأهل النار، وإلّا فكيف ـ ياترى ـ نستطيع أن نوقع العقوبات بمختلف الآثمين، بميزانها العادل الدقيق؟ وأعتقد أنها ستكون مفاجأة طريفة لك إذا قلت لك إننا ـ رغم ماتراه من رعب مظهرنا ـ نحسن قراءة الأدب.. ولسنا نتَّخذ من ذلك وسيلة للتسلية، فليس في جهنّم سلوى، بل لأن الأدب قد يكون له علاقة وثيقة بتقدير آثام المعذَّبين!!

ثم قال مالك: ألست أنت القائل:

عندي لشرّ طغاة الأرض محكمَهْ

شعري بها شرّ قاضٍ في تقاضيَهْ

أدعو لها كلَّ جبّار وأسحَبُهْ

في قبره تحت عبء من مساويَهْ

يحني لي الصنم المعبود هامتَهْ

إذا رفعت له صوتي أناديَهْ

أقصى أمانيه مني أن أجنِّبَهْ

حكمي، وأدفنه في قبر ماضيَهْ

وشرّ هولٍ يلاقيه ويسمعُهْ

صوت الملايين في شعري تناجيَهْ

يرى الذي قد تُوُفّى حلم قافيَهْ

مني، فيمعن رعباً في تَوفّيَهْ

وليس يعرف أن سوف ألحقُهْ

في قبره، أزداد موتاً أو مرائيَهْ

أذيقه الموت من شعر أسجّرَهْ

أشدّ من موت عزريلٍ قوافيَهْ

يؤرّه في اللظى شعري، ويذهلهْ

عن الجحيم، ومافيه، ومَنْ فيَهْ

قال العزّي محمود مندهشاً:

أَوَكلّ هذا مسجَّلٌ عندكم؟

قال مالك:

ذلك هو ماسمعت.. وبعد، فإن هناك مصلحة أخرى لقضيّتكم في هذه الزيارة: إنك ـ كما قلنا لك ـ تتمتَّع بكامل الحرّيّة في ضيافة جهنّم، وستجول فيها، وتصول، وتأخذ صوراً فظيعة للطغاة والظالمين، وتستنطقهم، وتعذِّبهم بمناقشاتك، وتستطلع منهم حقائق، كانوا يكتمونها في حياتهم، كما أنهم سوف يحمِّلونك رسائل إلى خلفائهم

الجلّادين، وربّما كان في هذه الرسائل مايهمّك جدّاً، ويهمّ الشعب. وبعد ذلك كلّه، فإذا كنت ترى أننا قصَّرنا في تعذيبهم فإن لك ـ باسم الشعب ـ أن تقدِّم طلباً باستئناف الحكم، وقد يكون لك ماتريد.

أنا رائد الجحيم.. سأكون في صحبتكم عند التطواف على أهل النار..!!

قالها أحد الزبانية للعزي محمود، وهو يقدِّم نفسه بأمر من مالك، خازن الجحيم، بعد أن أوكل إليه هذه المهمّة.

ـ ولكن أنا أشعر بالرهبة، رغم كلّ تشجيع من جماعتكم.

ـ تذكَّر أن هذا جزء من كفاحك، ولون من ألوان التضحية والفدا.

ـ أنا، في الحقّ، لايهمّني أن يتعذّب الطغاة بعد موتهم، فهذا شأن عالم الآخرة، أما نحن، في دنيانا، فلا يهمّنا إلا أن يتحرّر العبيد من أبناء شعبنا.

ـ إنهم يتحرّرون من الإيحاء والتأثير والعبرة والاعتبار، ونحن نريد

التطواف بك، لهذه الغاية...

ـ أنا أخشى أن يركن الشعب إلى تعذيب الطغاة في جهنّم، فلا ينهض للثأر منهم في الدنيا.

ـ سوف تنقل إلى شعبك صور العذاب التي يكابدها مَنْ دانوا للطغاة، ولم يتحرّكوا للخلاص منهم، فهيّا بنا إلى رحلة ممتعة.

وكانت إدارة جهنّم قد أعدّت كلّ وسائل الانتقال في دركاتها، وصنعت لضيفها، العزّي محمود، جهازاً يشبه كرة طائرة مكيّفة الهواء، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها. ودخل الضيف الرحّالة فيها، فأُحكِم عليه إغلاقها، ومضت به طائرةً وراء الملاك رائد الجحيم، وبدأت تمرق به من الكهوف الإدارية حتى خرجت إلى الأجواء المندلعة الرهيبة، فكانت تهوي به، وتنغمس في وسط اللهب، ولاتحترق! وقد ارتعد أول الأمر لمناظر الجحيم المرعبة، ثم ابتردت مخاوفه، وأخذ يتشجّع، شيئاً فشيئاً، حتى استأنست له وجوه الفزع، وصارت ألوانا فنّيّة موحية.

قال رائد الجحيم:

تحديد الهدف الرئيسي ينبغي أن يتولّاه الضيف، فإلى أين تتّجه بهمّك الكبير؟

ـ كان يوجد في دنيانا طاغية، تخلَّص منه الشعب منذ اثني عشر عاماً، وهو، الآن، الهدف الرئيسي لرحلتي هنا.

ـ ما اسمه؟

ـ لا أستطيع أن أذكر اسمه، بالصراحة، لأن نفوذه الموروث لايزال يتحكّم في حرّيّتنا بعد أن أصبح حطباً ملتهباً في جهنّم، إنما أستطيع ـ فقط ـ أن أصطلح على تسميته، بيني وبينك، (عماد الطغيان).

ـ ماسرّ اهتمامك به؟

ـ لأنه صاحب المرحلة الرئيسية في حياة الطغيان، ولأنه المسؤول الكبير عما يحلّ بشعبنا اليوم، فقد استعبَدنا، ثم أصرَّ على أن يتركنا عبيداً بالوراثة، وأن يترك لنا أبناءه آلهة بالوراثة أيضاً، وهو ـ مع ذلك ـ يدّعي أنه سيّد المسلمين، كان يتظاهر بالتقى والعبادة، وهو ـ في الواقع ـ صنم يُعبَد من دون الله. إنني أعتقد أنه في جهنّم، وأنه يقاسي لوناً فذّاً من ألوان التعذيب، ولابدّ لي من أن أراه.

ـ إنني رائد الجحيم، ولم أستطع أن أعرف وأرى هذا الطاغية، لا باسمه الذي ذكرته، ولا بصفاته، فإننا نستطيع أن نعرف الشخص بدون أن يسمّى لنا، وذلك إذا عرفنا تاريخ مصرعه ونوع آثامه، أما هذا الذي ذكرته فلا أدري عنه شيئاً، وعليك أنت أن تتأكّد، وأن لا تحملك العصبية ضدّه على اليقين الذي لادليل عليه، والزعم بأنه من أهل النار، ومايدريك؟ فقد يكون الله غفر له.

ـ إن الغفران له يهدم كلّ نواميس العدل، ويناقضها، فهو مستحيل إلا إذا قلت لي إنكم قد غفرتم لنيرون، والنمرود، وفرعون، وجنكيز

خان..، وعندئذ، أستطيع أن أفهم أن نفوذ الطغاة هؤلاء، يكون في الدنيا وفي الآخرة.. وعندئذ، لا حاجة إلى هذه الرحلة، أضف إلى ذلك أني فهمت من الشهداء أنه غير موجود في الجنّة، ومررت بالأعراف فلم أجده أيضاً، فأين يكون إذاً؟ لا في الجنّة، ولا في النار، ولا في الأعراف! دعنا نبحث عنه في كلّ زوايا الجحيم، إنني سوف أعرفه إذا رأيته.

قال العزّي محمود ذلك، وسرعان ما غاصت به الكرة الطائرة وراء الملاك الرائد.

كان الرائد يتلفّت يميناً وشمالاً، وتنطلق من عينه أشعّة كشّافة، تخترق طبقات اللهب القاتم، وتكتشف جموع المعذّبين ووجوههم وألوانهم، وكان كلّما مَرّ بجماعة التفت إلى العزّي محمود وسأله: هل في هؤلاء مَنْ تعرفه؟ فيردّ عليه العزّي محمود بالنفي، حتى حانت منه التفاتة إلى رجال يقومون، ثم ينصرعون، ويقومون وينصرعون.. وهكذا. وقد أثار اهتمامه فيهم أن على رؤوسهم عمائم من اللهب، وفي أوساطهم أحزمة من الحيّات، رؤوسها تشبه الخناجر(الجنابي)، فهي تطعنهم وتنهشهم، فيسقطون على الأرض، ثم تندمل جراحهم فوراً، فينهضون على أقدامهم من جديد..وهكذا.

اقترب العزّي محمود منهم فإذا عمائمهم الجهنّمية تقتلع جماجمهم، ثم تأكل أدمغتهم ووجوههم، حتى تبلغ إلى رقابهم، فيسقطون.

ولمّا نهض واحد منهم بعد صرعته بادره العزّي محمود قائلاً:

من أنت؟

ـ من أنا؟ أنا لا أحبّ أن أذكر لك اسمي، حتى تذكر لي اسمك.

ـ أنا العزّي محمود..

وصاح هذا المعمَّم، بأعلى صوته، صيحة الويل والثبور:

واأسفاه! إنك، أنت وصحبك الأحرار، أردتم أن تحرِّرونا من العبودية فلم نتحرَّر، وآثرنا أن نبقى عبيداً للطاغية (العماد)، ثم لابنه من بعده، ورضينا أن نكون أذناباً للطغاة وآلة في أيديهم لتعذيب الشعب، وقد كنّا نتظاهر بالدين، ونلبس العمائم والأحزمة والخناجر، ونضطهد الكادحين والمزارعين، ونأخذ الرشوة، ونضلِّل الجنود والقبائل، ونذلّهم ونسلّطهم على إخوانهم الأبرياء الأسخياء الذين لايحملون السلاح، ثم نسلِّط بعض الجنود على بعض، ونضرب القبائل: بعضها ببعض، فأصبح حالنا كما ترى.

قال العزّي محمود:

ـ ولكنك ـ وقد صرَّحت لك باسمي ـ لم تصرِّح لي باسمك؟

قال المعذّب المرتشي:

ـ يكفيني أن أُعَذَّب أنا في الآخرة، ولا أحبّ أن يُعَذَّب أهلي في الدنيا بالعار، فاعفني من ذكر اسمي، فإن عاره سيصيب مَنْ بعدي، وهم أبرياء: «وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»، وحسبنا، لموعظة الشعب، أن

تذكر حالنا دون الأسماء، وأن تذكر طبقة المعمَّمين المستغِلّين، وهذا يكفي.

قال العزّي محمود:

أين الطاغية العماد؟ هل تعتقد أنه موجود في جهنّم؟

قال المرتشي:

قطعاً موجود.. فما نُعَذّب نحن إلا لأننا من أتباعه، ومن السائرين في ركابه.

قال العزّي محمود:

هل تعرف مكانه؟

قال المعذَّب:

كلّا فأنا في شغل شاغل بنفسي، وأنا أعوذ بالله من أن أقترب من مكان هذا الطاغية أو أتطلّع عليه، ولكن، حاول أن تسأل عنه في الجماعة التي تلينا.

وذهب العزّي محمود خلف رائده حتى رأى جماعة يأكلون النار، يلتهمونها لهباً وجمراً بأفواههم، فتخرج على الفور فحماً وصديداً، يجرف أمعاءهم، ويقطّعها تقطيعاً، وراح العزّي محمود يحاول التحدُّث معهم فرآهم لايستطيعون أن يفرغوا لكلام، فأفواهم منشغلة، منصهرة

بأكل النيران، ولكنه رأى سيماهم في وجوههم؛ فهم من طبقة الحكّام والقضاة الذين يقول القرآن الكريم فيهم:{إِنَّ الّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا}.

وترك الرائد هذه الجماعة إلى جماعة أخرى، تميل ألوانهم إلى السواد، فرأى العزّي محمود في أقدامهم وعلى أيديهم وأعناقهم أغلالاً من نار، ولاحظ شيئاً عجيباً: مخلوقات نارية بشعة تشبه الفيران، وإن كان يبدو عليها أنها لهب، وكانت هذه المخلوقات تندفع إلى أفواه هؤلاء القوم، فسرعان ما تتحوّل طبيعة أجسامهم بفعل الاحتراق، ويُمسَخون إلى صور فيران كبيرة فظيعة، ثم يعودون إلى سابق صورهم الآدمية.. وهكذا.

وقد سألهم العزّي محمود عن جنسيتهم، فقال أحدهم: نحن من شعب (واق الواق)، من قبيلة الزرانيق، كانت قبيلتنا الباسلة قد رفضت حكم الطاغية «العماد»، وقاومته، لأنها كانت لاتدين له بالولاء، وكانت تشكّ في نواياه منذ بداية حكمه، وقد بعث إليها ابنه (الوشّاح يا جنّاه)، فحاربته قبيلتنا حرباً مستميتة، وصمدت في وجه جبروته وجيوشه

زهاء عامين، ثم استسلمت وانقادت، وكانت تظن أنها، بذلك، تحقن دماءها، وتستحقّ من الحاكمين أن يعاملوا أبناءها كرعايا عاديين، غير أن غدر الطغيان أبى إلا أن يبطش، وينكِّل، ويطحن بلادنا طحناً، وينهبها نهب اللصوص وقطّاع الطرق، ثم أخذ من رجالنا الأبطال حوالي خمسمئة أسير، وزَجَّ بهم في سراديب سجن (حجة) الرهيب في أعماق الأرض، حيث الرطوبة والأوبئة والتعذيب والتجويع، كنّا ننام، ونمرِّغ أجسادنا العارية على الأوحال والأقذار، وتختلط فضلات أجسامنا بأوحال الأرض التي ننام عليها، فنتعفّن، وتتعفّن الأرض من تحتنا، وتنتشر الأوبئة، ويفتك الجوع بنا، وتجد الفيران في مهادنا القذر بحبوحة من المرتع الخصيب، ثم نجد نحن، في الفيران، مايسدّ الرمق، ويمسك علينا حياة، ولو كحياة الفيران، فنأكلها، ويجيء الموت فيحصد رجالنا سريعاً، كأنه مبعوث الطغاة والجلّادين حتى لم يبقَ منّا إلا أفراد يُعَدّون على الأصابع، تكيّفت جثثهم العنيدة بهذه البيئة الرهيبة، وتعايشوا مع الفيران والوزغ والأقذار والجلّادين، وفسدت ذممهم وضمائرهم، فأصبحوا وكأنهم مخلوقات لم يصنعها الله، وإنما صنعتها روح الوشّاح..

ودار الزمان المشؤوم علينا، فتطوّرنا من مجلودين إلى جّلادين، ولما زُجَّ بالأحرار في سجوننا كنّا قد تطوّرنا إلى هذه المرحلة التعسة، فلم يجد الوشّاح أفضل منّا سفّاحين يذبحون له الأحرار، أولئك الأحرار الذين ثاروا ليحرِّروا شعبنا، وينتقموا لقبائلنا المغلوبة المنكوبة، ولما لقينا ربَّنا بعث بنا ـ كما ترون ـ إلى هذا المكان الرهيب في جهنّم،

وقد سمّاه الزبانية (حجة)، وهو منطقة جبلية جهنّمية ضخمة، أما إخواننا الزرانيق الذين ماتوا دون أن يلوِّثهم إثم الطغيان وفساده فإنهم يبعثون إلينا لعناتهم المهينة الموجعة من الفردوس، فتزداد حسرتنا، ويعظم كربنا.

وقد تجدَّد لنا كرب جديد وعار مخجل؛ ذلك أن الطاغية الوشّاح الذي فعل بشهدائنا مافعل، وأنزل بقبيلتنا من الهوان ما أنزل، قد استطاع، منذ شهور- تقريباً- أن يغرِّر ببعض زعماء قبيلتنا، ويستزلّهم، ويغويهم، ويشتريهم بالمال والأكاذيب والدعوات الزائفة والابتسامات الجوفاء، وقد نفخهم بالغرور الآثم الجاهل، فصاروا يتطاولون، ويفخرون بأنهم حُماة الطغيان وحرّاسه، وبأنهم موضع الزلفى والقربى منه.

ثم تأوّه الزرنوقي المعذَّب، وقال:

ألا يعقل زعماء الزرانيق؟ ألا يخجلون؟ ألا يفكِّرون؟

إن فيهم من كانوا أحراراً، وفيهم الأذكياء والشبّان المستنيرون. إنني- وقد طهَّرني العذاب، وكشف لي الحجاب- أناشد زعماء قبيلتي أن يرجعوا إلى ضمائرهم، ويتذكَّروا عهودهم ومواثيقهم ومبادئهم، وأعيذهم بالله من أن يخلقوا لقبيلتنا عار التاريخ بين القبائل، وأن يسجّلوا على أنفسهم أنهم وحدهم البُلْه الأغبياء دون سائر القبائل، إن الطاغية يعرف أنه عدوّهم، وأن يده لاتزال ملطّخة بدمائهم، وأنه لم يبطش بقبيلة من القبائل كما بطش بهم. لقد تفتّحت عيون القبائل كلّها، وصَحَت من نومها وغبائها، وأدركت الحقائق، حتى جنود

الطغيان وعساكره وحرّاسه.

وقد فقد الطغيان ثقته بجميع القبائل والعساكر فلم يأمن أحداً على حراسته، وقد عرف، أخيراً، واعتقد أنه لاتوجد في البلاد كلّها، الآن، قبيلة عمياء غير قبيلة الزرانيق، فأقدَمَ على شراء زعمائها بالمال والخديعة. فالويل لزعماء الزرانيق، ولشبابها الأحرار الأبطال، إذ كتبوا على هذه القبيلة الذلّ والعار في آخر أيام الطغيان.

لقد كانت قبيلتنا ثائرة قبل أن يثور الناس، فلمّا ثار الناس تحوَّلت هذه القبيلة، ومُسِخت زبانيةً وحراساً وحماةً لعدوِّهم الأكبر.

إن قبيلة الزرانيق حاربت (ياجناه) كما لم تحاربه قبيلة أخرى، ودفعت ثمناً غالياً من الدماء، وإننا نعرف، الآن، أن شعبنا كلّه مقبل على تصفية عهد الطغيان، وكأنني أرى القبائل كلّها قد تحرّكت زاحفةً إلى معقل الفساد، أفيريد زعماء الزرانيق أن يدفعوا قبيلتهم للحرب في جانب الظالمين، وقد كانت هي أوّل قبيلة حاربت الظالمين؟

وسكت الزرنوقي المعذَّب قليلاً، ثم قال:

بلِّغهم كلامي هذا، وإني أقوله مدفوعاً بعاطفتي نحو قبيلتي وشعبي كلّه، رغم أني قد خسرت الدنيا والآخرة.

وما كاد يتمّ عبارته الأخيرة حتى تواثبت الفيران الجهنّمية إلى فمه تستأنف نشاطها في أحشائه وأمعائه!

وأخذ الرائد بيد العزّي محمود فانتحى به مكاناً بعيداً في منطقة «حجة» الجهنّمية، فرأى مجموعة من الزبانية العتاة المرعبين، بأيديهم آلات وأدوات يصنعون بها شيئاً ما، واقترب منهم، فابتدرهم العزّي محمود قائلاً:

عجباً لكم، أعاطلون أم تعبثون؟

أليس في جهنّم سكّان تعذِّبونهم حتى تأخذوا هذه الأدوات وتعبثون بها كالأطفال؟

قال واحد منهم:

إننا لا نعبث في جهنّم، ولا نجد وقت فراغ أو لهو، وإنما هذا الذي نصنعه هو من صميم مسؤولياتنا كزبانية، إننا قد تلقّينا بلاغاً من سلطتنا العليا في جهنّم بأن شيخ سوء، ذليلاً مرتشياً سيموت قريباً مع سيِّده

ومولاه بعد أن باع ضميره وقبيلته من الطاغية «العماد»، ثم باعها من الطاغية الوشّاح بيعاً آخر، وما يزال الطغاة يطمعون في شرائه كلّما دعتهم الحاجة إلى خيانة أو جريمة.

قال العزّي محمود:

ما اسم هذا الشيخ؟

فقال أحد الزبانية:

لا حاجة إلى ذكر اسمه، فيكفينا أن نذكر صفاته، إنه بائع قبيلته، وهو يظهر العناية بالصلاة، وإذا صلى فإنما تُحسَب صلاته عند الله عبادة للأصنام وللدراهم؛ ولذلك فإنك ترانا نصنع له آلة رهيبة للتعذيب تشبه أماكن الصلاة سخريةً به واحتقاراً لصلاته..

ثم قال:

تعال معي، انظر، هاهو- أوّلاً- مكان للوضوء مملوء بماء الحميم، وسيأتي هذا الشيخ الخائن فيتوضّأ، فيشوي الحميم أعضاء وضوئه فتتساقط، ثم تعود، وسيظلّ في تعذيب الوضوء أعواماً وأعواماً، ثم ينتقل إلى هذا المحراب الجهنّمي. انظر إليه، فإنك لا تراه محراباً، وإنما هو صورة للطاغية، صيغت صياغة جهنّمية لتكون صنماً يعبده هذا الشيخ العبد، فينحني كالراكع، وماهو براكع، ثم يخرّ كالساجد، وماهو بساجد، وتمتدّ يد الصنم الجهنّمية فتجذب الشيخ من رأسه ليركع للصنم، ويقبِّل ركبته كما كان يفعل في الدنيا حينما يجيء إلى

الطاغية، فيقبّل ركبته راكعاً، ثم يبيع شرف قبيلته، ويقبض الثمن بخساً حقيراً: دراهم معدودات.

وسار الرائد ورفيقه بين جبال من اللهب، لاتزال تحمل اسم (حجة) حتى وصلا إلى كهف مظلم يكتنفه الظلام والرعب فرأيا فيه أشخاصاً متفرِّقين مسمَّرين في الحيطان، تنهال على كلّ منهم رصاصات مجهولة من مكان مجهول، وكانت تدقّ في صدورهم كأنها إشارات لاسلكية آتية من بعيد، وتبين من ملامح الغموض الكريه الذي يحيط بهم أنهم جواسيس الطغيان، كانوا يرتزقون بإرسال الشيفرات البرقية إليه، يدسّون بالأبرياء، ويكشفون أسرار الأحرار ويكذبون، ويزوِّرون، ويطعنون أفراد المجتمع، ويسيئون إلى الحياة العامّة إساءة بالغة، فكان جزاؤهم أن يُسَمَّروا هكذا، في حيطان الظلام كما كانوا يعيشون في الظلام، وأن ترتدّ إلى صدورهم أكاذيبهم ودسائسهم نيراناً مسمومة تمزّق أحشاءهم.
قال قائل منهم للعزي محمود:

من أنت أيّها الزائر؟

ـ لماذا تسأل؟ أَ وَ تريد أن تبعث إلى مولاك ببرقية متجسِّسة وأنت في جهنّم؟

ـ أعوذ بالله! لقد أخذنا درساً رهيباً جَعَلَنا نلعن أنفسنا ومهنتنا الوضيعة الخسيسة. إنك ترانا هنا معزولين حتى عن أهل الجحيم؛ احتقاراً لنا وازدراء وضرباً من ضروب التعذيب.

لقد كان المجتمع في بلادنا ينفر منّا، ولكنه يجاملنا في الظاهر خوفاً من خسّتنا، أما هنا، في جهنّم، فلا نجد إلا العذاب والخزي والإبعاد والاحتقار.

ـ ما منزلتكم من العذاب؟

ـ إننا في درجة واحدة من الطغيان ومع القتلة والخوَنة والسفّاحين. إننا مسؤولون مع الطغاة ـ سواء بسواء ـ عن كلّ ما أصاب بلادنا من ويل ودمار وتقتيل؛ لأننا كنّا العيون التي يبصر بها أعداء الشعب، ويعرفون بها طريقهم إلى قتل الشعب وإذلاله، إننا أدوات حقيرة، كما أننا نخون شعبنا، ونطعن الأبرياء من إخواننا، ونزجّ بهم في السجون، ونقدمهم للذبح دون إساءة منهم إلينا، بل قد يكونون أصدقاءنا وأحبابنا، ولكن عبادتنا للطغيان أفقدتنا كلّ معنى كريم من معاني الآدمية، وها نحن نشارك الطغيان في عذابه، ولم نكن في الدنيا نطمع أن نساويه أو ندانيه، فإنما كنّا عنده كالكلاب، يرمي إلينا ـ إن شاء ـ بالقليل الحقير من فتات موائده.

وانصرف الرائد ورفيقه عن هذا الكهف الخسيس الموحش، وما كادا ينصرفان حتى صاح الجاسوس:

ـ أناشدك الله ياعزّي.. بحقّ الوطنية إلا ما أخذتني معك.

ـ أنت مجنون! كيف آخذك معي؟ أتعرف أين أنت؟ وفي قبضة مَنْ أنت؟

ـ إنك في قبضة الله، وهبني استطعت إخراجك وإنقاذك وإعادتك إلى الحياة.. فإن شعبنا اليوم قد صحا وأصبح يعرف وجوه الجواسيس، وأنا على يقين أنك لو خرجت إلى الوطن مَرّةً أخرى لندمت على خروجك من جهنّم، فإن الشعب قد أوشك أن يبطش بالجواسيس الخونة، ويسومهم العذاب والهوان، ثم يزفّهم إلى جهنّم، وستكون واحداً منهم، فلو أخرجتك رجعت إلى حيث أنت بعد أن تلاقي مزيداً من العار والبوار، وتخزي وجوه أهلك وأقاربك، فابقَ حيث أنت..

ـ ولكني أرجو أن لاتنصرفا عني، فعندي أخبار خطيرة ومثيرة.

وما كاد ينطق بهذه العبارة حتى التفت العزّي محمود إلى رائده، كالذي يستشيره في التوقُّف، ولاحظ أن الرائد لايمانع في ذلك، فاتّجه العزّي إلى الجاسوس قائلاً:

ماعندك؟ أخشى أن تكون سجيّة التجسُّس فيك تحملك على خداعي! وأنا أحذِّرك من ذلك، ولا أرى شيئاً يهمّني إلا أن أعرف مكان الطاغية (العماد) في جهنّم...

ـ دعك من هذا التخريف، أيفلت مثل هذا الطاغية من كلّ موازين العدل الإلهي التي لاتغادر صغيرة ولاكبيرة إلا وزنتها؟ إن هذا الطاغية في جهنّم حتماً، لكن، قد يكون اختفاء مكانه عن الزبانية لحكمة نجهلها جميعاً، فلا تشغل نفسك بالقلق عليه، إنما أريد أن أفضي إليكما بأسرار على أعظم جانب من الخطورة؛ ستكشف لكم شيئاً مذهلاً، وستحدث ضجّة، في الدنيا وفي الآخرة.

ـ كلّا، كلّا، أنا لا أرى عندك أسراراً، ولا أراك إلا تكذب. وعلى كلّ حال، فإننا إذا عثرنا على (العماد) الطاغية فسنستدعيك وسنستدعي سواك، ونعرف كلّ ما عندك، وأنا ـ منذ الآن ـ أكرِّر تحذيرك من أن تلعب وتناور وتجعل نفسك ذَنَباً للطاغية هنا، فإنه لايملك، الآن، فتات موائد ليشتري بها ذممكم.

ولم يتراجع الجاسوس ولم يقتنع، واقترب من العزّي محمود، فأَسَرَّ إليه بحديث طويل، ثم قال بصوت مسموع:

هذا هو ماكنت أخبِّئه لك، ولا حاجة لك بعد هذا إلى استدعائي للشهادة ضدّ الطاغية.

وانطلق العزّي ورائده بعد ذلك، بعيداً عن منطقة (حجة) الجهنَّمية، وبينما هما منطلقان إذا بأصوات تضجّ هنا وهناك، وكلّ صوت يعلو فإنه يبدو صوتاً مسموعاً ومرئياً، في آنٍ واحد؛ إن الكلمات تظهر، بوضوح، في الهواء، مكتوبة باللهب بحروف ضخمة تلوح في الفضاء كأنها البروق في عرض السحاب، واستطاع العزّي أن يقرأ هذه العبارة:

(ضيف من (واق الواق). يزور جهنّم. الدوائر الجهنّمية قد تستبقيه ضيفاً أبدياً كخبير في تعذيب الطغاة!!)

وما كاد يقرأ هذه العبارة حتى أخذ الفزع منه كلّ مأخذ، وطلب من رائده الذهاب إلى مصدر هذه العبارات.

وهبطا معاً إلى مكان ينتشر فيه جماعة من الناس، في أيديهم آلات تشبه آلات التصوير، وفي أيدي البعض منهم أقلام وأوراق، وما كاد

العزّي محمود يصل إليهم حتى أحاطوا به إحاطة متوحِّشة، فظنّ العزّي محمود أنهم زبانية جدد، موكلون باستبقائه في الجحيم، وسألهم:

ـ من أنتم؟ وما شأنكم معي؟

ـ نحن الصحافيون.

ـ ماذا جاء بكم إلى جهنّم، وأنتم أصحاب رسالة مبرورة في الحياة؟

ـ ذلك هو المفروض.. ويوجد كثير من زملائنا في الجنّة لأنهم كانوا أمناء على رسالتهم، أما نحن فقد كنا نبيع ضمائرنا وأقلامنا.

ـ ولكن، كيف تستطيعون ممارسة أعمال صحافية، وأنتم معذّبون؟؟

ـ إن عذابنا مخفَّف بالنسبة إلى الآخرين، وذلك لأن الصحافة ـ مهما بلغ من انحرافها وفسادها ـ لايمكن أن تكون شرّاً محضاً؛ فإنها تخدم الرأي العام في جوانب كثيرة، وإن كانت تخدعه أحياناً، وقد جوزينا على الخدمة المبرورة بأن أتاح لنا خازن الجحيم أن نمارس هوايتنا الصحافية، كضرب من ضروب التعذيب وحرب الأعصاب ضدّ أهل جهنَّم، وأنت قد رأيت العنوان الضخم الذي استقبلناك به..

ـ هل بُلِّغتم، حقاً، من السلطات العليا، بأنني سوف أبقى في جهنّم؟؟

ـ كلّا.. لم نُبَلَّغ، وإنما تكهَّنّا مجرَّد تَكَهُّن، وهو غير محرَّم علينا لأنه جوهر الهواية الصحافية.

ـ أحمد الله على أنه لا سلطان لكم عليّ الآن، فأنا الذي أستطيع أن أشهِّر بكم في الدنيا.

ـ لايهمّنا التشهير، فقد تمرَّسنا طويلاً على تزييف السمعة، وأصبحنا هنا نراها أشبه بلعبة الأطفال.

ـ أنا أعرف فيكم من ساهموا مع الطغاة والملوك في خيانة شعب (واق الواق)، وتحطيم ثورته عام 48، وتشويه سمعة الأحرار الأبرار، ومشاركة الجلّادين في إهدار دماء الأبرياء، وإذا لم تكونوا تبالون بالسمعة فليست تلك شجاعة منكم وإنما هي صفاقة، وسأتّصل بالسلطات العليا في جهنّم، وأحتجّ على تخفيف العذاب عنكم.

ـ لك ألف عذر في هذه الغضبة، فقد كان موقفنا في قضيّتكم شائناً ومخزياً، ولكن، تأكد أننا نادمون جدّاً، وما هبطنا جهنّم إلا بمثل هذه المواقف، ولكنك ـ على كلّ حال ـ لاتستطيع أن تقدِّم في موضوع تعذيبنا، أو تؤخِّر، وخير لك أن تعطينا تصريحات مفيدة أو تعقد مؤتمراً صحافياً معنا، لنساهم في تعذيب الجلّادين والظالمين.

أريد منكم ـ وأنتم صحافيون وعندكم موهبة التحسُّس والتشمُّم للأخبار المثيرة ـ أن تخبروني عن مصير الطاغية (العماد)، جلّاد (واق الواق).

ـ ومن هو هذا الجلّاد، فنحن لانعرفه؟

ـ هذه شنشنة صحافية أعرفها عنكم في الحياة الدنيا.. أبداً، تهربون من الكلام على طاغيتنا، فإما أن تمجِّدوه وتقدِّسوه، أو تسكتوا عنه

وتتجاهلوه، إنكم تلعنون طغاة الأرض جميعاً وأعداء الشعوب، وتندِّدون بكلّ مسؤول عن القتل الجماعي وكلّ جلاد يستبيح الدماء إلا في (واق الواق) فإنكم صمٌّ بكمٌ عميٌ، لا تعقلون ولاتنطقون، وها أنا أكرِّر السؤال: هل تعرفون مصير جلّاد (واق الواق) الطاغية (العماد)؟

ـ والله، والله، لانعرفه، ولاندري عن مصيره شيئاً.

ـ أتعرفون مصير نيرون؟

ـ نعرفه جيداً، ونغاديه ونراوحه بعذاب الأعصاب.

ـ أتعرفون جنكيز خان؟

ـ حقّ المعرفة..

ـ أتعرفون الحجّاج ومكانته؟

ـ لقد جاء بعض رجالنا من عنده توّاً، بعد أن شهد جلسة من جلسات تعذيبه.

ـ إذاً، فما عذركم في جهلكم طاغيتنا؟

وهنا، صاح صحافي آخر:

هل لهذا الطاغية اسم آخر، فربّما كنّا نعرفه به!

ـ له اسم آخر، ولكن، لماذا لا تعرفونه بأوصافه وأثره في حياة بلاده؟

ـ وأنت، لماذا لاتذكر اسمه الأشهر؟

ـ إنكم أنتم السبب في إحجامي عن ذكر اسمه الأشهر.

ـ أنحن السبب؟

ـ لستم السبب أنتم بالذات، بل الصحافيون الأحياء إخوانكم، والناشرون وأصحاب المطابع. إنني لو ذكرت اسمه الكامل لامتنع الصحافيون عن ذكر كلمة واحدة عن كتابي، وامتنع الناشرون والموزِّعون وأصحاب المطابع عن طبعه وتوزيعه، وهكذا، نجد نفوذه الشيطاني حيث كنا.

وأخيراً، حيّاهم العزّي محمود، وقال لهم:

ـ إنني أرجو ـ إذا وجدنا طاغيتنا ـ أن تشهدوا مواقفنا معه، وربّما نعقد مؤتمراً صحافياً، تستمعون فيه إلى أغرب أنباء سمعتموها، على الإطلاق.

وراح الرائد يستعجل رفيقه، ويستحثّه في المسير، ويرجوه أن لا يطيل النقاش، خشية أن ينتهي الوقت المحدَّد للزيارة، ولو أنه انتهى لربّما صعب خروج الضيف من جهنّم، وأصبح العزّي محمود في عداد الموظّفين من الزبانية، إن لم يكن أسوأ من ذلك، فإن جهنّم لا مجاملة فيها ولا رحمة، وسيحدث هذا إن حدث أزمة بين شهداء (واق الواق) في جنّة الخلد، فربّما وجدوا حلاًّ لاستقدام العزّي محمود إليها.

وأسرعا في المسير، ثم رَأَيا ـ على الفور ـ مجموعة من المعذَّبين تلتهمهم نار بيضاء، ويغمرهم لهب هادىء يشبه الغيوم، وتقدَّم إليهم العزّي محمود، وسألهم:

ـ من أنتم؟

فتقدّم أحدهم للإجابة، وقال:

ـ نحن علماء الدين في (واق الواق).

ـ لماذا تُعَذَّبون؟

ـ لأننا كنا ننافق الطغيان، ونداهن الجلّادين، بينما نزعم للناس بأننا ورعون أتقياء، كنّا نؤدّي الفروض السهلة التي لاتكلِّفنا تضحية ولا مشقّة، وذلك كالصلاة والصيام.. بل كنّا نكثر من النوافل، ونذكر اسم

الله كثيراً، ونعتقد أننا نوحِّده بحقّ، والواقع أننا كنّا نخدع أنفسنا لأن الدين كلٌّ لايتجزّأ، ومن يؤمن ببعض، وينكر أو يتجاهل البعض فليس بمؤمن، ومن لا يطيع أمر الله في الجهاد، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي مقاومة الطغاة والظالمين فهو كمن يقطع الصلاة والصيام، سواء بسواء، بل إن من يسجد للحجر ليقرِّبه إلى الله زلفى قد يكون أهون عند الله ممّن يركع للطغاة السفّاحين القتلة، فإن عبادة الحجر أقلّ خطراً، وأخفّ إثماً، وأهون هواناً من عبادة البشر، وليست العبادة، فقط، أن تسجد وتنوي السجود، لكن العبادة- في جوهرها- هي الخضوع المطلق والتذلّل، ونحن كنّا نخضع، ونتذلّل للطاغية أضعاف ما كنّا نخضع لله، ونخافه أكثر ممّا نخاف الله؛ فقد جعلناه ربّاً، ونحن لاندري.

والتفت العزّي محمود، فرأى جماعة أخرى قريبة من هؤلاء العلماء فأدرك أنهم قد يكونون- أيضاً- من شعب (واق الواق)، وأدركه شيء من الأمل أن يكون طاغية (واق الواق)، في هذه المنطقة أو قريباً منها.

اقترب العزّي محمود ورائده من هؤلاء، فرأى بطونهم منتفخة، بشكّل فظيع، كأنها القباب، ورأى مقارع النار تضرب هذه البطون المنتفخة، فيتطاير الشرر منها، ويخرج صوت بشع يشبه أصوات الطبول التي تُضرَب في مواكب الحكّام الكبار في (واق الواق)، فسأل العزّي محمود أقربهم منه قائلاً:

من أنتم؟وما الذي جاء بكم إلى هنا؟

ـ كنا نعاون الطاغية في جَلد الشعب وإذلاله ونهبه وتجويعه، ونلعب معه بشريعة الله..

ـ ولماذا تنتفخ بطونكم؟

ـ إنه السحت الحرام، تحوّلَ إلى غازات جهنّمية، تعذِّبنا وتشوّه أجسامنا، كما ترى.

ـ هل كلّ قضاة البلاد يلاقون المصير نفسه؟

ـ كلّا، فإن الكثير منهم مكرهون مضطهدون، يحملون في جوانحهم ضمائر حيّة، رغم سيرهم الظاهر في الركاب.

وصاح رجل آخر منهم، ومَدّ إصبعه مشيراً إلى تلال جهنّمية تلتهمها النيران، وقال:

انظرـ أيها الزائرـ إلى تلك التلال، إنها بيوتنا التي بنيناها من أموال الرعايا، أخذناها باسم الرشوة والهدية وتحريف أحكام الله، وأردنا أن نؤمِّن مستقبل أولادنا، فإذا بنا نراها بيوتاً من نار، إذا دخلناها تنفجر وتقذف بنا إلى هنا، وتضربنا المقامعـ كما ترىـ حتى ينفجر السحت في بطوننا، ونتلاشى، ثم نجد أنفسنا في تلك البيوت من جديد، فتنفجر بنا.. وهكذا دواليك. أمّا مصير أولادنا فإنه لا يقرِّره إلا موقفهم في قضية بلادهم: فإن ساهموا في حركة التحرير ضمنوا مستقبلاً عزيزاً، حتى لو لم نخلِّف لهم درهماً ولا ديناراً، وإن ساروا في الطريق التي سرنا فيها نفسها فسيصبّ الشعب نقمته عليهم، وينتقم

منّا ومنهم، ويزفّهم إلينا في جهنّم بين مواكب الخزي والعار. إننا نرجو منك شيئاً واحداً هو أن لا تذكر أسماءنا المعيَّنة حتى لاتلطِّخ سمعة أولادنا وعائلاتنا بالعار، وحسبك أن تذكرنا كفئة من الفئات الضالّة، ليتَّجه أبناؤنا إلى الطريق الصحيح، ويكفِّروا عن أخطائنا، ويهربوا من هذه الرتب وهذه الألقاب.

وواصل العزّي محمود ورائده المسير حتى وجدوا مجموعة من الناس تحت أكوام ملتهبة تشبه الورق، وأمعن النظر فيها فوجدها مكتبة ضخمة تشتعل، وتشوي أجسام الجالسين عليها، كما تفعل نار الطاهي بالسمك، واقترب العزّي محمود يحاول قراءة بعض الكتب، فاستطاع أن يقرأ بعض العبارات التي لم تأكلها النار بعد.

وفهم أن هذه كتب مذهبية، بعضها يُطلَق عليها (كتب زيدية)، والبعض الآخر يطلق عليها (كتب شافعية)، وسمع أحد المشويّين عليها يقول:

ـ هذه كتب، ما أنزل الله بها من سلطان، كتبناها ومَزَّقنا بها شمل الشعب، وزعمنا له أنه شعب ينقسم قسمين: قسم شافعي، وقسم زيدي، وانظر ماذا فعل الله بنا، و...

(وتأمَّل العزّي محمود فإذا كلّ رجلين قد امتزجا، وأصبحا كتلة من

اللحم المشوي، وصار عذابهما أن تُقَطّع أعضاؤهما، فتُرَكَّب تركيباً مزجياً حتى يصبح الرجلان كأنهما رجل واحد، له رأسان ولسانان وأربعة أرجل وأربعة أيدٍ).

ـ... إنها سخرية القدر بنا حينما مزَّقْنا شعبنا، وجعلنا قسماً منه شافعياً، وقسماً آخر زيدياً، تهكَّمت بنا سلطات جهنّم، ومزجتنا هذا المزج العجيب، فكلّ كتلة من اللحم تراها هي شخصان اثنان: أحدهما فقيه زيدي، والآخر فقيه شافعي، وإننا لنستمع ـ في كل فترة معيَّنة من فترات التعذيب ـ إلى صوت يؤنِّبنا، في أسلوب ساخر أليم، ويضجّ قائلاً:

هل أيقنتم ـ أيّها البُلْه الأغبياء ـ أنكم شعب واحد؟ هل يستطيع أحدكم أن يميِّز دمه أو لونه أو عرقه عمّا يحمله الآخر من دم أو لون أو عرق؟ إنكم لم تستطيعوا، بغبائكم، أن تفهموا الوحدة الاعتبارية للشعب، فعاقبناكم بهذا التوحيد الجثماني الشائه.

إن أصولكم تكاد تنحدر من أب واحد ولغتكم واحدة، ودينكم واحد، وأرضكم واحدة، فهل كان من الضروري، لتعرفوا أنكم أخوة، أن تُمزَج أجسامكم هذا المزج لتحسّوا بأنكم شيء واحد؟

إن الله وحَّدَ بينكم في كلّ عنصر من عناصر الوحدة، ولم تبق للأقدار وسيلة لإشعاركم بوحدتكم إلا أن تخلط اللحم، باللحم، والعظم بالعظم، والعين بالعين، والسنّ بالسنّ، كما لم تفعل بأيّة فصيلة من فصائل الحيوانات!

ومن أنتم، أيّها الفقهاء الأغبياء، حتى ينقسم الشعب؛ انقياداً لشعوذتكم وترّهاتكم التي تمخّضت عنها عقولكم العتيقة الساذجة في عصور مغرقة في القدم؟

إن الحجارة الصمّاء في بلادكم، والتراب والنبات والحيوانات أهدى منكم وأدنى إلى الرشد والحقّ؛ فإنها كلّها تنطق بالوحدة، وتذعن لناموسها وسلطانها، فلا توجد في أرضكم حجرة يقال لها إنها زيدية أو شافعية، كما لا توجد حشرة تقبل أن تنتمي، أو تتعصَّب للإمام زيد أو للإمام الشافعي.. إذا كان هناك حيف فثوروا عليه، وإذا كان هناك أصنام حاكمة باسم المذهب فحطِّموها، أمّا أن تمزقوا أنفسكم، فهذا هو الغباء الذي مابعده غباء!.

ولم يتوقّف العزّي محمود ليستتمّ نقاشه مع هؤلاء الفقهاء التعساء، وإنما مضى لسبيله مع رائده، حتى رأى قباباً شنيعة شائهة تشبه قباب المساجد الكبيرة، في شكل مرعب، وتراجع قليلاً من صدمة الفزع، ثم تشجّع وأقدم، فسمعها تئنّ أنيناً موجعاً، وتتشاكى فيما بينها؟ وتتذاكر ماضيها.

قالت جمجمة منها لصاحبتها:

ـ... ومع ذلك، فما جدوى ملكنا العريض الذي فرضناه بالسيف وباسم الدين وبالعنعنات العائلية؟ لقد سحقنا الشعب، واعتصرنا ثروته ودمه، وحكمناه طويلاً طويلاً، قروناً وقروناً، فلم نصنع له شيئاً، وكلّ ماكان يفعله أحدنا، ويتركه من بعده هو قبّة مسجد، يبنيها من مال الشعب، وضريح يواصل به حكم الشعب روحياً، وإقطاعيات نخلّفها لأبنائنا وذرارينا فلا تجلب لهم غير الفقر والبؤس، وغير الشعور بالانفصال

عن الشعب.

قالت جمجمة ثانية:

والأمر المخجل أن تأتي امرأة من الصليحيين، ومن صميم شعبنا فتخلِّف من آثار الإصلاح والتعمير والبِرّ وتعبيد الطرقات مالم يصنعه عشرات من الملوك أمثالنا.

وقالت جمجمة ثالثة:

ولو كان الأمر ـ أيّها الزملاء ـ أمر تقصير في إصلاح، لهان الأمر.. ولكنّا كنّا نجعل نصب أعيننا أن نسحق الشعب، ونلغي آدميته، ونحكم كلّ رأس كريم من رؤوس أبنائه. إنني اعترف لكم بأني كنت قد أجبرت كلّ قبيلة أن ترهن أبناءها في سجوني، وحدث ـ مَرّةً ـ أن أحرق مجهول باباً خشبياً من أبواب عاصمتي فاتّهمتُ قبيلة من القبائل، وأخرجت ستّين من أطفالها المرهونين عندي، فقطّعت أيديهم جميعاً، ومن المؤسف أن هذا الحادث لم يستطع المؤرِّخون إخفاءه، فسجّلوه علينا، فلم يرحمنا الله، ولم يرحمنا التاريخ.

ـ وقالت جمجمة رابعة:

ـ وأنا أعترف لكم، بدوري، أنني ـ مَرّةً ـ في عهد والدي، وأنا وليّ العهد يومئذ، تملّكتني رغبة شيطانية أن أعلن جبروتي وطغياني في سنّ مبكّرة، فنكّلت بمنطقة من مناطق الشعب، وقطعت ألف رأس من الرؤوس، وأصدرت أمري إلى ألف من الأسرى: أن يحمل كلّ منهم

في يده رأساً من رؤوس إخوانهم المقطوعة، وأمرت أن يسير مع كلّ أسير جلّاد، وسرت في هذا الموكب الحافل فخوراً معتزّاً، فلمّا بلغت الميدان الذي يشرف عليه قصر والدي طلبت منه أن يطلّ علينا من شرفات القصر، فلمّا رأيته مطلّاً أمرت الألف جلّاد أن يضرب كلّ واحد منهم رأس الأسير الذي يحمل في يده، فرأى والدي ألفَيْ رأس تسقط دفعةً واحدة.

وقالت جمجمة خامسة:

وأنا أعترف بأني، بعد هدم مدينة (صعدة)، هدمت سدّ (الخانق) فيها، الذي بناه نوال بن عتيك، مولى سيف بن ذي يزن، في القرن السادس الميلادي، وتخجلني هذه الجريمة- وأنا عربي أصيل، ومن خير أرومة في شعبنا- حين أتذكّر أن أبرهة الحبشي، وهو غازٍ مستعمر، رَمَّم سدّ مأرب، وأقام احتفالاً كبيراً قبل البعث الإسلامي بمناسبة إتمام الترميم، وحضر هذا الحفل وفود من أكبر دول العالم القديم.

قالت جمجمة سادسة:

- والأخطر من كلّ ماسبق أننا ارتكبنا تلك الآثام البشعة باسم الدين، وأننا كنّا نشعر بأننا تربَّعنا على عروشنا بمشيئة السماء، وبأننا نمثِّل الله في الأرض، ونمثِّل خلفاء الله، وفي الوقت نفسه، لا نشعر بأن للشعب فضلاً علينا حين يسلِّمنا مقاليد أمره في طيبةٍ وسخاء، بل نعتقد أن لنا الفضل على الشعب، لأننا رموز إلهية ونعمة أزلية نزلت عليه، وأن واجبه أن يحمد الله على مجرَّد وجودنا، وهذا الشعور هو الذي

انتزع البركة من حكمنا، ومَنَعَنا من الإصلاح العامّ، فصار تاريخنا جدباً قاحلاً لاحياة فيه، وأخشى ما نخشاه هو أننا خلَّفْنا أبناءً لنا، قد يصيبهم الغرور لطول حكمنا، وبذلك يحاولون أن ينهجوا نهجنا، ويتطاولوا باسم السماء ويحكموا الشعب كما حكمناه، والأدهى والأمَرّ أن يحسبوا أنفسهم فريقاً متميّزاً منفصلاً عن الشعب، فتكمل بذلك النكبة والكارثة.

وما إن بلغت المحاورة إلى هذه الفقرات الأخيرة الخطيرة حتى وجد العزّي محمود نفسه مضطرّاً إلى التدخُّل في هذه المحاورة، وبعد أن حَيّا هؤلاء المتحاورين، وقدّمَ نفسه إليهم، قال:

أنا لا أوافقكم على كل ماتقولون، لا سيّما في عباراتكم الأخيرة، قد تكونون أنتم طغاة، ولكن قد لا يكون كلّ من حَكَم شعبنا باسم الدين طغاة، فإن فيهم العلماء الأفذاذ الذين خلّفوا لنا ثروة علمية، يعتزّ بها شعبنا أيّما اعتزاز! قد يكرهكم الشعب لأنكم ارتكبتم الجرائم التي اعترفتم بها، وقد يحارب بعض خلفائكم، ويثور عليهم، ولكن شعبنا لايمكن أن يحقد على أبنائكم، ولا على من يجمعكم به نسب واحد، فإن هؤلاء ليسوا أبناءكم أنتم، بل هم أبناء الشعب، والشعب هو الأب الأكبر للجميع، وهو أولى بهم منكم، وهم إليه أدنى وشيجة، وإن الأرض، بلادنا الحبيبة، هي الأمّ الكبرى لكل من انبثق من تربتها، أو وُلِد في أحضانها، أو ارتضع من ثديها، ودبَّ على صدرها الحنون.

قالت الجمجمة السادسة:

ولكن، قد لايكون أجدادنا انحدروا من صلب هذه التربة، بل من صلب تربة أكرم وأقدس.

قال العزّي محمود:

ـ لعلك تعني بالتربة الأقدس تربة النبوّة في أرض المدينة المقدَّسة! ومن قال لك إن هذه ليست تربتنا؟ إننا عرب، وهي أرض عربية. إن أمشاج العرب وأعراقهم ودمائهم متشابكة متداخلة من آلاف السنين، ولست أريد أن أذكِّرك من هم سكّان المدينة الأصليون، ولا كيف اندمجوا وأصهروا إلى إخوانهم المهاجرين، ولكني أحبّ أن أقول إنني ـ وأنا أدبّ في أرض الجنوب الأقصى ـ أشعر أن دمائي وجذوري وأعراقي، كلّها ممتدّة إلى المغرب الأقصى.

هذا أمر، والأمر الآخر أن الوطنية في الأوطان ليست وطنية عنصرية، فلا يوجد شعب، على وجه الأرض، ينتمي أبناؤه إلى عنصر واحد نقي، ولعلكم لاتعلمون أن شعب أميركا، وهو من أكبر شعوب العالم، وأقواها مؤلّف من خليط شعوب عديدة، بعضها معروف، وبعضها مجهول، وهو شعب حديث، إنما تكَوَّنَ، وامتزجت عناصره، منذ عدّة مئات من السنين فقط، فلم يمنعه ذلك من أن يكون شعباً متماسكاً صلباً كأشد مايكون التماسك والصلابة، ولعل أشدّ ظاهرة تسخر من خرافة العنصرية أن إيزنهاور، القائد الأميركي الذي وضعت في يده أمانة القيادة لجيوش الحلفاء، في حربهم الأخيرة ضدّ ألمانيا، كان قائداً ينتمي إلى أصل ألماني، وقد انتُخِب مرتين لرئاسة جمهورية

الولايات المتّحدة الأميركية.

قالت الجمجمة السادسة:

إن هذا رئيس خائن، قاد الحرب ضدّ ألمانيا، وهي أمّته الأصلية.

قال العزّي محمود:

إن أمّته الأصليّة هي الأمّة التي يعيش معها، بل وإن أمّه الرؤوم هي الأرض الأميركية التي وُلِد في أحضانها.

قالت الجمجمة السادسة:

ـ لا أعتقد أن أبناء جلدته الألمان، الذين يعيشون في أميركا، يتّفقون في نزعته العامّة، فما أظنه إلا شاذاً منشقّاً، استغواه المنصب والجاه.

قال العزّي محمود:

إننا نعيش في عصر لا تفهمونه، ولاتفهمون روحه وتقاليده... ولو أن إيزنهاور حاول أن يقوّي مركزه بالألمان الأميركيين لوصمه الشعب بخطيئة التعصُّب العنصري والتمييز العنصري، ولأسقطه الشعب من منصبه فوراً. وبالتأكيد، كان الأميركيون الذين ينتمون إلى عنصر ألماني سيعتبرونه عدوّهم الأكبر؛ لأنه يريد ـ بالتمييز ـ أن يفصلهم عن الشعب الأميركية بعد أن أصبحوا جزءاً منه، وهذا هو نفسه ماحصل في بلادنا، فإن بعض أقطاب العائلة الحاكمة كانوا قد أحسّوا بكراهية الشعب لهم، فحاولوا أن يدعموا مراكزهم المزعزعة باستغواء بعض العائلات التي

تنتمي معهم إلى نسب واحد، وأرادوا أن يثيروا فيها التمجُّد بالعرق والسلالة، لتصبح فئة متميِّزة معهم، متعصِّبة إلى جانبهم عصبيّةً عمياء، ولكن هذه العائلات الكريمة الذكية المستنيرة فطنت إلى هذا الكيد المسموم، وأبت أن تنتمي إلا إلى الشعب، وأن تتجاوب إلا مع أهداف الشعب وآماله وآلامه، فانتدب بعض بنيها أنفسهم للكفاح في صفوف الشعب، {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا}.

وبينما العزّي محمود في هذا، إذا بلهب مخيف مقبل من بعيد، وقد أخذ يدنو شيئاً فشيئاً، فلمّا وقع في متناول البصر القريب تأمَّله العزّي محمود فإذا هو لهب طويل، متراكم بعضه فوق بعض، إلى ما يتجاوز مَدّ البصر في الأفق، وهذه الكتلة الضخمة من اللهب كلّها محمولة على رأس إنسان من المعذَّبين، وتبيَّن أن هذا اللهب مندلع من أثاثات وأدوات لا يأتي عليها الحصر، وهي مختلفة الأنواع والأشكال والأحجام، منها السجادات والمراتب والوسائد والكتب والأبواب والملابس والأحذية، وغيرها، وغيرها.. أصبحت كلّها مركومة على رأس هذا المخلوق التعِس، بطريقة فوضوية غير منتظمة، وهو يصيح ويتأوّه، لايدري الناظر إليه: أيتألّم لشدة العبء الذي يحمله، أم لهول الحريق الذي يطبق على جثّته؟ إنما الذي تبيَّن من صوته هو هذه العبارات:

جار الله وجاركم.. أين العدالة؟ أنا ما نهبت هذا كلّه، إن القبائل شركائي، وقد مات الكثيرون منهم، لماذا لا يشاركونني في هذا العبء؟

ويرتفع صوت من أصوات الزبانية، كان يسوطه بسياط من نار، قائلاً:

إن القبائل كانوا جَهَلة أميّين، وأنت الذي حرَّضتهم وغرَّرت بهم وأبحت لهم الأموال والأعراض والأرواح البريئة، والقبائل قد غفر الله لهم ذنوبهم لأنهم ندموا وتابوا وطلبوا العفو من إخوانهم المنهوبين، وتآخوا معهم، وعقدوا العزم على التعاون ضدّ الظلم والفساد يداً واحدة.

ـ وأنا قد قطع أخي رأسي، وذبحني كما تُذبَح الشاه مُتَّهماً إياي بالاشتراك في ثورة عام 1955.

ـ إنك ساهمت في الثورة للتخلُّص من سلطان أخيك، ولتتمكَّن من نهب الشعب بطريقة مستديمة منظّمة، بل كنت تخشى أن يتطوّر الحكم إلى صالح الشعب، فاشتركت في الثورة لتحمي مستقبل الأسرة بأسلوب الحكم الرجعي العتيق، وإلا فقل لنا: ماهو العمل الوطني الذي قمت به طيلة حياتك؟

ولم يشأ أمير النهب أن يردّ على هذا السؤال المحرج، فعاد إلى التنصُّل بطريقة أخرى قائلاً:

الحقيقة أنني لست المسؤول عن نهب العاصمة ولا القبائل مسؤولون، إنما المسؤول هم الأحرار، الأشرار الذين أشعلوا الفتنة.

وما كاد العزّي محمود يسمع هذه العبارة حتى ردَّ عليه قائلاً:

ماذا فعل الأحرار؟

ـ أرادوا أن يغيروا نظام الحكم، وأخرجوه من عائلتنا، وجاءوا ببدعة الدستور المشؤوم الذي لم يسمع به الشعب في حياته، قَطّ.

ـ إن ما ذكرته لايعتَبَر ذنباً من ذنوب الأحرار، بل هو فضل كبير على الشعب؛ لأنهم أرادوا له أن يحكم نفسه بنفسه.

ـ إن الشعب لايستطيع أن يحكم نفسه، إنما يستطيع أن ينهب نفسه بنفسه.

ـ لاتشتم الشعب، ولا ترمِهِ بدائك، فإنه إنما فعل ذلك لأنه كان معصوب العينين، وكنتم ـ يومئذ ـ قادته، فلم تستطيعوا أن تقودوه إلا إلى سلب ونهب.

ـ إن الأحرار هم الذين جلبوا على أهل العاصمة ذلك البلاء العظيم لأنهم جعلوها مقرّاً للدستور، فكانوا السبب في النهب، فهم المسؤولون.

ـ إن هذه المغالطة الماكرة قد سبقك إليها معاوية لمغالطة أهل الشام، حينما جزعوا لمقتل عمار بن ياسر على أيديهم، فأراد معاوية أن يضلِّلهم، وينسب الذنب إلى الإمام علي (كرم الله وجهه)، فقال: إنما قتله من أخرجه للقتال معه، فرّد عليه الإمام علي (عليه السلام) بقوله:

إذاً، فرسول الله (عليه الصلاة والسلام) هو الذي قتل عمّه الحمزة؛ لأنه

كان السبب في قتله بإخراجه معه للقتال!

وأضاف العزّي محمود قائلاً:

ما ذنب الأحرار؟ إنهم حكموا العاصمة، وكان كلّ شيء بأيديهم، فلم يسمحوا بنهب بيت واحد من البيوت حتى بيوتكم أنتم، ولقد كانوا يريدون الخير لأهل العاصمة وللقبائل والمزارعين والجنود، فرفضتم أنتم، وأشعلتم نار الفتنة، واستبحتم كلّ الحرمات، ومع ذلك، لم يبارك الله انتصاركم، وسرعان ماعرفكم الشعب، وأدرك سوء نواياكم.

ـ لعلك أنت واحد من الأحرار الأشرار، قَبَّحَك الله.

ـ نعم، أنا واحد منهم، ولست في حاجة إلى أن أشتمك، بل إنني أرثي لك، وأتمنّى أن يوجد في أهلك من يكفِّر عنك خطاياك، وربّما، يغفر الشعب وينسى، وإذا غفر الشعب فقد غفر الله، وبهذه المناسبة، أرجوك أن تخبرني: أين والدك؟

والدي..! أعوذ بالله! من هو والدي؟ إنه ليس لي والد، وإذا كان لي والد فإني أبرأ منه. وهنا، تذكَّر العزّي محمود قول الله سبحانه: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ}.

ـ سوف أغيّر صيغة السؤال: أين العماد الذي كان يحكم بلادنا؟

ـ المفروض أنه في جهنّم، وأنه يلاقي اهتماماً كبيراً في دوائر جهنّم، عرفت هذا في أثناء السؤال والجواب الذي تعرّضت لهما. ولكن، لمّا

دخلتُ النار لم أجد له أثراً، ويوجد جماعة كبيرة من أتباعه، حكم عليهم بدخول النار لمجرّد أنهم ساهموا في تدعيم عرشه، ولمّا دخلوا النار لم يجدوه فيها، فهالهم الأمر، واعتقدوا أنه إمّا أن يكون قد غُفِر له، فهم يطمعون في الغفران، وإما أن يكون معذَّباً، فهم يحرصون على أن يشهدوا تعذيبه.

وبينما كان المتحدِّث قد بلغ هذا الحَدّ من حديثه، إذ بأصوات تشبه الهتافات الثورية تدوّي كالرعد القاصف! وفجأةً، ظهرت جموع غفيرة تزحف وشعورها منكوشة، وألسنتها مندلعة إلى صدورها، واللهب يتطاير من عيونها وخياشيمها، فلمّا بصرت بحامل الأخشاب والأبواب عرفته على الفور، واندفعت إليه كالوحوش، ولم تكن الأصوات واضحة الدلالة إلا أن بعض أصوات منها كان يعلو أحياناً، فتتجلّى معانيه، منها صوت يقول:

ـ {رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا}.

ومنها صوت يقول:

{ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ}.

ومنها صوت آخر يجيب عليه:

{لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ}.

وصوت آخر يخاطب أمير النهب:

{إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ}.

ويردّ أمير النهب، وهو يرتعد:

{إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ}.

وتقول أصوات أخرى:

ـ أين أبوك؟ أين أبوك؟

ـ ليس في جهنّم أبوّة ولا بنوّة.

ـ أين الطاغية الذي استغوانا؟

ـ ماذا تريدون منه؟

ـ إننا نقوم بمظاهرة، في جهنّم، للبحث عنه.

صوت آخر:

إننا متطوِّعون للشهادة ضدّه، بل لمساعدة الزبانية عليه، أيضاً. إنه كان يقتلنا قتلاً جماعياً خبيثاً: بالجهل والأوبئة، والفقر وسوء التغذية، ويحرمنا من كلّ حقوق الحياة، ويسلّط بعضنا على بعض، ويفسد مابين المرء وأخيه، وفي النهاية يتركنا ميراثاً لأولاده كما يترك الأثرياء لأولادهم الكسالى المدلّلين حظائر البغال والحمير والخنازير.

أمير النهب:

أستغفر الله، لستم خنازير! نحن وأنتم سواسية.

ـ أنت تعرف، الآن، أنّا لسنا خنازير، ولكنك حين استغويت القبائل الأميّين، ووجَّهتهم إلى نهب العاصمة، وأبحتَ النساء والأطفال والأرواح والأموال، وأشعتَ الخراب والدمار، كنت تفعل ذلك، وأنت تنظر إلى سكّان العاصمة وإلى المهاجمين لها نظرة أشدّ احتقاراً من نظرة إقطاعي إلى حظائر خنازيره، فإن مالك الخنازير ـ ولو أنه شرب خمور الدنيا ـ لا يعبث بخنازيره كما عبثت أنت بمن تراهم، الآن، بشراً مثلك.

وراح العزّي محمود يسرح ببصره إلى آماد بعيدة في أغوار الجحيم، فتراءى له من هذا البعد شبح فأر ضخم، تحيط به مجموعة كبيرة من الفيران، وتقلِّده في تحرّكاته، وأثاره هذا المنظر الغريب، فتحرَّكوا نحوه، وما كادوا يقتربون من مكان الفيران، حتى لفت نظرهم شيء على رؤوس الفيران، يشبه العمائم، تتدّلى من كلّ عمامة عذبتان: واحدة من الخلف، منسدلة على عنق الفأر ممتدّة إلى مؤخِّرة ظهره، وأخرى منسدلة على خدّه الأيسر.

واتّجه الزوّار إلى عاهل الفيران الأكبر، فإذا به يقبل عليهم، ويُخرِج لسانه، كمن يتلمّظ ليقضم شيئاً، والحقيقة أنه كان يكافح ليتحوّل إلى مخلوق ناطق، وتمّت المعجزة، وبدأ الكلام.

رحَّبَ الفأر الكبير بالزائرين، وحيّاهم، ثم أومأ ـ بخبث ـ إلى العزّي محمود قائلاً:

ألا يعجبك هذا؟ إنني لازلت أدفع الثمن، وأكابد مرارة العدل الإلهي، منذ اقترفت الجريمة الكبرى، وهدمت السدّ المقدَّس في مأرب.

ثم استدرك كمن فاته أداء واجب هامّ، وقال:

أنا محسوبك، فأر سدّ مأرب الشهير، وهؤلاء تلاميذي وخلفائي، إننا عوقبنا، وكُلِّفنا بأن نظلّ أبداً نهدم هذا الجبل الجهنّمي (وأشار إلى جبل هناك، شاهق رهيب)، على أن نقرضه بأفواهنا، ونحفر في أعماقه جحوراً تتغلغل حتى تنفذ إلى الجانب الآخر، ومتى بلغنا، بجهدنا الجهيد، نهاية هذه المهمّة انفجرت بحيرة من الجحيم محجوزة وراء هذا الجبل، فدكّته دكّاً، واكتسحَتْنا معه، وصَهَرتنا، ثم لاتلبث سنّة الجحيم أن تعيدنا إلى خلقنا الأوّل، وتعيد بناء الجبل من جديد... هكذا، عذاباً مكرَّراً مُعاداً، أزلياً..

قال العزّي محمود:

ـ ولكنك حيوان، والحيوانات غير مكلَّفة، فلا تُعاقَب، ولا تُحاسَب!

قال الفأر:

ـ ذلك كان ظنّنا، غير أن نكبتي آتية من أن معظم الذين حكموا مأرب خلال ألف عام اضطلعوا بمهمّة التخريب المستمرّ، كأنهم يتشبّهون بي دون قصد منهم، لذلك ابتعثتني إرادة الله، وأدخلتني الجحيم، وضخَّمت جثّتي، كما ترى، لأكون قائداً لهذه الفئران، التي كانت آدميّة مثلكم، فعوقبت بالمسخ والإذلال: أما المسخ، فهي ـ كما تراها ـ

أصبحت فيراناً شائهة مثلي، وأما الإذلال فحسبك أني قائدها، بعد أن كانت تتعالى على سلالة حِمْيَر، ومعين، وقتبان، وتتّخذهم عبيداً، أو شبه عبيد.

قال العزّي محمود:

ولكنك تبالغ في زعمك هذا، وتجور، حتى تجعل من هؤلاء الذين تشير إليهم هدّامين، مخرِّبين، وتقارن سياستهم وأعمالهم بجريمتك التاريخية، يوم هدمت السدّ، وهذا شيء كثير.

وبدا على فأر السدّ أنه غضب، أو تحمَّس؛ إذ كانت ملامحه لاتدلّ على نوع انفعالاته دلالةً واضحة، فقد انتفض من مكانه، وراح يحكّ أذنيه ومنخريه، ثم قال:

ـ لعلّك من أولئك الناس الذين يحكمون على الأشياء بما تعطيهم من مظهر سريع! نعم، إنه لصحيح أني هدمت السدّ العظيم، ومزَّقت بني معين، وبني حِمْيَر، وقبائل قتبان، وأقيال همدان، والمعافر، شَرَّ ممزق، وفرَّقتهم أيدي سبأ، ولكن ذلك مجرّد حادث واحد، وكان من الممكن ترميم السدّ، فالسواعد التي بَنَتْه أوَّل مَرّة، تستطيع أن تبنيه المرّات تلو المرّات، وأنا لذلك، فقد كانت جريمتي محددة بالهدم مَرّة واحدة، وبعدها تركت الشعب على حرّيّته يعيد بناء السد كما يشاء، دون أن يكون لي عليه سلطان يمنعه من البناء، ويفرض عليه أن يواصل تمزيق طاقاته الإنسانية الخلّاقة، ولكن هؤلاء الذين حكموا مأرب منذ ألف عام، عطّلوا طاقات الشعب، وشوّهوا إنسانيّته، وأذلّوا كرامته، وهدموا

فيه إرادة الحياة، وهي أهمّ من آلاف السدود، بل هي التي تستطيع أن تبني آلاف السدود، وتحرسها، وتصونها، وتجدّدها على الدوام. إن الله تعالى، ذكر في سورة «سبأ» قصّة سبأ، وقصة التمزيق الذي أصابها، وجعل إبليس رمزاً لإغوائها، ولكنه دحض حجّتها، حتى لا تتعلّل، ولا تعتذر بتسليط إبليس عليها، فقال تعالى: {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ}، فإذا كان إبليس- وهو يجري من بني آدم مجرى الدم- ليس علّة ظاهرة للاعتذار، فما الشأن بالفأر المضطهد المطارد مثلي؟ وما سلطانه؟ ومانفوذه، حتى يتّهم بأنه فرض على الوطن خراباً أبدياً؟

كلّا- أيّها الزائر الكريم- إن الإثم لعظيم، والمسؤولية الكبرى على عاتق هؤلاء الذين مُسِخوا إلى جانبي؛ إنهم تولّوا سياسة الهدم لكل ما هو إنساني ورفيع في هذا الوطن، لأنهم هدموا، قبل كلّ شيء- كما قلت- إرادة الحياة، وهي ينبوع كلّ عمل إنساني متحضِّر خلّاق، فمن إرادة الحياة تنبثق الكرامة، والحرّيّة، والعزّة، ومواهب الفنون والعلوم، وأسس الحضارة كلّها، ولو أنهم هدموا إرادة الحياة مرّة واحدة، وتسلّلوا هاربين، كما فعلت أنا بالسدّ، لاستطاع الشعب أن يستعيد إرادته، وأن يرمّم الخراب النفسي والروحي الذي ألمّ به، ولكنهم بعد أن هدموا إرادة الحياة أسَّسوا لهم، على أنقاضها، سلطاناً أبديّاً، زعموا أنه مستمَدّ من السماء ومفروض منها، وهو سلطان قائم على أساس أن يبقى، أبداً، يشلّ هذه الإرادة، ويهدمها، ويعطِّلها، فالسلطان الهدّام المتحكِّم بلاء أشدّ من بلاء إبليس، ولا يقارَن به عملنا نحن- الفيران- إلا على أساس التندُّر، والتهكُّم، وهذا ما فعله الله بنا.

قال العزّي محمود:

ولكن، أَصْدِقْنا الخبر- أيّها الفأر الشيطان-:ما بالك تصدّيت لهدم السد؟ وماذا كان يجيش في نفسك في أثناء ارتكاب هذه الجريمة، لا سيّما وأنه لا يوجد مايبرِّرها، فقد كنت تستطيع، أنت وجيلك من فيران مأرب كلّها، أن تنعموا برخاء حضارة مأرب، وتختلسوا من فتات الموائد الحِمْيَرية مايجعل منكم أسعد فيران الأرض، وربما تطوّرت بكم النعمة، فارتقيتم سلّماً بعيداً من مراحل التطوّر، فأصبحتم خلقاً آخر: ربّما ذئاباً أو فهوداً، أو ما أشبه ذلك، غير أنكم- بهدم السدّ- لم تجنوا على سبأ فحسب، بل لقد جنيتم على أنفسكم، وعلى جنسكم كلّه، فما أظننا، الآن، نجد في مأرب فأراً واحداً تبدو عليه آثار النعمة، لقد انقرضت، أو كادت، حتى الفيران.

قال فأر مأرب:

إننا- معشر الفئران- نُدفَع- عادةً- بالغريزة، غريزتنا كفيران، ولكني في موضوعنا هذا بالذات أستطيع أن أعرف لهدم السدّ هدفاً سامياً؛ لعلّ الحكمة الإلهية كانت تدفعني إلى عملية التخريب هذه لأوقظ سبأ إلى حقيقة كبرى من حقائق الحياة الخطيرة فيها، وأذكر أن أقيال حِمْيَر وقبائلها كانت قد بدأت تعتمد كلّ الاعتماد على السدّ، وترى فيه المصدر الوحيد لحضارتها ورخائها وأمجادها، ونسيت أن السدّ نفسه كان ثمرة الكفاح والنضال والاتّحاد وروح الأخوّة والتعاون بين قبائل البلاد، وأقطابها، وبهذا الاعتماد على السدّ بدأ الخلاف والشقاق

يدبّ بين القبائل، وضعفت روح التعاون فيما بينهم، فكانت ـ والحالة هذه ـ عملية هدم السدّ تصلح، في معناها الأسمى، أن تكون تحذيراً وتنبيهاً وخلقاً جديداً لحوافز الحياة وعوامل النهضة والرقي، وكان المنتظر أن يعود السدّ أقوى ممّا كان، وأن يلتفّ الشعب حول رمزه الحضاري، وتتجدّد قواه، ولو بعد قرون، ولكن الذي حدث شيء مؤسف: لقد جاء الحكام الذين تتغلغل في أعماقهم روح التخريب، فانهدم، في عصورهم، كلّ ماكان عامراً؛ وبهذا عوقبوا هذا العقاب الفريد، كما تراهم. وعند هذه العبارة نهض أحد الفيران، وأشار بيديه إلى لسانه، كأنه يستأذن في الكلام، فشجَّعه فأر السدّ، وعندئذ قال:

إنني كنت ـ حقاً ـ طاغية من طغاة (واق الواق)، وأنا أعترف بالدور الهدّام الذي قمت به في البلاد، وعسى أن يغفر الله لي، ويجعل لهذا العذاب نهايةً وحَدّاً، ومن أجل ذلك أشعر بأن عليّ واجباً أن أحذِّركم من سدّ آخر في حدود مأرب، يوشك أن يهدمه أحد أحفادي، وليس هذا السدّ لحفظ مياه الأمطار والسيول، وإنما هو سَدّ معنوي لحفظ الاستقلال. إن هذا السدّ المعنوي هو الحاجز بين المنطقة المستقلّة، والمنطقة المحتلّة، وقد ألهمني ضميري المعذَّب بأن أحد الأحفاد قد بدأ يحفر في هذا السدّ ثقوباً وشقوقاً، والدافع المخجل لهذا الحفيد، أنه قد أيقن مصيره الوخيم، وبالكراهية الشعبية الضارية ضدّه، فلم يجد له مفزعاً يفزع إليه غير الاستعمار، إنه ورث الشعب عنّا كقطيع من السائمة، فلمّا استيقظ الشعب وأحسّ بكرامة نفسه، وبقدسيّة حقّه في الحياة، أخذَتْ حفيدَنا ـ من أجل ذلك ـ العزّةُ بالإثم، فلم يقبل أن

يسلِّم حقّ الشعب إلى الشعب، بعد أن بلغ الرشد، وشبَّ عن الطوق، وكبر على القيد، وأبى الحفيد إلا أن يسلّمه إلى الاستعمار؛ وبذلك يعطي التاريخ الشاهد الحيّ على بشاعة هذه الوراثة السخيفة للشعوب، ويكتب علينا اللعنة الأبدية، كما يعطي الشعب درساً جديداً قاسياً يجعله يستميت في الدفاع عن نفسه معتمداً على طاقاته الذاتية، بعد أن تآمرت عليه الدول المحيطة به تآمراً وحشياً آثماً.

مطارق جهنّمية هائلة ترتفع، ثم تهوي، حيات تنقضّ من الأفق هابطة كما تنقضّ النسور على جيفة بعير تشمّ رائحته من بعد، وتراه بمرآتها، زبانية يهدرون بأهازيجهم في غمرة حماس مثير.

وقدم العزّي محمود مع رائده إلى هذه المنطقة العجيبة، وفي نفسه أمل أخير، قد يريحه من التجوُّل العسير، وبعث رائده إلى بعض الزبانية يستدعيه إليه، فأقبل أحدهم فتأمَّله، فإذا هو عضو اللجنة الموكلة بوسائل التعذيب، وإذا هو الشخص نفسه الذي لقّب نفسه بـ(الهول)!!

سأله العزّي محمود عن هذا الخطب الجلل الذي تقوم الضجّة من حوله، فربّما كان هو الطاغية الذي يبحث عنه، فقال الهول:

إن هذا ليس العماد، بل هو (الوشّاح ياجناه).

ـ من قال لكم إنه الوشّاح؟

ـ صادف أن قام جماعة منّا بالطواف على طغاة التاريخ، فلمّا وصلوا إلى نيرون قال لهم إن بعض زملائه، ويدعى الوشّاح، يعالج في بلاد الرومان، وإن كلّ التقارير عن كلّ خبراء الموت تقول إن هذا الزميل سيموت، أو قد مات فعلاً. وهنا، أعلنت الطوارىء في الدوائر الجهنّمية، وأخذوا يفحصون كلّ الأسماء الواردة إلى جهنّم، وقد انتهى الفحص ـ أخيراً ـ إلى العثور على اسم المدعوّ بـ(الوشّاح)، حُكِم عليه بدخول النار، بصفته قاتلاً سفّاحاً، فأعددنا له آلات التعذيب المخصَّصة له، وجئنا فوجدناه هنا، كما ترانا.

قال العزّي محمود:

أنصحكم بأن تتأكّدوا من شخصية هذا الرجل، ولو بالرجوع إلى سؤال عزرائيل.

قال الهول:

لقد سألنا عزرائيل فقدَّم لنا تقريراً حائراً محيِّراً، قال فيه إنه قبض روح الوشّاح ـ مرّةً ـ في قصره بعد أن أغمي عليه عدّة مرّات، ثم وجد نفسه مبعوثاً من السماء، مَرَّةً أخرى، لقبض روح هذا الوشّاح نفسه، وهو مريض مدنف، ثم وجد عزرائيل نفسه، للمرّة الثالثة، يقبض روح الوشّاح هذا، في أثناء إجراء عمليّة خطيرة له، وانتهى عهده به، منذ هذه المرّة.

وعزرائيل حائر! لا يدري كيف يفسِّر هذا الإنسان اللغز، ولكنه يتّهم

علماء الطبّ لأنهم يعالجونه في الحالات الميئوس منها، حينما يكون عزرائيل- بحسب تجاربه- قد قرَّر إنهاء عمليّته، وأحياناً، يخطر لعزرائيل أن يتّهم إبليس بأن له ضلعاً في هذا التلاعب، لحاجة في نفسه إلى هذا الإنسان، ويقول عزرائيل إنه- شخصياً- لا يجرؤ على إظهار الاهتمام الكبير بإزهاق أرواح السفّاحين، لئلّا يُتَّهم بأنه لايزال محتفظاً بوجهة نظره التي أعلنها مع الملائكة عند ربِّهم، حينما اعترضوا على خلق من يفسد في الأرض، ويسفك الدماء.

قال العزّي محمود:

- ألا يمكن أن نذهب نحن إلى هذا الوشّاح، فنتحقّق من شخصيّته؟

قال الهول:

- بلى، إن هذه رغبتنا... قال هذه العبارة، وتقدَّم الزائر والرائد، حتى وصلوا جميعاً إلى الوشّاح، وكانت صورته غير واضحة؛ فإنما هو كتلة من اللحم المحترق المسموم، ولا يخرج أنينه وصياحه إلا مبعثراً من شقوق جسده المتصدِّع، وما كاد العزّي محمود يقدِّم نفسه إليه حتى ضجّت شقوق جسمه بمعزوفة مجنونة من الشتائم، ثم هدأت هذه المعزوفة قليلاً، وارتفع صوت واحد يفحّ فحيحاً:

سأقطع رأسك في الحال، الآن.. !! أين السيف؟ أين السيف!؟

وأخذ يردِّد هذه العبارات في جنون، ولمّا أدركه التعب حاوره العزّي محمود في لطف، وأخذ يستدرجه بمعالم ذكرياته: واحدةً واحدةً،

كما يفعل المحلِّل النفسي بضحايا الأمراض العقلية، حتى أُسلِس قياد المجنون، وتطامن فحيحه، وانتهى به المطاف إلى هذا الحوار:

ـ أين كنت تسكن؟

ـ في ضاحية شعوب.

ـ ومامهنة أسرتك؟

ـ زراعة الأرض.

ـ إن أسرة الوشّاح أسرة كريمة، من أكرم أسر القبائل، فلماذا خرجت أنت شاذّاً على الأسرة؟

ـ لقد أشقاني الله فتمرّدت على أسرتي، وعملت حارساً في خدمة إلهي...

ـ ومن هو إلهك؟

ـ إلهي (ياجناه)

ـ وماذا كانت مهمّتك في الحراسة؟

ـ كنت أحرس أوّلاً، ثم تطوّرت مهمّتي إلى جلّاد، فأصبح عملي أن أذبح كلّ من يأمرني مولاي بذبحه.

ـ وكيف كان موتك أنت؟

ـ آه.. غدر بي ذلك الغادر!! كنت أذبح له الناس، فأراد أن يتظاهر بالعدل، فأمر الناس أن يذبحوني!!

ـ هل كان ذبحك بسبب؟

ـ لم يكن سبباً معقولاً، فإنني أعرف أن مهمّتي كانت قتل الأبرياء، وكنت أقتل الأبرياء بأمره، فلمّا قتلت بريئاً واحداً، بأمر نفسي، أمر الغادر بقتلي، فقطع رأسي بالطريقة التي كنت أقطع بها رؤوس الآخرين!

والتفت العزّي محمود إلى الهول قائلاً:

ـ الواقع أنه الوشّاح السفّاح، ولكنه غير الوشّاح الذي تطلبونه، وتعدّون عدّتكم من أجله: إنه الوشّاح المسكين المخدوع، ولا أراه يستحقّ إلا عقوبة القَتَلة العاديّين.

قال الرائد:

ـ هيّا بنا نذهب إلى نيرون، فهو المسؤول عن هذه الإشاعة من بدايتها، وذهب تلاثتهم في طيران سريع، حتى وصلوا إلى نيرون، وكانت تنهشه وحوش من نار.

قال له الهول:

أصدِقْنا الخبر: هل أنت الذي أشعت موت زميلك الوشّاح؟

قال نيرون:

إن روح الرومان تغاديني وتراوحني باللعنات، وأنا على صلة دائمة بها، فرضها عليّ الزبانية لأزداد حسرةً وألماً، وقد بلغتني إشاعة موت زميل لي، فأخبرت من أخبرت، وأذكر أن اسمه الوشّاح فعلاً.

قال الهول:

ولكنه، الآن، حَيّ، يقتل الأحياء.

فانتفض نيرون غاضباً، وقال:

هؤلاء هم الرومان الكلاب الذين تمرَّدوا على طاعتي، وثاروا في وجهي، وغضبوا من أجل إحراق روما، متَّهميني بأنني المسؤول عنه.

وهاهم، الآن، يعيدون الحياة، بطبّهم الحديث، إلى من هو أبطش مني، وأطغى!

ألا ترون أنهم يستحقّون الحرق مَرّةً أخرى؟ بل، ألا ترون أنهم يستحقّون شيئاً أكثر من الحريق؛ أن يحكمهم هذا الطاغية الذي عالجوه!؟

إن هذا جزاء عادل، وإلّا فكيف يواصلون لعنتهم لي في قبري، منذ مايقرب من ألفي عام، ثم يركعون وينحنون أمام طاغية أجنبي، فيبعثونه حيّاً إلى شعب من البشر، وفي النصف الثاني من القرن العشرين؟ إن مرحلة من التطوّر، طولها تسعة عشر قرناً، لم تستطع أن تقنع الرومان بأن نيرون ضرب كريه من الحكّام، في كلّ زمان وكلّ مكان.. إنهم أغبياء ومتناقضون.

كان الوقت متَّصلاً في جهنّم، فلا ليل ولا نهار، وإنما هو ظلام مطبق، فإن ألوان النار، هناك، قد حالت إلى السواد، وما كان يضيء للناظر إلا اللهب الأحمر الذي يندلع من أشباح الزبانية، لذلك كان حساب الزمن الذي يمرّ مجهولاً. ولكن العزّي محمود كان يحتفظ بتوقيت إحساسه، وقد أحسّ بالضيق والخيبة لأنه لم يلقَ (العماد)، ولم يدرِ مكانه في جهنّم ورأى، بعد طوال التجوال والبحث، أن لابدّ من الرجوع إلى مالك خازن الجحيم نفسه.

واتَّصل الرائد بخازن الجحيم، في ذلك الشأن، وسرعان ماجاء الردّ، وهذا نصّه:

«اسألوا عن منطقة السنّارة الجهنّمية، وستجدون هناك مطلوبكم».

وراح الرائد متَّجهاً إلى مكتب لخرائط جهنّم، واستعرض خريطة

ضخمة هناك، عرف فيها موقع السنارة، وأومأ لرفيقه العزّي محمود أن يلحق به، فسارا بعيداً حتى شاهدا جبلاً هائلاً يخترق أجواء الفضاء، وتأمّلاه، فإذا هو في شكل سنّارة محميّة معقوفة في أعلاها كأنما التَوَتْ من حرارة النار، وراحا يحاولان الطيران إلى عرض هذه السنّارة، فإذا بأسلاك في الفضاء تمنعهما من الاقتراب، ثم هبطا إلى سفح الجبل يبحثان عن طريق يؤدّي إلى تسلُّقه، فإذا كلّ الجوانب موصدة بالأسلاك، فخطر للعزي محمود خاطر طريف، وصاح بأعلى صوته:

عندي نذر ياﻣﻮﻻنا! عندي نذر... !

وشدّ ما أخذهما العجب حينما رأيا باباً سرّيّاً، تنشقّ عنه الأرض، ينفتح لهما، واتَّجها إليه، ودخلا، فأفضى بهما إلى سرداب مخيف، كأنه قناة يجري فيها شوب الحميم، وهبَّ عليهما تيّار من اللهب، مقبل من أعلى الجبل، وهبط بهما، في لمح البصر، إلى قاع رهيب سحيق، وكان هذا القاع يموج بحميم يغلي، وحواليه جمع غفير من المعذَّبين المخفَّف عنهم، يتفرَّجون.

وقد لاحظ العزّي محمود أنهم من الموظّفين الكبار عند هذا (العماد) الذي كان يستذلّهم ويغويهم بأكل السحت وامتصاص دم الشعب، وقد خفّف الله عنهم العذاب لأن إرادتهم كانت مشلولة إزاء أوامره ونواهيه، وأتاحت لهم سلطات جهنّم إجازة من العذاب، يقضونها في استعراض هذا التعذيب العجيب لهذا الرجل الذي يُعتَبَر مسؤولاً ـ في الدرجة الأولى ـ عن كلّ ما أصاب الملايين من أبناء شعبه، زهاء نصف قرن.

إن كلّ دقيقة من سنيّ حكمه الطويل كانت طاحونة هائلة، تسحق عظام الشعب، وتنهش لحمه، وتفري جلده، وتترك لها سمة مستديمة، في خلاياه وفي دمه وفي أعصابه وفي صحّته العقلية والنفسية، وفي قدرته على مواجهة المستقبل البعيد، فالشعب في عهده حَيّ كالميّت، وميّت كالحَيّ، ولم يدعه يحيا إلا في جانب تافه حقير من حياته، وهي أن يجمع له ثروة يخلِّفها لأسرته، فلم يسمح أن تُبنى مدرسة أو مستشفى أو يُعبَّد طريق، بل لم يكن يُسمَح للمؤسّسات العالمية أن تقاوم وباءً من الأوبئة أو مجاعةً من المجاعات التي كانت تحصد الألوف من أبناء الشعب، الفينة بعد الفينة. كان حليف الجراد والتيفوس والجدري والمجاعات والظلام والجهل والسجون والأغلال.

وقد ربّى- في خلال حكمه المشؤوم الطويل- جيلاً من الناس لا يملكون أيّ خبرة في الحياة وفي معايشة البشر إلا خبرة الحركات الغريزية: من المشي، والقعود، وحمل الأحجار والأثقال، والانحناء لعبء النير، والالتواء تحت السياط، والفرار من الوطن لكسب القوت، والخوف والنفاق، والمحافظة على رمق الحياة في خدمة عدو الحياة.

وهناك فئة قليلة من الناس كسبت خبرة في شيء واحد فحسب، هو التفنُّن في وسائل تعذيب الشعب وصناعة القيود له، ونهبه عن طريق الرشوة والاختلاس والمحاكمات المأجورة والضرائب الدينية والالتزامات.

وفئة أخرى، لم يستطع أن يشملها هذا الشؤم، فواصلت حياتها عن طريق

الوراثة لتجارب الآباء، في الزراعة والعلوم الدينية والآداب القديمة.

ذلك هو الطاغية الذي يقبل عليه هؤلاء المتفرِّجون من أعوانه الضحايا، إنهم يحيطون بهذه القاعة المترامية الأطراف، وهي تتراءى كقاعة من بعيد إذا بها بحيرة من شوب الحميم، يقذف الزبانية فيها جثّة الطاغية، فتغوص ثم تظهر، ويبدو أنها غاصت لأن عيون النظّارة كانت شاخصة إلى سطح البحيرة، وماهو إلا قليل وقت حتى تظهر الجثّة، وقد حال لونها، وتغيَّر، وأصبحت كأنها كتلة من العجين الرخو، وهنا، مَدّ أحد الزبانية ملعقة ضخمة، وأخذ بها الجثّة، وأدخلها في فوّهة آلة ضخمة صُنِعت على شكل وحش، وأخذت أحشاء هذه الآلة تدقّ دقّاً عنيفاً، ثم وقفت، وتقيّأت قطعة: إنه وجه الطاغية وملامحه وجسمه كلّه تحوّلَ إلى شكل ريال نمسوي (هو العملة المتداولة في مملكة هذا الحاكم)، وقد كُتِب على أحد وجهَيْ هذه القطعة: الطبعة الواحدة والستّون بعد الألف!

وصاح أحد الزبانية:

هذا ماكنت تعبده من دون الله، وهذا ماسخّرت ملايين الكادحين ليجمعوه في قصورك كأنه تركتك الخاصّة، وهو الآن ـ كما نرى ـ تركة خاصّة بك فعلاً، بل هو قد أصبح أنت..

ثم أخذ هذا الملاك يعرض للمتفرِّجين الوجه الثاني لهذا الريال العجيب، فإذا هو قد كُتِب عليه: أنا من أهوى، ومن أهوى أنا.

قال (العماد)، وهو ينظر إلى المتفرِّجين في غيظ:

ماصنعت بكم؟

قال قائل منهم:

وقفت في سبيل حياتنا، لتحيا أنت وأسرتك.

وحانت من (العماد) التفاتة إلى العزّي محمود، فضجّ وأَعْوَل:

وهذا أنت، ياخبيث.. ماذا أتى بك إلى هنا؟ أبعدوه عني: يا عكفة! ياريمي، ياعمراني، ياصمصام! اقطعوا رأس هذا الخبيث!

واستمر العماد يهذي في جنون على هذا النحو، ونسيَ الجحيم والمطارق، وطبعته الواحدة والستين بعد الألف، إلى أن مَدّ أحد الزبانية يده إلى فمه وأسكته، ثم قال له:

أتدري من أنت الآن؟ وأين أنت؟

ـ نعم، نعم.. لقد عاد إليّ صوابي، ولكن هذا الخبيث يجب أن يذهب.

ـ لازلتَ ناسياً أين أنت.. يجب أن تتذكّر أن المُلك اليوم لله، ثم.. لماذا تكره هذا الزائر؟

ـ أكرههم جميعاً، ولكن هذاـ بالذاتـ لا أطيق وجوده؛ لأنه من الذين يسمّون أنفسهم أحراراً، وهم الذين جلبوا عليَّ البلاء، أنا وأسرتي.

وهنا، حانت فرصة للعزي محمود أن يتكلَّم، فقال:

على مهلك ياعماد.. ! من الذي جلب عليك البلاء، أنت وأسرتك؟

ـ أنتم، جماعة الأشرار.

ـ إن الأحرار أرادوا الخير لك ولأسرتك وللشعب، أرادوك، على أن تؤمِّن مستقبلك عند الشعب؛ لأن من لا يرضى عنه الشعب لا بقاء له.

ـ ولكن الشعب كان راضياً وهادئاً، ولم يُسمِعني كلمة مكروه، حتى أشعلتم الفتنة بيني وبينه !!

ـ كان الشعب متذمِّراً ساخطاً، ولكنه كان لا يجرؤ على مواجهتك بما تكره، حتى قام الأحرار من بنيه وتحدّثوا إليك على لسانه !

ـ لماذا تآمروا ضدّ العرش؟

ـ كانوا، في بداية الأمر، يرجون، ويودّون ـ من أعماق قلوبهم ـ أن تصلح بينك وبين الشعب، وأن تعطي الشعب حقوقه، ولكنك أخذَتْكَ العزّة بالإثم، فرفضت أن تتواضع لكلمة الشعب، ورفضت أن تمنح الشعب فرصة المحاولات السلمية لعمل أيّ ضرب من ضروب الإصلاح، فأصبحت صخرةً في طريق الملايين، فثار أبناء الشعب، وأزاحوك لأنك لم تدع وسيلة يتنفَّس بها إنسان، ويتحرّك فهل كنت تتصوَّر أن يقبل الشعب خنق نفسه إلى الأبد، ويدعك آمناً مطمئناً؟

ـ ولكني كنت محكوماً بالعقلية القديمة، فلماذا لم تقدِّروا ظروفي؟

ـ والشعب كان محكوماً بالعقلية الحديثة، فلماذا لم تقدِّر ظروفه أنت؟ إن ظروفك ظروف فرد، أمّا الشعب فظروفه هي روح العصر الحديث كلّه. إنك كنت بقية شاذّة تخلّفت من الماضي، في غفلة من الزمان، فكان وجودك وجوداً غير شرعي في هذا العصر، فلو ملكت ذرَّة من التوفيق لتنحَّيت للشعب عن الطريق، بأسلوب مشرِّف، لك ولأسرتك.

ـ التوفيق ليس بيدي إنما هو بيد الله، فلماذا لم يوفِّقني؟ فإذا كان ماتقول حقّاً فأنا ضحيّة القدر، وأنا مظلوم !

ـ إن العدالة الإلهية لا تخطئ، إنك مدين للشعب بدماء الأبرياء وأموال الضعفاء، ومدين لله بآثام جمّة اقترفتها، وليس من عدل الله أن يقتُلَ القاتل، ثم يوفِّقه الله، فيصبح قدّيساً!.

ـ لكن.. هل أستحقّ كلّ هذا العذاب؟ أليس في بعض هذا مايكفي؟

ـ أتدري كم كنت تحكم من البشر؟

ـ لا أدري بالضبط، ولكني أعرف أنهم ملايين.

ـ إنك كنت عقبة في سبيل حياة كلّ فرد من هؤلاء الملايين: في سبيل تعليمه، وفي سبيل رزقه، وفي سبيل صحّته، وعزّته وكرامته، بل لقد كنت عقبة في سبيل ممارسته أبسط صفة من صفاته الآدمية: لقد كان يموت الآلاف من الجوع، وتحت أقدامهم كنوز من الذهب، وكانوا يموتون بالآلاف من أمراض علاجها جرّة قلم بيدك، فلا تعطيهم، وكانوا يفقدون فرص التعليم، جيلاً بعد جيل، ويتوارثون الجهل

والأمراض والفقر، وتتداعى صحّتهم من سوء التغذية!

ـ وهل من المعقول أن أكون مسؤولاً عن هذا كلّه؟ إن الشعب متأخِّر، وهو مسؤول عن نفسه !

ـ لقد كان عليك أن تعمل، بالنيابة عن الشعب، وأنت المسؤول عن مصيره، ولن يتنكّر لك، بعد ذلك، لو عملت من أجله شيئاً، أمّا إذا كنت تشعر بالعجز عن الاضطلاع بأعباء الشعب، أو كنت مختلفاً في وجهة نظرك مع الشعب، فإن عليك ـ حينئذ ـ أن تتخلّى عن المسؤولية، وتتيح له فرصة التعبير عن حاجاته وطاقاته، ويصبح هو المسؤول عن نفسه.

وبينما كان هذا الحوار يجري، على هذا النحو، كان الرائد قد ذهب يستدعي الصحافيين وعدداً من الشهود في قضية، يحرص العزّي محمود على أن يثيرها، وقدم الصحافيون عندما بلغ الحوار إلى هذا الحَدّ، ولما رآهم العزّي محمود، ورأى الشهود، قال للعماد:

إنك تحقد على الأحرار؛ لأنهم أرادوا أن يوقظوك من نشوة المُلْك، وكان لابدّ من صوت عنيف لكي يوقظوك به، ولو أنك عقلت لما استحقّوا منك الحقد.

ثم غيَّرَ العزّي محمود من لهجته، وقال له:

هل تصدِّق أنه كان من أبنائك من يريدك أن تُقتَل بيد الشعب، لكي يستفيد من دمك؟

ـ لا أصدق، ومع ذلك، فالإرادة الرهيبة التي زعمتها عمل من أعمال القلب الخفيّة، وماكان لصاحبها أن يبوح بها.

ـ أنا لا أقصد بها إرادة قلبية فحسب، بل أقصد أنها ظهرت في أعمال وتصرُّفات وتحرُّكات دلّت عليها دلالة قاطعة.

ـ آه، فهمت.. ! أظنك تقصد ابني الخارج عن طاعتي والمنضمّ إليكم. هذا معقول، ولا يحتاج إلى كلام.

ـ إن ابنك الحرّ الذي انضمّ إلى صفوف الأحرار كان أبرّ أبنائك بك، وأصدقهم في محبَّتك، وأشجعهم في العمل الجريء من أجلك؛ إنه الوحيد الذي غامر بحياته لينقذ حياتك وحياة أسرتك ومستقبلها، أمّا الآخرون فكانوا بين جبان ينكر عليك سياستك، ولا يجرؤ على الصراحة، وبين جاهل متعصِّب لا يرى إلا ماتراه أنت، ويوجد الأخطر والأعقّ، الثعلب الذي كان يراوغك ويراوغ الأحرار، ويلعب أشنع لعبة من ألاعيب الموت.. إنه رهيب.. رهيب، لا يعرف بنوّة ولا أبوّة ولا أخوّة! أتدري ماذا كان يصنع؟

ـ لا أدري، ولا أحبّ أن أدري.. ولعلك تلاحقني إلى الجحيم لتضاعف عليّ العذاب!

ـ ليس لك في الأمر خيار، إننا نريد أن تعرف أنهـ مؤخَّراًـ من يخفر ذمّته مع الشعب من أجل أحبّ الناس إليه قد يجعل الله النقمة منه على يد أحبّ الناس إليه.

ـ ماذا تقصد..؟ أنا لا أفهم.

ـ لقد كان أبعد الناس عن مصرعك هم الذين نصحوك، وكان الذي دفع الأمور إلى نهايتها المعروفة هو أقرب الناس إليك، هو الذي حاربت الشعب من أجل مستقبله، إنه من أدهى خلق الله، وأمكرهم، وأملكهم لعواطفه، رغم أنه كان يبدو متهوِّراً. نعم.. رغم أنه كان يبدو متهوِّراً ! لقد علَّمتَه الدروس الأولى ليلعب ضدّ الشعب فلعب ضدَّك، وأجهز عليك بدون رحمة:

ومن يجعل الضرغامَ بازاً لصيده تصيَّده الضرغام فيما تصيَّدا

كان يعرف أن الشعب قد نفد صبره، وأصبح يفكّر في إزاحتك وإزاحته أيضاً، فرأى أن يجعل منك كبش الفداء، وأن يربح من دمك أثمن تركة سياسية، وهي (قميص عثمان)، وكان يقرأ في كتب الشيعة وتاريخهم أن معاوية تباطأ عن نصرة عثمان حينما كان يستنجده؛ ليعطي الثوار الوقت الكافي للإجهاز عليه، كان يعده بإرسال جيش من الشام فتتأخّر الإجراءات دون سبب معقول، حتى إذا انتهى كلّ شيء جاء معاوية بجيشه ليتسلَّم الإرث الثمين (القميص الدامي).

وكان هذا تاريخاً ملهماً لصاحبنا، ولكنه ذهب إلى أبعد ممّا ذهب إليه معاوية، دهاءً وتدبيراً وتأثيراً في مجرى الأحداث.

وإليك خطواته:

1 ـ كان له ثلاثة جواسيس، هم أدواته الرئيسية: اثنان منهم حكّام

منطقة خارج عاصمته، وواحد لا أريد أن ألمِح إليه، ولكنه، الآن، من المحظيّين.

استطاع هؤلاء الجواسيس أن يدخلوا في صفوف الأحرار، في الداخل، وأن يكونوا أبطالاً وطنيين، بحيث يرتفعون إلى مستوى حَفَظَة الأسرار الخطيرة، وكانوا يرفعون الأخبار إليه، أوَّلاً بأوَّل، فكان هو يحتاط أشدّ الاحتياط ضّد كلّ الأخطار التي يعرفها جيّداً، ويعرف ـ بطبيعة الحال ـ كيف يحسن الوقاية منها، ولكنه لم يكن ينبِّهك ـ وأنت أبوه ـ لئلّا تحتاط كما يحتاط.

والظاهر أنه كان يمارس هذه اللعبة في نشوة شيطانية، بدليل أنه كان يداعب الضحايا مداعبة النشوان الواثق من تدابيره وخططه.

2 ـ بعد أن عرف السرّ، وأصبحت الخيوط في يده، أدرك أن هناك تلكُّؤاً وتردُّداً، فأقدم على خطوة أجرأ: سَخَّرَ جواسيسه ليكونوا قوّة محرِّضة دافعة، بل كانوا يهدِّدون المتمرِّدين.

3 ـ بعث هو بنفسه برقيّة أشبه بالدعابة إلى أقطاب الحركة، هي نصّ الشيفرة التي تُستعمَل للتعبير عن أخطر الأسرار، ثم هدَّدهم ليدفعهم إلى الاستماتة في إزاحة أبيه فوراً.

4 ـ صرَّح، على رؤوس الأشهاد، بأنه من الممكن قتل فلان وفلان، دون خسارة ما، وهذا الفلان هو الذي يظنّه مترِدداً، فهو يعالج تردُّده.

5 ـ بعث إلى الأحرار، في الخارج، مَنْ يكشف لهم عن المؤامرة في

الداخل، ويخبرهم أنه قد عرفها، ظانّاً أنهم سيدفعون عجلة الأمور.

6 ـ كنت أنت تستنجد به بعد انكشاف الموقف لك، كما استنجد عثمان بمعاوية، ولكن صاحبنا كان يبعث إليك بأثاث قصوره، كأنها هي التي ستنجدك.

وهو يريد ـ بإرسال الأثاث ـ مزيداً من التهديد للمتآمرين، بأنه قادم إليهم ليتولّى عقوبتهم، فكان، بهذا، يجعل التأخير في نظرهم انتحاراً.

وفي الموقف أسرار أخرى، لا يزال الموقف غير قابل لنشرها، حتى الآن، إلا إذا دعت إلى ذلك الظروف.

وما كاد العزّي محمود ينتهي بكلامه إلى هذا الحَدّ، حتى انفجر العماد باكياً صارخاً، في صوت مدوٍّ موجع، وقال:

ـ كفى، كفى.. كفى أيّها الزبانية تعذيباً! حسبي ما سمعت.

وكان الصحافيون يسجِّلون هذه المحاورة، ويلتقطون صورة (العماد)، وقال العزّي محمود:

ـ أين الشهود؟ أين الشهود؟؟

وقال العماد:

ـ لا حاجة إلى شهود، ولا إلى مزيد من الوقود...

وعاد العزّي محمود مع رائده من سراديب السنارة، وانفتح لهما بابها السرّي وما كادا يخرجان من هذا الباب حتى وجدا أحد الزبانية واقفاً هناك، ينتظرهما في اهتمام، وسأله العزّي محمود:

ـ ماذا بك؟

ـ أنتظركما لأمر مهمّ.

ـ ماهو؟

ـ لقد تأخَّرتما في هذه الزيارة، وأحدث هذا التأخير ارتباكات وإشكالات، وعليكما أن تعودا معي فوراً إلى الخازن.

وأوجس العزّي محمود خيفةً من هذا الطلب، ووقع في نفسه أنه ربَّما قد ارتكب إثماً بتلكُّؤه في جهنّم، وربّما يكون الجزاء من جنس العمل

! وربّما أوصدت عليه أبواب جهنّم، فلا يجد منها مخرجاً.

ولمّا استقبله مالك، خازن الجحيم، حاول أن يطمئنه ويهدِّىء من روعه، فقال:

عندي لك بشرى.

ولم يستطع العزّي محمود أن يطمئنّ إلى هذه الألفاظ، فقد تكون لها دلالة أخرى، وربما كانت البشرى بشرى جهنّمية، كما يفهمها خازن الجحيم؛ لذلك عاد العزّي محمود يسأل:

أيّة بشرى تعني؟

ـ زملاؤك الشهداء ينتظرونك في الأعراف، وقد بحثنا عنك، وقلقنا لتأخُّرك، وخشينا أن تكون قد أضلَّتك روح الانتقام من الطغاة، وورّطتك في معارك طويلة لا مخرج منها.

ـ وماذا يريد زملائي؟

ـ يبدو أن عندهم قرارات خطيرة، وعليك أن تذهب فوراً.

والتفت الزبانية حول العزّي محمود يتّخذون إجراءاتهم معه، ويخلعون عنه الملابس الجهنّمية والأدوات الواقية، واستكتبوه إقراراً عن موجز رحلته في الجحيم، وأخذه أحد العمالقة منهم بقبضة يده واتَّجه به خارج منطقة الجحيم.

هبط العزّي محمود بين أعضاء لجنة الاستقبال الذين كان قد ودَّعهم الوداع المرير الكئيب عندما تلقّى دعوة الزيارة إلى جهنّم، ولكن، شتّان بين كآبة الأمس وبهجة اليوم، لقد رآهم يستقبلونه في فرحة غامرة من فرحات الجنّة، فرحة منطلقة في غير حدود ولا شكوك ولا توجُّس، وأثار اهتمامه أنهم قد أصبحوا خمسة بعد أن كانوا أربعة، وعانقهم واحداً واحداً، بحرارة اللوعة التي ألهبته بها غربته في الجحيم، ولمّا أقبل إليه الخامس يعانقه وجد أنه شخص جديد عليه لم يعرف صورته من قبل ولم يدعه بقية الزملاء في الحيرة، فبادره المسمري متعجِّلاً، كمن يريد أن يسبق زملاءه في البشرى:

ـ إنه الشهيد حميد آل الأحمر، الشابّ الثائر الذي قتله السفّاحون في ريعان شبابه الطاهر الغضّ...!

وقال الموشكي:

ـ لقد كان لهذا الشابّ ولأصدقائه من همدان الفضل الحاسم في نجاح مهمّتنا العسيرة.

وجعل الموشكي يشير إليهم بيده، كمن يناشدهم أن يتركوا له مهمّة التحدُّث عن محاولتهم الأخيرة الناجحة، ثم قال:

لقد ودّعناك، وكأنما كنّا نكابد غصّة الموت مَرّةً أخرى، وكادت تُنزَع منّا الطمأنينة والثقة بمصيرنا ومصير العدل الإلهي، كنّا في الدنيا نحتمل الظلم والحيف لأنها دار، يسيطر عليها الإنسان وحده، وهو المسؤول عمّا يجري فيها من موبقات وتناقضات، أما في عالم ما بعد الموت فإن الإنسان يُعفى من مسؤولية تقرير المصير، كما يُعفى من مرارات الصراع والمخاطرة، وإذا كان سرّ حياة الدنيا يكمن في القلق الذي يحرِّك الحوافز الحيوية، ويدفع إلى التطوّر والرقي فإن سرّ الحياة في عالم الآخرة هو الطمأنينة والثقة بالمصير.

بعد أن ودّعناك تذكَّرنا أنه يوجد، من زملائنا الشهداء، جماعة جدد لا يزالون موضع الترحاب الشديد عند سلطاتنا العليا، وكان أقربهم استشهاداً الشهيد المؤمن التقي، الشيخ حسين بن ناصر آل الأحمر، والشهيد الورع المتعبِّد الشيخ عبداللطيف بن راجح، والشهيد الشاب

الثائر حميد بن حسين آل الأحمر، وقبلهم بقليل، استشهد ـ مسموماً ـ زعيم كبير من زعماء بكيل هو الشيخ الشهيد قاسم بن حسن أبو راس.

ورأينا أن هؤلاء يمثّلون همدان الكبرى التي تنتسب إليها حاشد وبكيل، القبيلتان العظيمتان في بلادنا، وفي تاريخنا، بل وفي تاريخ العروبة والإسلام.

وذهبنا لزيارة هؤلاء الأربعة الكبار: حسين بن ناصر آل الأحمر، وقاسم بن حسن أبو راس، وعبداللطيف بن راجح، وزميلنا حميد بن حسين، وقد حدَّثناهم عنك وعن قصتنا معك، ورأينا لهم زلفى في الجنّة، لم يبلغها أحد من شهداء بلادنا؛ لأنهم يمثّلون همدان كلّها، القبيلة العربية العظمى، وما كادوا يسمعون حديثنا حتى قاموا جميعاً لنجدتك، واتّصلوا بالسلطات العليا في الفردوس، وسرعان ما فُتِحت لهم أبواب المقامات العليا، وقال لهم خزنتها: {سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ}.

واتجّهوا، من فورهم، إلى الإمام علي بن أبي طالب (كَرَّمَ الله وجهه)، كأن لهم يداً عنده، ودالّة عليه..

ولمّا مثلوا بين يديه وجدوا عنده ولديه: الحسين، وزيداً (عليهما السلام)، ورحّب بهم علي (عليه السلام)، واحتضنهم، وحيّاهم كلّ من الحسين وزيد، بحرارة ولهفة.

وقد تحدَّث الشيخ الكبير الشهيد عبداللطيف بن راجح نيابةً عن وفد همدان، فقال:

الكرامة لوجهك، يا أمير المؤمنين.. وقد عشنا حياتنا ندعو لك بهذه الكرامة في الجنّة، كما عاش آباؤنا الأوّلون، في همدان، جنوداً أبطالاً تحت رايتك، وافتدوك بأعزّ المهج والأرواح..

إن لنا معك ـ يا أمير المؤمنين ـ حديثاً طويلاً، ولكننا، هذه الساعة، زوّار عابرون، جئناك لحاجة عاجلة، ليس لك إلا أن تقضيها، فنحن ضيوفك من همدان. وإننا، حين نناشدك قضاء حاجتنا هذه، نسألك ـ أولاً ـ ألست القائل:»ولو كنت بوّاباً على باب الجنّة ،لقلت لهمدان ادخلوا بسلام!«

قال عليه السلام:

ـ بلى، أنا القائل.. ولكنكم، الآن، في الجنّة، فلستم بحاجة إلى من يُدخِلكم فيها، غير أني على استعداد أن أتّخذكم ضيوفي، في مقامي هذا، أبد الآبدين..

قال حسين بن ناصر:

ـ ما جئناك نطلب الجنّة لأنفسنا، فنحن نعيش منها في مقام عزيز كريم، ولكنّا جئناك نطلب دخول قادم إلينا، من الدنيا، بروحه قبل الموت، وهو العزّي محمود..

ـ هذا من سكّان المدن، وليس من قبيلة همدان..

إن سكّان المدن، أصلهم ينتمي بهم إلى القبائل، وهذا العزّي محمود

نفسه ينتمي إلى قرية من قرى بكيل، فهو همداني الأصل، وإن لم يكن كذلك فقد جاءنا يحمل هَمّ الشعب كلّه، بجميع فئاته وطوائفه.

ـ وكيف تدخل روح إلى الجنّة، قبل موت صاحبها؟

ـ هذه هي المعضلة التي قصدنا أمير المؤمنين ليتغلَّب عليها!

ـ ولكن، ما جدوى دخول روح إلى الجنّة، وهي ستخرج منها؟؟ إن الجنّة لا ينبغي أن يدخلها إلا الخالدون.. فإن من ذاق نعيمها لم يطق الحياة خارجها، وسيرى الدنيا بعدها جحيماً، فلا تعذِّبوا صاحبكم..

ـ المسألة ـ يا أمير المؤمنين ـ ليست مسألة شخصية؛ إنها مسألة شعب بأسره، بل إنها مسألة مبادىء تمسّ العروبة كلّها والإسلام، والإنسانية، وإننا نريد، من وراء هذه الزيارة، أن نعيد النظر في القيم المثلى التي استشهدت أنت ـ يا أمير المؤمنين ـ في سبيلها، واستشهد النفر الطاهر من آل بيتك، وفي مقدِّمتهم الحسين، وزيد..

والقيمة الكبيرة لهذه الزيارة أنها محاولة تحتشد بها أرواح الملايين وعقولهم وقلوبهم ومعتقداتهم، في صعيد واحد..

وقد جاء هذا الزائر ـ يا أمير المؤمنين ـ يمثِّل ملايين الأحياء، ونحن نمثِّل ملايين الموتى من أجيال آبائنا وأجدادنا، وأنت ـ كَرَّمَ الله وجهك ـ تمثِّل القيم المقدَّسة التي ندين بها جميعاً، والتي عشنا لها، ومتنا في سبيلها...

ـ إنها فرصة عظمى، ساقها إلينا القدر، ودبَّرتها مشيئة الله لتتيح لنا أن نضع، على بساط البحث، مبادئنا، في ضوء الواقع الجديد..

لقد كان استشهاد الأبطال من همدان نذيراً حاسماً رهيباً، وهو حكمة الله، أراد بها أن يقطع دابر الطغاة السفّاحين الذين يزعمون أنهم خلفائي وأبنائي، ويسرِّع نهايتهم المحتومة، ويحفظ على أبناء الشعب وحدتهم وأخوّتهم، بدون تفريق، ولا تمزيق.

إنني، الآن، سوف أتّخذ الإجراءات التي تتيح لكم استقدام هذا الزائر إلى مقامنا، بعد أن يطوف ـ ما أمكنه الطواف ـ بزملائكم الذين سبقوكم بالاستشهاد، ليكون الرأي موحَّداً مُجَمَّعاً...

وتحرّك الجميع متَّجهين صوب الجنّة، وما كادوا يقتربون من أحد أبوابها حتى كاد العزّي محمود يسقط من الذهول مغشيّاً عليه، فتداركه رفاقه وأخذوا بيده إلى خازن الجنّة رضوان.. وبعد أن رحَّب به رضوان، وهشَّ إليه ببسمة من بسمات الجنّة قال له:

أرجو أن تتذكَّر- على الدوام- أنك في زيارة مؤقَّتة، وأنك خارج من الجنّة عند انتهاء مهمّتك؛ لذلك فإن عليك أن لا تمارس حقوق النعيم، وأن لا تذوق شيئاً من طعام أو شراب، وأن لا تفكّر في الاقتران بحوريّة من الحور، فإنك إن فعلت شيئاً من ذلك امتنع عليك الخروج والعودة إلى بلدك مَرّةً أخرى.

وابتسم رضوان، وهو يقول:

وأخشى ما أخشاه أن لا تكون هذه عقوبة مزعجة لك. ولكن، ما الحيلة،

إذا كان لا يوجد عندنا في الجنّة إلا مثل هذه العقوبة اللذيذة المغرية؟

فأطرق العزّي محمود مبتسماً، ثم أنشد:

وطني لو شغلت بالخلد عنه   نازعتني إليه في الخلد نفسي

وما كاد يتمّ إنشاد البيت حتى أقبلت جياد رائعة الألوان مجنَّحة، وأخذ كلّ شهيد من الرفاق يمتطيها، وركب العزّي محمود واحدة من تلك الجياد، فانطلق الجميع في سرب مجنّح، يحلِّق في أجواء الفراديس العطرة، لا يؤذي المحلّقَ فيها شمسٌ ولا رياح ولا برد ولا ظلام.. وإنما هي خضرة قدسية، وألوان سحرية، ومناظر عبقرية، تشبه أن تكون شعراً إلهياً، أو صهباء تحوّلت إلى فضاء، فكلّ شيء يتنفّس فيه تطير به النشوة، وتحلِّق في غير حاجة إلى جياد، ولا أجنحة، وكان يبدو أن الجياد نفسها إنما تطير بفعل النشوة، وأن أجنحة الجياد لم تكن غير رياش مدلّلة ظمأى، لا تصنع شيئاً غير أن تعبّ من نشوة الفردوس، وأن تتمدّد على هذا الفراش الوثير من الفضاء السحري.

وتوجَّسَ العزّي في نفسه خيفةً، وأخذ يحدِّث نفسه:

أليس في هذا الذي أعيشه ما هو أروع وألذّ من كلّ طعام وشراب، وأجمل من كلّ جمال، وأشدّ إغراء من الحبّ ومن حوريات الحبّ؟ أليس في هذا ما يستوجب توقيع العقوبة اللذيذة التي هدَّدني بها رضوان؟ هل أنا، الآن، أمارس السير في طريق الخيانة؟ أستغفر الله، وهل من المنطق أن تكون الجنّة مسرحاً لخائن أو لخيانة؟ إنما أكون

خائناً لو اخترت بنفسي أن أتخلَّف عن وطني. أمّا وأنا مُسَيَّر لا مُخَيَّر، فإن ضميري لا ينبغي أن يعذِّبني.

وبينما كان العزّي محمود يحدِّث نفسه هذا الحديث كان المسمري يدنو بجواده إليه، ويتضاحك، ويدندن بأبيات من الشعر، ثم يداعب ضيفه قائلاً:

ألا ترى أن صوتي أحسن ممّا كنت تسمعه مني في رواق الأزهر؟، والشعر: ألا تراني، اليوم، أشعر مني بالأمس؟ أتستطيع أن تبارزني في الشعر أو في إنشاد الشعر؟ كلّا.. ولا تظنّني- يا صديقي- مغروراً، فقد احتاج الأمر مني، لكي أملك هذا الصوت، أن يُقطَع رأسي، وتتجمّع معجزات الجنّة كي تعيد النظر في بنائي، وتكوين كلّ ذرّة في كياني، على قواعد الفنون الجميلة في الجنّة. ألا ترى أني قد أرهقت ملكوت الله عسراً في سبيل تجميل صوتي!!؟

فاضطرب العزّي محمود من الخجل، وخشي أن يكون المسمري جادّاً في أسلوب الدعابة، فقال:

غفرانك، اللّهم.. إن أخي الشهيد المسمري لم يجد من يظلمه في الجنّة، فتطوَّع لظلم نفسه.. مهلاً- يا أخي- إن عهدك بالظلم والظالمين قريب، وهذا التواضع الشديد، وإن كان لا يؤذيك، فإنه لَشَدّ ما يؤذيني.. أرجوك.. أرجوك استمرّ في إنشاد هذا الشعر بهذا الصوت الساحر؛ فإنك خليق بأن تلهمني، في هذه اللحظات، أن أملك قوّة شاعرية، نذرت لله أن أجعلها وقفاً لخدمة رسالتكم، أيّها الشهداء.

وبينما هما في هذا.. إذا برئيس الوفد، الشهيد عبد الوهاب نعمان الذي كان يتقدّم السرب بجواده ينقضّ هابطاً به نحو أرض الجنّة مشيراً إلى الجميع أن يتبعوه.. ولما دنا العزّي محمود من أرض الجنّة خُيِّل إليه أنها أرض معبَّدة بالزبرجد الأخضر المصقول، تتخلّلها نافورات باسقة.. ولمّا هبطوا إلى الأرض تبيَّن له أن تلك السفوح الزبرجدية إنما هي نباتات من الزهور والورود والرياحين تغلب عليها ألوان خضر من بعيد، أما من قريب فإنها ملوَّنة تلويناً فنّيّاً يخلب البصر، ويسكر العقل والذوق. وفي ثنايا هذه النباتات توجد أشجار مثمرة، بما لا عين رأت، من الثمار والفواكه.

كما توجد في هذه الأشجار عشاش ضخمة موشّاة بألوان مختلفة، تلمع وتنطفئ، وفي هذه الألوان كتابة شعرية قرأها، فإذا هي مقطوعات من الغزل على لسان الحوريات، يداعبن سكّان الجنّة، ويتغزّلن فيهم.

واقترب من إحدى هذه الشجرات، فإذا به يسمع صوتاً أخّاذاً جميلاً، هو صوت لإحدى الحوريات، واشتدّ عجبه حين أطلّت عليه حوريّة رائعة الجمال من إحدى نوافذ العشّ، وإذا العشّ نفسه ضرب من ضروب الثمار الفردوسية، ثمار تُقطَف كسائر الثمار، ولكنها لا تؤكل، وإنما تُعشَق عشقاً، لأنها ثمرة حيّة، في كلّ حبة منها حوريّة، تصبح ملكاً لمن يقطفها!.

وهمّت بالعزّي محمود غريزة آدم أن يمدّ يده لقطفها، وتذكَّر أن آدم مُنِع من أكل بعض شجرات الجنّة لئلا يُطرد منها، بيد أن العزّي يمنع من قطفها لئلّا يُحرم من العودة إلى وطنه!!

ولكن، ماذا في هذا...؟ إنه سيكون أسعد حظّاً لأنه سيبقى في الجنّة، غير أنه بدا واضحاً أن الغريزة التي جعلت آدم يفقد إرادته ليست مجرّد جوع إلى ما في الشجرة، بقدر ما هي اندفاع بقوّة الحياة وإرادتها، وإرادة وضع البذور لتكوين الجنس البشري، وهذه الإرادة نفسها هي التي ينبغي أن تمنع العزّي من قطف الثمرة؛ لأنها ستحول بينه وبين الاستمرار في الحياة.

وبينما هو في هذا إذ رأى لوحة بلّورية معلَّقة في جوّ تلك الحدائق مكتوباً فيها: (فردوس الشهيد جغمان).

وأقبل العزّي على الشهيد عبدالوهاب نعمان، فسأله عن ذلك، فقال نعمان:

ـ إن هذا الفردوس الذي تراه مَدّ البصر، والذي ترى فيه كلّ ما تراه من العجب هو نصيب شهيد واحد من شهدائنا، وكلّهم يملكون مثل هذا الفردوس.

وقد بدأنا بزيارة هذا الشهيد لأنه يُعَدّ من أوائل الشهداء الذين قُتِلوا صبراً، وهم غير الشهداء الذين كانوا يُقتَلون غيلةً، أو تسقط بيوتهم على رؤوسهم، ورؤوس نسائهم وأطفالهم، بدون ذنب ولا محاكمة، منذ فجر العهد العمادي العتيق.

ثم سار الشهيد عبدالوهاب نعمان ووراءه بقية الرفاق في طريق ممرَّد بالبلّور، تظلِّله ألوان لا تحصى من الورود والزهور وأشجار الفواكه: الفواكه التي تؤكَل، والفواكه التي تُعشَق، حتى وصلوا إلى قصر شامخ، حجارته من زبرجد أخضر شفّاف، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها.. واجهات القصر غرف للزوّار، وهي ذوات أبواب بلّورية عريضة، وأمامها نافورات في شكل طيور وورود وحوريّات تنفث الماء، وتنطلق منها الأنغام، فتذوب ـ شيئاً فشيئاً ـ من سحر الصوت الذي تطلقه، وتشعر أن هذه المياه الصاعدة إلى الهواء إنما هي ذوب تلك التماثيل.

وترجَّل الشهيد عبدالوهاب من فوق ظهر جواده، وسرعان ما أقبلت حوريات كالأقمار يرحِّبن بالضيوف، ويَقُدنهم إلى ممرّات، كلّ جدرانها وسقوفها وأرضيّتها مرايا ذات ألوان مختلفة، حتى وصلوا إلى غرفة الاستقبال، وفيها من ألوان الجمال والروعة والسحر ما لا عين

رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. واستقبلهم الشهيد العلامة جغمان، وقدّم لهم صنوفاً من الطعام والشراب، لم يستطع العزّي محمود أن يتناول منها شيئاً، وكان عذره مفهوماً عند الجميع، ولم يكن الشهيد عبدالوهاب في حاجة إلى أن يقدِّم أسماء جماعته؛ فقد كان الشهداء، جميعاً، تلقّوا نبأ هذه الزيارة الغريبة، بكلّ تفاصيلها وأهدافها وأسبابها. ويبدو أن في الجنّة من وسائل الاتّصال ما يجعل الأصدقاء جميعاً وكأنهم عائلة واحدة تسكن منزلاً واحدة، رغم أن بينهم مسافات شاسعة، عرضها السموات والأرض. إنهم يتحدّثون بواسطة أمواج فكرية وأمواج ضوئية وأمواج عاطفية كأمواج أجهزة الاستقبال في الحياة الدنيا، تنفتح لصاحبها بمجرَّد الإرادة، وتقفل، كذلك، بمجرّد الإرادة.

وكان من الواضح أن العزّي محمود يجب أن يبدأ الحديث، وقد ابتدأه فعلاً، فقال:

يبدو أننا أمام مشهد فريد، فهذا الشهيد جغمان أقدم شهيد، وهذا حميد آل الأحمر أحدث شهيد تقريباً، إذ لم يُقتَل أحد بعده، حتى الآن، غير والده الشيخ عبداللطيف راجح..

وقال الشهيد جغمان:

ومع ذلك، ورغم الفاصل الزمني الكبير بين مصرعي ومصرع الشهيد حميد، وهو فاصل قد يمتدّ زهاء نصف قرن، فإن الشهيد حميد، هذا الشاب الغضّ الطاهر إنما قُتِل في اليوم نفسه الذي قُتِلت فيه أنا.

قال الشهيد حميد:

وكيف لنا ـ يا أستاذنا الجليل ـ أن نفهم هذا الكلام؟

ـ الكلام واضح، لقد ذبحني الطاغية الكبير في أرض حاشد أو قريب منها، وقد رأى الطاغية أنه لم يتحرّك لمصرعي رجل من رجالات الشعب ولا قبيلة من قبائله، وأن أبناء الشعب تلقّوا خبر نهايتي كما تتلقّى السائمة خبر مصرع واحدة منهما، إنه موقف واحد: موقف الشعب، وموقف السائمة.

بل لقد يكون الأمر أسوأ من ذلك، فالسوائم تُذبَح لبلاهتها فقط، أما الآدميون، في بلادنا، فإنهم يُذبَحون لأنهم منافقون وأنانيون، ولأنهم بُلهٌ أيضاً ومجانين، لو أنكرت همدان، في ذلك الحين البعيد، مصرعي، بل لو سألت عن السبب، وطالبت ببيّنات الحكم وحيثياته وأدلّته لتوقّفت يد الجزّار عن الذبح، ولتَبيَّن للجزّار أنه لا يملك قطعاناً من الشياه، وإنما يحكم شعباً من الأحرار، ولو حدث ذلك ما قُتِل حميد ولا والده ولا عبد اللطيف ولا غيرهم. ألا ترون، بعد هذا، أن حميداً قُتِل يوم قُتِلت؟ إن الشعب، بسكوته عن قتل واحد من بنيه، إنما يعني، بموقفه هذا، أنه قد أقرّ مبدأ الإباحية للدماء، ومنح الحاكم حقّ الذبح لمن يشاء، ومتى يشاء؛ وهذا يعني ـ بالطبع ـ أن الشعب قد صبغ نفسه بصبغة الماشية، وتجنَّس بجنسيتها، ورضي أن يكون له مصير كمصيرها وبلاهة كبلاهتها، وأصبح لسان حال كلّ فرد من أبنائه يقول للحاكم الجزّار: إن لك الحقّ أن تذبحني متى شئت!

قال الشهيد حميد آل الأحمر:

عفواً، يا أستاذنا.. لقد كانت قبائلنا يوم لاقيت مصرعك مخدوعة بالحكم العمادي، وكانت تضعه موضع التقديس، ولم تكن تشكّ فيه أو فى نواياه، وقد حمّلتها فوق طاقتها؛ إذ طلبت منها أن ترتفع إلى مستواك من الفهم، في ذلك الوقت المبكِّر.

ـ أنا لم أحمّلها فوق طاقتها، وإنما ذكرت الواقع المرير، ونواميس التاريخ والاجتماع لا تفرِّق بين الجاهل والعالم. إن عقوبة الجهل لهذه الأمور هي الموت، وسُمّ الحيّة لا يفرّق بين من يعرف الحيّة ومن يجهلها، ومع ذلك فقد كان في بلادنا علماء الدين، وكان عندهم سلاح الدين، يستطيعون أن يشهروه في وجه الطغاة، ويضعوا حَدّاً لطغيانهم، منذ البداية.

ها أنت ذا من علماء البلاد الأفذاذ، جرّبت أن تتحرَّك فلقيت مصرعك.

ـ وماذا في هذا، ياحميد؟ لقد كان من الممكن أن ينتفع العلماء بدمي، وأن يستميتوا في إنكار هذا الحادث حتى لا يكون تكراره سهلاً على الظالمين، والويل لأمّة لا تجد إلّا رجلاً واحداً جريئاً في سبيل الحق.

إن الطاغية يغامر بحياته حينما يقتل إنساناً، لأنه يعرِّض نفسه للقصاص والثأر، بل يعرِّض عرشه وعائلته للدمار، فإذا كان لا يوجد في الشعب كلّه من يغامر بكلمة حقّ، ويقف في وجه الطغيان موقف الرجال الأحرار، فإن الطاغية ـ حينئذ ـ يصبح إلهاً، وتصبح شخصيته ـ حتى ولو كان

تافهاً أو مجنوناً ـ أرجح قيمةً وأهمّيّة من حياة الملايين كلّها. إن من أهمّ صفات الألوهية امتلاك الحياة والموت، والشعب الذي يعطي الحاكم حقّ الحياة والموت يحوِّل الحاكم إلى إله، دون أن يشعر؛ وهذه هي الحجّة التي استند إليها الطاغية في جداله مع نبيّ الله إبراهيم، إذ قال له إبراهيم {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ}، فَرَدّ عليه الطاغية المتألّه قائلاً: {أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}، وهو يعني ـ كما قال المفسّرون ـ أنه يعفو عن عدوّ من أعدائه فيحييه، ويعاقب عدوّاً آخر فيميته؛ فهو يملك حقّ الحياة وحقّ الموت.

قال حميد:

ولكن العماد لم يُعدِم إلا عدداً قليلاً، لا سيّما بعد إعدامك.

ورَدَّ جغمان:

ـ إن حقّ الحياة شيء مقدَّس، بل هو أقدس المقدّسات، فإذا تنازل الشعب لحاكمه عن هذا الحقّ، وسمح له أن يقتل إنساناً واحداً، فقد تنازل عن قدسيّة الحياة ذاتها لحاكمه، ويستوي في ذلك أن يُزهق الحاكم روحاً واحدة أو آلاف الأرواح، لأن قدسية الحياة تسقط بمجرَّد قتل الإنسان الواحد: {مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا}. إن العماد الذي قتلني بدون محاكمة قد سلب الشعب كلّه حقّ الحياة، في ذات الليلة التي قتلني فيها.. وإن هذا جوهر النكبة كلّها، فإن الشعب الذي تنازل للطاغية في تلك الليلة عن قدسيّة الحياة، تنازل له عن كل الحقوق التي هي دون الحياة، تنازل

عن أمواله وأعراضه وحرّيّته وكرامته وإرادته، وجعلها ملكاً لشخص واحد يتصرّف بها على هواه.

ومع ذلك، ما أظنّك تدري، ولا أظنّ أحداً يدري السرّ في إيقاف جرائم الإعدام في عهد العماد. لقد عجز الملايين عن الاحتفاظ بقدسيّة الحياة، وذلّوا، وجَبُنوا، واستطاعت امرأة واحدة أن تتفوّق على الشعب كلّه. أتدري من هي؟ إنها أمّ آل أبي دنيا، أولئك الرجال الثلاثة الذين أعدمهم الطاغية العماد، وثأرت لهم والدتهم بوفائها ودموعها وارتفاع صوت بكائها، حتى أرهقت أعصاب العماد، وأخزت وجهه في المجتمع، وأحرجت مركزه، وأعجزته عن الدفاع عن موقفه، وآخر وقفة من وقفاتها الباسلة أنها اعترضت موكبه الضخم، بعساكره وحرّاسه وحاشيته والسائرين في ركابه، فصاحت بأعلى صوتها:

«أريد أن أراه.. أريد أن أراه.. اسمحوا لي بمقابلته».

فلمّا سمع العماد صوتها، وعرف شخصيَّتها داخَلَه شيء من الأمل والفرح، وظنّ أنها قد تعبت من الثورة والثأر، وأنها جاءت لتقبض

ثمن أبنائها، وتبيع منه دماءهم، فأمر الحرّاس أن يخلّوا بينها وبينه، وأن يسمحوا لها بمقابلته، وتوقّف لها بعربته، وهو يحدِّث نفسه بالخلاص من إزعاجها، فاقتربت منه اقتراباً شديداً، وأزاحت بُرْقُعها عن وجهها، وأخذت تتأمّل صورته، وأطالت التأمُّل وهي صامتة، والموكب كلّه واقف واجم، حتى حارَ الحرّاس، وجزعوا، ثم صاحت بأعلى صوتها:

إن بصري قد ضَعُف، وأنا امرأة محجَّبة لا تعرف الرجال، وقد جئت بنفسي إلى قاتل أولادي لأعرف صورته جيّداً، وآخذ بخناقه يوم الحشر، وأحاكمه أمام الله.

قالت ذلك، ومرقت بين صفوف الحراس وبنادقهم وخناجرهم، وذُهِل الحاكم، قاتل أولادها، ثم ناداها بعد أن خرجت من بين الصفوف قائلاً:

ارجعي.. ارجعي.. سأعطيك ما تريدين.

قالت:

ـ ماذا أريد؟ أريد أولادي.. رُدّ إليّ أرواحهم.. أما المال فإنما يُشترى به العبيد. لقد اشتريت هؤلاء الرجال الذين من حولك، لكني امرأة من همدان، لن أبيع منك دمي.

كان صوتها جريئاً باسلاً، محزناً عالياً علوّ الحق، شامخاً شموخ الشرف، وقد رفَعَته متعمِّدة، حتى تفضح القاتل على رؤوس الأشهاد، وتذلّه بين عبيده، وما كاد العماد يواجه هذه الضربة حتى وضع يده على وجهه

من الخجل، وقيل ـ يومئذ ـ إنه بكى، وإنه انقطع بعدها أيّاماً في قصره، لا يبرحه، وأنه أقسم أن لا يقتل أحداً بعد مصرع آل أبي دنيا.

تلك هي امرأة، استطاعت ببسالتها وضعفها وشيخوختها أن تهزم طاغية وتذيقه الهوان، وتجعله يحسب ألف حساب لخطر القتل، فماذا فعلت معكم حاشد، يا حميد؟ إنني أنصحكم أن لا تستنجدوا بالرجال، فإن بعض رجال قبائلكم يبيعون أنفسهم وقبائلهم ورؤساءهم وعهودهم بالدراهم. اتركوا الرجال، وابحثوا عن امرأة واحدة مثل أم آل أبي دنيا.

وهنا، كان التأثّر قد بلغ بأعضاء الوفد مبلغه العميق، لا سيّما بالنسبة إلى الشهيد حميد، فقد قال:

واأسفاه! واخجلاه! أين قبيلتنا الضخمة الكبيرة التي يقال لها حاشد؟

ثم أعرض بوجهه مشمئزّاً، وقال:

دعونا من هذا الحديث الموجع، بالله عليكم..وأنت، يا أستاذنا الكبير، ألا تستطيع أن تكرمنا وتجمعنا بهذه المرأة العظيمة، الأمّ..أمّ الرجال من آل أبي دنيا؛ في هذه المرأة عزاء لنا عن كلّ الرجال.

ـ إنني أستطيع أن أجمعكم بها، وبأبنائها أيضاً، ثم أطرق قليلاً، وكان كأنما يحرِّك مؤشِّراً في مخّه إلى موجة روحية للإرسال، يبعث بها للدعوة إلى هذه الأمّ العظيمة وأبنائها، ثم رفع رأسه، وقال:

انتظر يا حميد، إنها ستحضر قريباً.. إن لكم في الجنّة ما تشتهيه

الأنفس، وتلذّ منه الأعين..

قال حميد الشهيد:

إن أَلذّ ما تشتهيه نفوسنا هو النضال الذي سمحت لنا السلطات، أخيراً، أن نمارسه في الجنّة. إننا نريد المزيد من الاتّصال بشهدائنا، وأن نبعث برسالتنا إلى الشعب.

قال الشهيد الموشكي:

أخبرنا ـ يا أستاذ جغمان ـ بالصراحة: هل كنت ـ حقّاً ـ تريد عودة الاستعمار التركي؟

ـ هذه إشاعة مختلَقة، قيلت عني كما قيل عنكم أنكم تريدون اختصار القرآن، وكما قيل عن حميد أنه يريد أن يطرد السادة الهاشميين. إن الذي يستطيع أن يقتل، يستطيع أن يكذب. فلو كانت هذه التهم صادقة، فلماذا يمتنع الحكّام عن محاكمتنا؟ ولماذا يطوون جريمتهم في الظلام؟

قال الضابط العراقي:

والعجيب في شعبكم هذا أنه ـ أحياناً ـ يتبرّع للطغاة بالكذب والإشاعات، بمجرّد أن يرى ضحيّة من ضحايا الإرهاب، دون أن ينتظر من الحكّام دليلاً أو بياناً. وبدلاً من أن يثأر للشهداء أو يسأل الحكام عن أسباب الإعدام يتقدّم هو نيابةً عن السفّاحين، فيصطنع

لهم المبرِّرات والأكاذيب.

قال الشهيد عبد الوهاب نعمان:

من العجيب ـ يا أستاذنا جغمان ـ أنك سبقت الشعب كلّه في فهمك لهذه الطغمة الحاكمة، فإننا، في الوقت الذي كنّا فيه نتسلَّل خلسةً من الجنوب، في ذبحان، إلى الغَفَلة، نخطب حكم هؤلاء، ونطالبهم بالتقدُّم إلينا، ونعرض عليهم أموالنا ومصائرنا. كنت أنت تتحدَّث، منذ ذلك الحين البعيد، بحذر وحرص، كنت تحذِّر الشعب، وتنذره بالمصير الوخيم.

ـ إنني عرفت العماد منذ نعومة أظفاره، وما كان لي أن أنخدع به من بعيد، وعرفت أنه يقود القبائل قيادةً عمياء، وأنه سوف يضلِّلها، ويخدعها، ويضرب بها بقيّة فئات الشعب، ثم يضرب بعض القبائل ببعض، وكنت أكرهه لأنه يريد أن يفرض علينا حكمه مدّعياً أنه خليفة الله، وأنا أعرف أن الله ما كان ليستخلف إنساناً كهذا. لقد أراد أن يرثنا وراثة، ولمّا لم تكن الوراثة وحدها كافية أرادها بالمبايعة، ولمّا وقف في وجهه العلّامة عبد الوهاب الشماحي وغيره من أذكياء العلماء، وطالبوا بشروط البيعة، تصدّى لهم ابن عمّ العماد، وامتشق الحسام، وأشار إليه، وقال: إذا نقصت الشروط فهذا السيف يستوفيها، وكنت أوجس منه خيفةً لأنه يحكمنا باسم المذهبية، وباسم السلالة والعرق، وباسم السماء، وهذا من شأنه أن يمزِّق الشعب، ويفرِّق شمله. إننا كنا نريد حاكماً يحكمنا، وهو كواحد منا، يشعر بفضل الشعب عليه

لأن الشعب وضعه في موضع القيادة، بإرادته واختياره، فهو يتفاهم مع الشعب، ويحرص على رضاه، أما إذا كان حاكماً يعتقد أن السماء تفضّلت به علينا، وأنه بركة من بركاتها، وأن حكمه مفروض علينا باسم الحقّ الإلهي، فإننا ـ حينئذ ـ لا نبايع حاكماً، وإنما نبايع وثناً يقرِّبنا ـ كما يزعم ـ إلى الله زلفى، فنرتدّ، دون أن ندري، إلى عهود الجاهلية الأولى.

وإذ كان الشهيد جغمان في هذا الصدد.. سكت، فجأةً، وقال:

لقد جاءت مدعوّتكم الأمّ العظيمة..

وما كاد يستتمّ خبره حتى أقبلت إحدى حوريّات القصر، وقال:

ـ تفضّلي...تفضّلي..

وأشرق وجه السيّدة الأمّ على الضيوف، فإذا هي شابّة جميلة كأجمل فتيات الحور العين، كأنما صيغت من اللؤلؤ والمرجان.

أقبلت على الضيوف جميعاً، وحَيَّتهم واحداً واحداً، وجلست إلى جوار صاحب القصر، فأخذ يداعبها قائلاً:

ألست أنت العجوز الشمطاء، الأمّ العظيمة؟ تكلَّمي، ربّما لا يصدِّق ذلك بعض الضيوف، فتضاحكت، ونظرت إليه نظرة عتاب، وقالت:

عجوز؟ ماذا تقول؟ أَتَشْتُم الجنّة؟ أفي الجنّة عجائز؟ ألا تتذكَّر أن الرسول (عليه الصلاة والسلام) قال: «الجنّة لا تدخلها عجوز»؟

ونسي العزّي محمود معنى الحديث، فتشكّل في أمرها، وظنّ أنها ليست الأمّ العظيمة، وأدركت، هي هذا المعنى في وجهه، فاستدركت قائلة:

إنني أمّ الشهداء الثلاثة حقّاً. ولكن، إيّاكم أن تدعوني عجوزاً!

قال العزّي محمود:

أين الشهداء الثلاثة؟

ـ إنهم قادمون فوراً.

قال لها حميد الشهيد:

أهلاً بأمّ الشهداء.

ـ فردّت عليه:

أهلاً بالشهيد ابن الشهيد.

ـ شهيد..نعم.. مع الفارق الكبير. لقد استشهدت لأني صاحب فكرة ودعوة، وورائي قبيلة ضخمة، غامرت بحياتي في سبيل رفع شأنها، ومع ذلك فقد كنتِ امرأة ووحيدة، واستطعت أن تثأري لأولادك، وأن تذلّي قاتلهم، وهو في عنفوان سلطانه وجبروته، أمّا أنا ففي قبيلتي بعض رجال، ذلّت، وهانت، واختبأت في بيوتها، وخذلتني، وغدرت بي، ثم خذلت والدي، وتركت الطاغية يذبحه، وهو كبير حاشد وموضع

الثقة عند معظم رؤسائها ومشايخها، ثم، لقد تطوَّع بعض أشرارها بهدم بيوتنا واقتلاع أشجار البنّ من أراضينا، وحدث ماهو أفظع من ذلك: لقد حبسوا نساءنا بعد قطع رؤوسنا، واعتقلوا كلّ من ظنّوا أن له صلة بنا، من أحرار حاشد، وما كادت الأمّ العظيمة تسمع العبارة الأخيرة حتى انتفضت كاللبؤة، وكادت أن تقوم من مكانها اشمئزازاً واستفظاعاً، وأخذت تردّد:

حبسوا النساء؟ نساء مشايخ حاشد؟ هدموا بيوت زعماء حاشد؟ أيحدث هذا بين قبائل العرب؟ هل تحوَّلت قبائلنا إلى شياه وأغنام؟ أكلُّ رجال حاشد غدروا بكم؟

ـ حاشد لم تكن غادرة، ولن تكون، وإنما يوجد فيها بعض المشايخ ممن محقتهم الفسولة والذلّة. ويوجد فيهم من باعوا (حاشد) بالدراهم الخسيسة، وارتضوا لأنفسهم الخزي والعار، ويوجد كثير من الرؤساء الأحرار، منهم المسجونون، ومنهم من هو خارج السجن، ولا نعتقد فيهم إلا الشرف والوفاء.

قالت أمّ الشهداء:

أي شرف، وأيّ وفاء، لمن يختبئون في بيوتهم؟

وقال الشهيد حميد:

إنني واثق بـ(حاشد)، ومؤمن بشرف الرجال، وأنا طيِّب النفس؛ لأني فديتهم برأسي وشبابي، وفديتهم بأبي، ولا أعتقد إلا أنهم سيكونون

أوفياء لشرف (حاشد) وشرف الشعب، ولا بدّ للظالم من يوم قريب.

ـ إن (أبو شوصا) مات كمداً، بعد أن سمع بقتل أبي، وهذا خير دليل على عمق النكبة التي يحسّ بها رجال حاشد.

قالت أمّ آل أبي دنيا:

إنك شاب طاهر، وفيّ لقبيلتك ولبلادك وشعبك، وأنا أمجِّد فيك هذه الروح، غير أني أنصحك: إذا استطعت الاتّصال بقبيلتك فلا تطلب نجدة الرجال ولا نصرتهم، ولا تحرجهم، ولا تُفزِع قلوبهم، فلعل الخوف قد أذلّهم، وشَلَّ قوّتهم.

ولكن، عليكم أن تستنجدوا بالنساء، فليصنعن مثل ما صنعت أنا. إنني خرجت بنفسي شاكيةً باكيةً، أتحدّى الظالمين بأعلى صوتي، وألاحقهم أينما ذهبوا، وأنا عجوز، ولم يكن بيدي سلاح، بل لم أكن أستطيع المشي إلا بصعوبة بالغة! ومع ذلك، استطعت ـ بدموعي، وبكلمة الحق ـ أن أهزّ عرش الطاغية، وأن أنغِّص عليه الحياة، وأمنعه من أن يقتل أحداً بعد أولادي، لقد حقنت دم الشعب مدّة طويلة، فاترك الرجال يا حميد، فقد ذهبت نخوتهم، وابحث عن النخوة في النساء، اترك الرجال في بيوتهم، وستخرج النساء بدلاً عنهم.

قال حميد:

ـ إنني متمسّك بحبي لـ(حاشد)، وإيماني بها. إن الغادرين الجبناء هم قلّة قليلة، أما الأكثرون فلا يزالون على عهدهم، ولو أنني أفقد كلّ

رجال حاشد فإن هناك القبيلة الشقيقة الكبرى بكيل، إنهم الأبطال الأوفياء الذين يمكن أن يموتوا عن آخرهم، دون أن يذلّوا أو يتراجعوا. إنهم آووني ونصروني من أجل شرف حاشد ووفاء العهود، هم مع زعماء حاشد، إنهم رجال.. إنهم رجال.

ـ لقد أمر الطغيان قبيلة منهم أن تهدم بيوت قائدها البطل الشيخ سنان أبو الحوم، فرفضت القبيلة ذلك، بإباء وشمم، وقبيلة خولان الباسلة صبرت، وصمدت، ورفضت أن تسلِّم رجالها، وهدّدها الحكّام فلم تخَفْ واستعدّت للدفاع عن نفسها، وكانت على استعداد أن تترك القرى، وتردم الآبار، وتصعد إلى الجبال، فتراجع الحكّام، وأمروا الجيش أن يتوقَّف. قالت الأمّ العظيمة:

ـ الحمد لله، لقد أثلجتم صدري بهذه الأخبار، وعرفت أنه لا يزال في بلادنا رجال، قالت ذلك، والتفتت إلى الباب فإذا الشبّان الثلاثة كالأقمار، فقالت الأمّ:

هاهم أولادي الشهداء، وقدَّمتهم واحداً واحداً.

قال الشهيد حميد:

حدِّثونا عن شعوركم في مأساتكم.

قال واحد منهم: إننا لا نسمّيها مأساة، إنها نعمة كبرى، إنها كشفت، لنا وللتاريخ، عظمة الأمّهات. إن هذه السيدة، وحدها، استطاعت أن تقف في وجه الطغيان، إن دموعها صنعت لنا مجداً، وأدخلتنا الجنّة،

وضربت للشعب مثلاً عالياً من البطولة، أمّا إعدامنا فإنها ساعات قليلة من الكرب، لا تلبث أن تنجلي.

قالت الأمّ العظيمة، وهي تتّجه إلى الشهيد جغمان:

والآن، ما المهمّة التي استُدعيتنا لأجلها، يا أستاذنا الكبير؟

ـ سيشرحها ولدنا الشهيد المسمري.

قال المسمري:

ـ الموضوع ـ يا أمّاه ـ يتلخّص في أننا نريد أن نساهم في إنقاذ بلادنا من الظالم المتوحِّش الذي قتلنا، والذي لا يزال يواصل القتل، لقد اضطرّ زملاؤنا الأحرار أن يبعثوا إلينا واحداً منهم ليضع قضية البلاد على بساط البحث مع كبار الشهداء، وأن يرجعوا ـ في الأخير ـ إلى أمير المؤمنين عليّ (كرَّمَ الله وجهه) وبعض كبار الرجال في الجنّة، والهدف الأكبر في هذه المحاولة أن يجتمع شمل الشعب، بجميع طوائفه وفئاته، على كلمة سواء.

قالت الأمّ العظيمة:

ولكن، هل كان إشراكنا ضرورياً، ألا يوجد في شعبنا رجال؟ ولنفترض أخلاق الرجال قد فسدت، أفلا يوجد نساء؟

قال العزّي محمود:

لسنا نحن الذين سنقوم بإنقاذ الشعب مباشرةً، بل إن الشعب- في الحقيقة- هو الذي سينقذ نفسه، والمشكلة أن الشعب كلّه ساخط ثائر قد بلغ مرحلة النضج الوطني غير أنه لم يكد يبلغ هذه المرحلة حتى أصيب بنكبة أخرى غير نكبة الطغيان، وهي نكبة الاتّجاهات المتضاربة المتطاحنة، وجذور هذه الاتّجاهات، مرجعها إلى عظمائنا وشهدائنا، فلعلّ الرجوع إليهم يؤدِّي إلى حلول يرضى عنها الجميع.

قالت الأمّ العظيمة:

هل يسمح لي الشهيد عبد الوهاب نعمان بأن أنضمّ إلى أعضاء وفده؟

قال الشهيد نعمان:

إننا نرحّب بأمّ الشهداء، فأهلاً وسهلاً، ثم التفت إلى بقية رفاقه، وقال: هيّا بنا.

وقبل أن ينهوا وداعهم قال لهم صاحب القصر: لا تنسوا أن تستدعوني إذا انعقد اجتماع عامّ، فأكّد له رئيس الوفد الموافقة على ذلك، ثم أسرع الجميع إلى جيادهم، فتواثبوا عليها في مرح، وانطلقوا في آفاق الفضاء، ووجدوا أنفسهم، بعد قليل، يحلِّقون على قصر عظيم، تمرق ذراه إلى أعالي الأفق، وتأمّله العزّي محمود فإذا هو يشبه أن يكون مبنيّاً من العقيق الأحمر، وترفّ على ذراه أحرف حمراء، مكتوب عليها

(غمدان). ورغم جمال المنظر وسحره وروعته فإن مجرَّد وقوع العين على كلمة غمدان كان حدثاً مفزعاً بالنسبة إلى العزّي محمود، فأقبل على الشهيد عبدالوهاب نعمان، وقال له:

- ما هذا، يا شيخ عبدالوهاب؟ ألا يفزعك هذا الاسم الرهيب؟

- ولماذا يفزعني؟ إنه يبعث مشاعر الفخار في نفسي.

- إن السجن شرف عظيم حقّاً. ولكن، لا حاجة إلى هذه الرموز المفزعة في الجنّة.

- لازلت تحمل أعراض (واق الواق) ورواسبها. إن هذا ليس سجناً، إنه قصر غمدان الشامخ الباذخ، أعيد بناؤه، في الجنّة، لسيف بن ذي يزن.

- وهل نستطيع أن نرى سيف بن ذي يزن، الآن؟

- هذا ممكن جدّاً، فلنهبط إليه.

وراعهم هذا القصر الهائل المبني كلّه من عقيق أحمر، وهبطوا، رأساً إلى ذروته العليا، حيث استقبلهم زعيم حِمْيَر استقبالاً حارّاً، ووجدوا عنده، بالصدفة، زوّاراً كباراً، يبدو أن بينهم صحبة وألفة، وهم: الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وعبدالمطلب بن هاشم، وأميّة بن أبي الصلت، وأسعد تبع، وصَفٌّ طويل من الحور العين، كأنه عقد من اللؤلؤ.

وبعد أن تصافح الجميع، وتعرَّف بعضهم إلى بعض، لم يستطع سيف بن ذي يزن ولا رفاقه أن يُخفوا دهشتهم من دخول روح آدمية إلى

الجنّة، قبل الموت، ومع ذلك فقد تلطّفوا بالعزّي محمود في السؤال والترحاب معاً، وكأنهم يريدون أن يعرفوا سبب وقوع هذا الحادث الغريب.

قال العزّي محمود، وهو يوجّه الكلام إلى سيف بن ذي يزن مبتدراً؛ حتى يرفع الكلفة بالدعابة، ويخفّف من حرج الأسئلة المتطلِّعة إليه:

إنني جئت إلى هنا لمعاينة قصر غمدان.

ـ وماذا يعنيك من هذه المعاينة؟

ـ أتدرون ماذا يعني اسم هذا القصر عندنا؟ إنه يعني السجن!

ـ وماذا تعني كلمة السجن؟ إنني لا أفهمها!

قال العزي:

ـ السجن معناه أن تُطرَد من كلّ ملكوت الله، في سماء أو أرض، وتوضع في مكان ضيِّق، يشبه القبر، وأنت لا زلت على قيد الحياة.

قال الخليفة عثمان:

ولكنّ هذا القصر لم يعد له وجود في بلدكم؛ لأن عاملاً من عمّالي هدمه خطأً؛ ولهذا تراني عند سيف بن ذي يزن، أتردّد إليه كثيراً، بعد أن جئت إليهـ أوَّل مَرّةـ أعتذر إليه عن صنيع عاملي، وقد أولعت بهذا

القصر وصاحبه.

قال العزي: إن الهدم كان خطأً جسيماً، ولا شَكّ، وكان في لحظة من لحظات الحماس الأهوج، ولكن الأفظع من ذلك أن تتحوّل قاعدة القصر إلى سجون وكهوف رهيبة، وأن يذهل الحكّام، وتنحطّ مشاعرهم وآدميّتهم، فلم يستطيعوا أن يتذكَّروا مجداً، ولا أن يروا عبرة، وإنما تتلمّس أيديهم ـ كالعميان ـ تراباً وحجارة في أصول هذا القصر، فلا يجدون فرقاً بينها وبين القيود، ولقد جعلوا منه سجوناً تُعَدّ مقبرة للأحياء، وتمرّ على الحكّام العشرات والعشرات من السنين، فلا يخجلون من التاريخ، ولا ينظرون إلى الهوّة الشاسعة التي تفصل بين آدميّتهم وآدمية الذين بنوا هذا القصر، منذ قرون بعيدة.

قال سيف بن ذي يزن:

أَوَكلّ هذا قد حدث في البلد؟ إنني أنا في حاجة إلى عزاء طويل!

قال العزّي محمود:

ـ إن البلاد ليست في حاجة إلى العزاء، بل إلى الدواء والشفاء.

ـ الدواء؟ وما هو؟

ـ بأيديكم أنتم؟

ـ من تقصد؟

ـ أنت، مثلاً، وعثمان بن عفان، وعبدالمطلب بن هاشم، وغيركم كثير من كبار رجالات الجنّة.

ـ كيف يكون بأيدينا الدواء؟ وأيّ منطق في هذا الكلام؟

ـ إننا خلفاؤكم في أرضنا، ورثنا أعراقكم ودماءكم وأدواءكم ومشاكلكم وخلافاتكم وأخطاءكم وصوابكم، لقد انحدرت إلينا حياتكم كلّها عبر الأجيال، وتطوّرت في كلّ عصر، وأُضيف إليها رواسب كلّ جيل مرّت به، ولم تصل إلينا إلا بعد أن بلغ العسر والتعقيد فيها مبلغاً، لابدّ لنا معه من مناقشة الممثِّلين الرئيسيين لكلّ تيّارات الأجيال، منذ حضارتنا الأولى حتى اليوم.

قال عبد المطلب بن هاشم:

ـ وأنا، ماذا يعنيني من هذا كلّه؟ وما دخلي فيه؟ إنني رجل مسالم، ولا أميل إلى الصراع، وليس أَدلّ على ذلك من أنني تركت الكعبة لحماية ربّها، وبحثت عن إبلي، وقلت للغزاة: «أنا ربّ إبلي، وللكعبة ربّ يحميها». كذلك كنت وأنا في الدنيا، فكيف تطمعون أن أعلن الحرب على مزاجي المسالم، وأنا في دار السلام؟ كلّا يا أبنائي، كلّا.

ـ ولكن، أنت تمثِّل فئة ضخمة من شعبنا، لهم دور في تقرير مصيرنا، كبير.

ـ أنا لا أمثِّل شيئاً ولا أحداً، دعوني وسجيّتي وفلسفتي، لقد أعفاني القدر من تكاليف الشريعة وأعبائها ومشكلاتها، وترك لي فطرتي

وضميري، أدخل بهما الجنّة في سلام، اذهبوا إن شئتم إلى أحفادي: عليّ، والحسين، وزيد، أمّا أنا فدعوني مع رفاقي ننعم بصحبتنا.

قال الخليفة عثمان:

- أنا رأيي من رأي عبدالمطلب، وسجيّتي من سجيّته، فدعوني، بالله عليكم.

- قال العزّي محمود: إنك تختلف عن عبدالمطلب اختلافاً شديداً، فإن الفتنة الكبرى نشأت من أيّام حكمك، وما زلنا نعاني منها الأمَرّين.

- إن الفتنة الكبرى نشأت بسبب التناقض الشديد بين سجيّتي وبين طبيعة الحكم، إن الذين بايعوني لم تكن عندهم البصيرة النيّرة، فلم يعرفوني، ولم يدركوا هذا السرّ. والحقيقة أنه حتى أنا لم أستطع أن أعرف نفسي، ولم أتصوّر ماذا يحدث من التفاعل بين طبيعتي وطبيعة الحكم، لقد كانت تلك تجربة جديدة عليّ، بل كانت ولادة أخرى، وُلِدتها من جديد، وتناولت الخلافة، تتقمّصني روح طفولة، تغلب عليها السذاجة والطيبة والبراءة، وما كدت أمارس الحكم حتى أسلمت مقاليده إلى رهطي وأقاربي من بني أميّة، ومن هنا، نشأت الفتنة.

ثم أجال بصره إلى أعضاء الوفد، وفي عينيه ابتسامة بريئة مضيئة، وأردف قائلاً:

أتريدون أن تتقاضوني فتنة أخرى هنا؟ كلّا، يا أبنائي، إن شئتم نقاشاً، فاذهبوا إلى بني أميّة.

قال الشيخ عبدالوهاب نعمان:

وأنت، يا أبانا، يا ابن ذي يزن، لقد عشت حياتك مناضلاً، فهل تصيبك الصحبة بالعدوى؟

ـ أما أنا، فرأيي مختلف عن رفاقي، مع احترامي لحقّ الصحبة، وأنا أشعر بأني لا زلت مسؤولاً عن شعبي وعن بلدي، ألا ترون أن قصري بُنِي على غرار قصر غمدان؟ ولو تجوّلتم في حدائق فردوسي لرأيتم فيها سدوداً وجبالاً وعيوناً صغيرة، وسيولاً وشلالات تنحدر من القمم، ولرأيتم مجموعة ضخمة من أجيال شعبي وقبائله ممن دخلوا الجنّة، قد أقمت معهم نظاماً للحياة، يشبه نظام أجدادنا من مَعين وقتبان وسبأ وحِمْيَر، لقد كان لهم مجالس للقبائل ومجلس نيابي وإدارات ومنظّمات شتّى. إنني أقمت كوناً له نظائر هنا، في فراديسنا. وجنّة الآخرة ليست ـ في رأي حِمْير ـ إلا استمراراً متطوّراً لجنّتنا في سبأ، ألم تسمعوا القرآن الكريم الذي يقول:{لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ}؟

إن (حِمْيَر) كانت تؤمن بالجنّة، ولكنها تعتقد أن جنّة الآخرة لابدّ أن تسبقها جنّة في الدنيا، تكون لها بمثابة البذرة، فمن لا يضع البذرة في الدنيا لا يحصل على الجنّة في الآخرة، ولعلكم تسمعون الحديث المأثور القائل: «الدنيا مزرعة الآخرة»، والقرآن الكريم يؤيّدنا من ناحية أخرى، فيقول: {وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى

وَأَضَلُّ سَبِيلاً}.

ذلك جانب من فلسفة الحضارات المعينية، والسبأية، والحميرية، والقتبانية، وقد استطاعت هذه الفلسفة أن تصنع من بلادنا جنّة العرب، فلمّا خلفتنا، في بلادنا، فلسفة الخراب والدمار انقلب الحال، كما تعرفون.

كان عبدالمطلب بن هاشم يستمع إلى سيف بن ذي يزن في غير امتعاض ولا اكتراث، وكان وجهه سمحاً منيراً، أمّا الخليفة عثمان فكان ـ على العكس ـ حسّاساً للموضوع، وما كاد يسمع فلسفة الخراب حتى تحرَّك في جلسته، واستدار، ثم قاطع المتحدِّث قائلاً:

أنا أجلّ سيفاً من أن يقصد التعريض بي في هذه الغمزات. وعلى كل حال، فإني غير مسؤول عن خراب غمدان، إن المسؤول هو عاملي، اجتهد فأخطأ، كان يظنّ أن الإسلام يهدم ما قبله، حتى الحضارة والعمران، وهذا جهل بمغزى رسالتنا. إن الإسلام لم يهدم حتى القيم الروحية التي سبقته إلا ما كان منها مدمِّراً للروح وللحياة، وإلا ما كان منها ماسّاً بقدسية العقل. إنني أعيذ بنفسي من أن يكون لي مزاج هدّام. إن بني أميّة الذين بنوا عروشهم من وحي دمي، هم بناة الحضارة الأندلسية، وبناة الحمراء: معجزة الدهر.

ـ معذرةً أيّها الخليفة العظيم، إنني لم أقصد التعريض بك، وإنما أقصد ما حَلَّ ببلادي من فتنة الصراع بين اليهودية والمسيحية وما رافق هذه الفتنة من روح التدمير، ما نتج عنها من التآمر بين الرومان والأحباش،

وما أعقبه من الاستعمار الحبشي. لقد انحلّت مقوّماتنا الحضارية بسبب تلك الفتنة المشئومة، وذهل شعبي عن بناء أرضه وعمرانه، وهندستهما، وأصبح شغله الشاغل تقليد اليهود والمسيحيين والرومان والفرس حتى في أساليب الطغيان، فإن جريمة حريق الأخدود إنما كانت من وحي الرومان وتقليداً لنيرون، بالذات، ذلك الطاغية الذي بطش بالمسيحيين، وأحرق روما.

وهنا، تكلَّم الضابط العراقي ج.ج، فقال:

ليسمح لي سيف، عاهل العرب، بأن أبدي ملاحظة على الموضوع، قد تكون حسّاسة بالنسبة إليه: إنك تنكر التقليد على شعبك، وتنكر تشاغله عن بناء حضارته بالاتّجاه إلى الرومان والفرس، ولكنك تنسى مسؤوليّتك الكبرى بأنك استقدمت الفرس إلى بلادك، وسمَّمت روح الشعب بالاتّكالية، وتركت فيه عقدة الاعتماد على الآخرين في حلّ مشاكله. وقد رأيت آثار هذه العقدة بنفسك عام 48، فقد كان الثوار يسيطرون على البلد سيطرة تامّة، ولكنهم كانوا يشعرون شعوراً غريباً بأن الجامعة العربية يجب أن تحضر إلى عاصمة الثورة، ولو لمجرَّد الضيافة، بل كانوا يصرّون على أن يشترك في حكومة الثورة وزراء من دول الجامعة، وقد ألحّوا عليّ ـ بصفتي عراقياً ـ أن أختار بنفسي أيّة وزارة، أو أكون قائداً عامّاً للجيش، أو شيئاً أكثر من ذلك، كما ألحّوا على الأستاذ الجزائري (ف.ر) الإلحاح نفسه، وكان هذا الأمر عندهم شيئاً طبيعياً.

وقد لوحظ على شهداء الثورة أنهم يتململون من تعرُّض الضابط العراقي لذكر الجامعة العربية، وحشرها في صلب نظريته، ونقده لابن ذي يزن، وبدا على ملامحهم أنهم يتسابقون على الردّ. وأخيراً، أشاروا للمسمري أن يتكلَّم عنهم جميعاً، فقال:

يحزّ في نفسي أن أسمع هذه العبارات من شهيدنا الضابط العراقي الذي غامر بحياته، واشترك في ثورتنا وفي قيادة هذه الثورة، ودفع دمه ثمناً لعقيدته وشعوره بأن الأمّة العربية أمّة واحدة. إنه حينما فعل ذلك لم يفعله من أجل بلدنا الصغير، ولا من أجل العراق، بل من أجل العرب جميعاً، وقد كان اشتراكه مع السيد (ف) الجزائري في هذه الثورة سبقاً عملياً رائعاً إلى وضع حجر الأساس للقومية العربية، ووحدة النضال والمصير.

إن ثورتنا ـ يا سيّدي الضابط ـ بالإلحاح عليكم بالمشاركة، وبالإلحاح على الجامعة العربية كي تساهم في تقرير مصير بلدنا، إنما كانت مدفوعة بالروح القومية لا بالروح التي استعانت بالفرس. والخلط بين الأمرين خطير.

وفي لحظة واحدة اندفع كلّ من سيف بن ذي يزن والضابط العراقي إلى الكلام: فأمّا سيف فقد كان يريد التعقيب على الضابط وعلى المسمري معاً، وأمّا الضابط العراقي فقد كان يريد أن يستتمّ كلامه، ويوضِّح ملاحظته التي أثارت زملاءه الشهداء. وأخيراً، أسرع الضابط العراقي فقال:

أرجو من سيف، عاهل العرب، أن يسمح لي باستتمام نظريتي والاستدراك عليها، ثم له، بعد ذلك، أن يعقِّب على كلامي وعلى الآخرين، إن شاء.

قال سيف: تفضّل.

فقال الضابط الشهيد:

الحقيقة أن كلامي فيه شيء من الخلط، أو مايشبه الخلط، وهذا ناشئ من أن الموقف نفسه كان مزيجاً من عناصر مختلفة، فاختلط على الثوّار أمرهم، وكانت تصرّفاتهم نابعة من هذا الميراث الخليط، ولا شكّ في أن العقدة اليزنية كان لها تأثير بالغ على موقفهم، وهي التي حملتهم على العجز عن التفريق بين فكرة الوحدة العربية كوجود أصيل وكعقيدة وهدف، وبين واقع التجزئة الأثيمة التي يحرسها سلطان القانون الدولي الأعمى ويحميها، وهو القانون الذي لا يسمح لدولة عربية أن تتدخَّل في شؤون دولة عربية أخرى.

قال المسمري:

ولكن ثورتنا كانت حكومة تمثِّل شعباً، وقد طلبت من الجامعة أن تتدخَّل في إرساء قواعد جديدة لدولة حديثة دستورية، يشترك العرب فيها بإرادة الشعب، وهذا لا يُعدّ تدخُّلاً في شؤون دولة أخرى، إنما هو استجابة لدولة شقيقة طلبت المعونة.

قال الضابط العراقي:

إن العقدة اليزنية جعلتكم تشعرون بالعجز، منذ التحرُّكات الأولى للثورة، وحملتكم على إغفال حقيقة دولية مهمّة. وصحيح أن أيّة حكومة تستطيع أن تطلب مساعدة أيّة حكومة أخرى، لا سيّما إذا كانت حكومة شقيقة أو مؤسّسة دولية، كالجامعة العربية، غير أن الحقيقة الدولية المهمّة التي أغفلها الثوار، وذهلوا عن ملاحظتها كانت واضحة في أمرين اثنين:

الأمر الأوّل أنها كانت حكومة ثورة تمارس إجراءات داخلية عنيفة، وكانت أوضاعها غامضة على العالم، فليس في استطاعة دولة حديثة أن تغامر بمساعدة هذه الحكومة الثائرة، ومصيرها مجهول، إلا إذا رضيت أن تجازف باحتمال متاعب دولية ومخاطرات، وهذا أمر لا تُقدِم عليه إلا حكومة في مستوى حكومتكم: تحرُّراً، وثورةً، وإيماناً بالوحدة العربية، وهذا هو الشي نفسه الذي فعلته الجمهورية العربية المتّحدة، بقيادة قائد العروبة الحبيب الرئيس جمال عبدالناصر مع ثورة 14 تموز في العراق، حين جازفت بمصيرها كلّه دفاعاً عن ثورة العراق، فأحلامكم في صنعاء سبقت وجود هذا الحدث، ووجود مثل هذه الدولة العربية المثالية والبطل العربي المثالي، بعشر سنوات، فتصرُّفاتكم كانت غير واقعية بالنسبة إلى تلك الظروف، وكانت سابقة لأوانها.

الأمر الثاني: أن الجامعة العربية- يومئذ- كانت تمثِّل دولاً عربية، كلّها ضدّ ثورتكم وضدّ مبادئها وضدّ الوحدة العربية، وحتى لو طلبتم الاندماج في إحدى تلك الدول لرفضت، ومن جهة أخرى، لم تكن

لأيّة دولة عربية ـ يومئذ ـ أيّة قدرة على مساعدتكم، فقد كانت كلّها، تقريباً، باستثناء سوريا ولبنان، خاضعة للاستعمار: إما خضوعاً سافراً، أو حضوعاً مقنعاً؛ فهي، من جهة، لا تريد مساعدتكم، ومن جهة أخرى لا تستطيع ذلك لو أرادت، وكانت نتيجة هذه الاستحالة المركَّبة أن انقلب الموقف عليكم إلى عكس النهاية التي كنتم تبتغونها: فمن ناحية، انسجمت إرادة الاستعمار وإرادة الدول العربية الخاضعة له، والتقت المصلحتان التقاءً تامّاً في ضرورة القضاء عليكم، ومن ناحية أخرى اتّحدت الدول العربية كلّها ضدّكم اتّحاداً، لو اتَّحدت مثله ضدّ إسرائيل، لانتصرت عليها، كما صرَّح بذلك أحد زعماء لبنان.

وأحبّ أن أكرِّر نصيحتي وأنصح الشعب بأن يفرِّق بين فكرة القومية العربية: وجوداً وعقيدةً وهدفاً، وبين مقتضيات العمل الثوري الذي يحدث في بلد ما، وفي ظلّ تجزئة، تحرسها دول كبرى، بل وأن يفرق بين الفكرة القومية من حيث هي فكرة ونظرية وبين الثورة القومية من حيث هي عمل وتطبيق، إذ إن هذه الثورة ـ بوصفها عملاً يتّسم بالمخاطرة، ويتّسم بالعنف أحياناً ـ يجب أن توزّع أعباء مراحلها بين مختلف الأقطار، بمعنى أن كلّ قطر يجب أن يتحمّل كلّ أعباء الانتقال من ظروف التجزئة ومشكلاتها وتعقيداتها إلى الظرف الوحدوي.

إن واقع التجزئة يفرض أن تقوم الثورة في ظل هذا الواقع، وليس من المنطق أن تقوم ثورة محلّيّة، وهي تعتمد، في لحظاتها الأولى، على وحدة، هي ـ بالنسبة إليها ـ لم توجد بعد. إن في هذا إساءة إلى الثورة المحلّيّة وإلى الوحدة معاً، وهو إغفال ساذج لكلّ القوى والعوامل

الدولية، إنه ضرب من الاتّكالية متستّرٍ وراء الحماس للقومية العربية، ولا نستطيع إلا أن نتذكّر العقدة اليزنية، ونتذكّر مسؤوليّاتها الخطيرة في هذا الصدد.

كان حديث الضابط العراقي طويلاً غير أنه كان توضيحاً لابدّ منه، وقد تجلّى نوع من الضجر والقلق على سيف بن ذي يزن، لا سيّما حينما تشعَّب الحديث إلى موضوعات، يفصل بينها وبين هذا العاهل زهاء أربعة عشر قرناً، فكانت غير مفهومة تماماً بالنسبة إليه، فلمّا أنهى الضابط العراقي ملاحظته قال سيف بن ذي يزن:

يؤسفني أن يتناول الناس تاريخ عصري على هذا النحو، وأن يفرضوا علينا وعلى تاريخنا منطق عصورهم المتأخّرة، ومنطق مبادئهم، ومستواهم في التطوّر الحضاري. إننا كنّا نعيش في عصر الإباحية الدولية، فكلّ دولة تملك قوّة أكبر من جاراتها، لا يمنعها مانع من التهامها.

لم يكن هناك رأي دولي عامّ، إنما قد يوجد تحالف بين دولة ودولة، فإذا تحالفت دولتان ضدّ دولة واحدة، أو تآمرتا ضدّها، تعيَّنَ على هذه الدولة أن تبحث عن دولة أخرى حليفة لها، ومن الغباء البالغ أن تُعَيَّر هذه الدولة بأنها تحالفت مع دولة أخرى لمقاومة خصومها المتحالفين. والذي يقوله الناس ويتسامعون به إنما هو غزو الأحباش لوطننا، ولا يذكرون أن الأحباش كانوا متحالفين ومتعاونين مع الرومان ضدّنا، باسم المسيحية. وصحيح أن الرومان لم يبعثوا جيشاً جرّاراً مع الأحباش،

لكنهم كانوا متحالفين معهم ضدّنا، وكان مقدَّراً أن يمدّوا الأحباش بالعون عند الحاجة، وقد أمدّوهم معنوياً، فالأحباش لم يحاربونا، ولم يغزونا وحدهم، إنما حاربونا بهيبة الدولة الكبرى في العالم، يومئذ، وبنفوذها، وهي دولة الرومان، فكان من الطبيعي أن نبحث لنا عن دولة حليفة تقاوم، بهيبتها المعنوية، هيبة الرومان. والفرس لم يساعدونا، في الواقع، إلا مساعدة رمزية، قصدنا باستقدامها هيبتها المعنوية،لا قوّتها العسكرية الفعلية، فلم يكن معي يوم حرَّرت بلادي إلا فلول هزيلة من سجناء الدولة الفارسية.

إننا نحن الذين حرَّرنا وطننا، ولنا شرف هذا التحرير، وكان العرب جميعاً يفخرون بما صنعناه، ولم يكن هناك، في عصرنا، من ينتقص من قيمة انتصارنا بمثل هذا الهراء الذي تسمّونه عقدة يزنية، وتفرضون على مواقفنا منطق ظروفكم ومصطلحاتكم في القرن العشرين.

وتلفَّتَ سيف بن ذي يزن إلى الناحية التي كان يجلس فيها كلّ من عبدالمطلب، وأميّة بن أبي الصلت، وكأنه كان يريد أن يستشهد بهما، ويسألهما رأيهما في انتصاره وتحرُّر بلاده، وقيمة هذا الانتصار عند العرب في ذلك الحين، فقد كان عبدالمطلب رئيساً للوفد العربي الذي قدم إلى غمدان لتهنئة سيف، يومئذ، وكان أميّة بن أبي الصلت عضواً في الوفد.

ولكن سيفاً أدهشه أنه لا يرى عبدالمطلب ولا أميّة، ولا أسعد ولا أمّ الشهداء كأنما ابتعلتهم حيطان غمدان، أو امتصّهم عقيقها الأحمر،

ليزيد إلى حمرته جمالاً وحياة، فلم يبق لهذا القصر، من أسباب الروعة، إلا أن يتحوّل إلى كائن حَيّ يحمل سحر الحياة وفتنتها.

وقام صاحب القصر يبحث في أبهائه ومقاصيره عن الجماعة، ليعرف أين ذهبوا، وداخله القلق، وعاد إلى وفد الشهداء، ووجهه متعمّر، وهو يقول:

ـ هذا لا يليق، هذا لا يليق، كيف يخرج الضيوف من قصري بهذه الصورة الخفيّة المريبة، دون وداع أو تحيّة؟

وأطرق قليلاً، وعلى وجهه آثار الدهشة مزيجةً بظلال من الابتسام، وكان كمن ينصت إلى مكالمات تليفونية مثيرة، أو يصغي إلى وَحْي بعيد، وقد أثارت ملامحه اهتمام وفد الشهداء، وسألوه بعد أن آبت ملامحه ونظراته إليهم، فقال:

لقد حدث شيء عجيب.. مشكلات معقَّدة مضحكة مثيرة، خلال هذه اللحظات القصيرة التي مرَّت بنا. إن هذه الأمّ الباسلة الفاتنة أوشكت ـ بفتنتها وجمالها الآدمي الحَيّ، وسمعتها وبطولتها ـ أن تُحْدِث فتنة، ولعلّكم تتَّفقون معي على أنها امرأة آسرة فاتنة، وأن عيون الرجال التي تقع عليها، وتلوب حولها كالفراش، قلّما ترجع إلى قواعدها سالمة.

وقاطعه العزّي محمود متسائلاً:

ـ هل هي متزوِّجة؟

ـ ألا تعرف أنها كانت أمّاً؟ ومع ذلك، وبعد أن التقت بزوجها في الجنّة رفضت أن تقترن به، وأقسمت أن لاتتزوَّج أحداً حتى ينهار عرش قاتل أولادها وعرش خليفته من بعده، وحتى تطّلع عليهم جميعاً، يلاقون جزاءهم في الجحيم، ولمّا يئس زوجها، أقسم مثلها أن لا يتزوّج إلا بعد سقوط عرش الطغيان، وهو يصمّم على أن يتزوّجها، ولكن، ما يدريه أنها تتزوّج بغيره، وأنها ـ بوحي كراهيتها للطغيان ـ قد تختار بطلاً من الشهداء غير زوجها الذي لا تراه يرتفع إلى مستوى شهيد! واستطرد سيف يقول:

وعندما عرف زوجها (أو زوجها، سابقاً، على الأصحّ) ما يدور في خلد الضيوف الأربعة أصدقائي فزع إلى محكمة الحبّ في الجنّة، واستدعاهم إلى هناك مع زوجته.

وحدث شيء أعجب من ذلك: كلّ الشهداء من صحبنا تسامعوا بالنبأ، وتطلَّعوا إلى الاقتران بهذه السيدة الرائعة، اللهمّ إلا البعض منهم، وأذكر منهم الشهيد علي بن عبدالله الوزير الذي عُرِف عنه أنه ينتظر زوجته، وأنه لن يتزوّج سواها، وأنه يباهي ويفاخر الشهداء بأن زوجته هذه من بكيل، من آل أبي راس، وأن هذه الزوجة المخلصة لا تقلّ عن أمّ آل أبي الدنيا وفاءً وشجاعةً وإخلاصاً، وأنها، وحدها، بقلبها الأبيّ الوفي، لا تزال تقف في وجه القتلة، وتتحدّاهم وتذلّهم، وترفض رشوتهم رغم أن الكثيرين خذلوها في وقفتها هذه. إن هذه الزوجة فُجِعت بذبح زوجها الشهيد علي بن عبدالله الوزير، وأخويها الشهيدين: محمد بن حسن أبو راس، وعبدالله بن حسن أبوراس، عام 1948، وبعد ذلك

قُتِل أخوها الشهيد قاسم بن حسني أبو راس مسموماً، في إبريل، عام 1959م. وكان والدها قد مات في سجن الطغاة عام 1940م، ولا عجب أن تتحوَّل إلى شبح مرعب للسفاحين، ولا عجب أن يفخر بها زوجها، وينسى- بذكراها- كلّ ألمه، وكلّ خيبة حلَّت به.

ولعلّنا كدنا ننسى موضوع الساعة، فلنعد إليه.

ولقد حضر زوج أمّ آل أبي دنيا إلى محكمة الحبّ في الجنّة، وأحضر- على الفور- ضيوفي الذين كانوا هنا مع أمّ الشهداء، وما كادوا يستقرّون في قاعة المحكمة حتى انكشف للزوج المدّعي أن معظم الشهداء، يفكِّر كلّ منهم في الاقتران بأمّ أولاده الشهداء، فطالب السلطات بإحضارهم جميعاً.

ومحكمة الحبّ هذه تنعقد- عادةً- برئاسة أسماء بنت أبي بكر، ذات النطاقين، وعضوية كلّ من: رابعة العدوية، وليلى العامرية، وغزالة، زوجة شبيب الخارجي الثائر.

وأنا أتوقّع أن هذه المحاكمة ستُحدث ضجّة هائلة في الجنّة، ضجّة لذيذة، لكنها مثيرة ومعقَّدة، فإن المحكمة ستضطرّ إلى الدخول في قضايا مترابطة، طريفة غاية الطرافة. منها، مثلاً:

هل شريعة الله السائدة في الحياة الدنيا تُطَبَّق في الجنّة، أم أن للجنّة شريعتها الخاصّة، أم أنه ليس في الجنّة شريعة ما وأن أهل الجنّة أحرار طلقاء، كالطيور والنسائم والزهور المتلاقحة من غصن إلى غصن؟

هل يجوز لأسعد تبّع، وقد يكون الجدّ الأعلى لأمّ الشهداء، أن يتزوّج بها لأنه من آباء همدان الحِمْيَرية؟ هل يتحتّم على الزوجة، في الدنيا، أن تكون مرتبطة بزوجها حين يجتمعان في الجنّة، أم أن الزوجات المؤمنات لهنّ الحقّ كالرجال، في أن يكون لهنّ أزواج متعدِّدون بلا نهاية، ولهن الحقّ، كذلك، أن يرفضن الاقتران بأزواجهنّ في الدنيا؟

وإذا كان من حقّ أمّ آل أبي الدنيا أن تتزّوج بغير زوجها، فمن هو الشهيد البطل، من شهداء بلادها، الذي سوف يقع اختيارها عليه؟

واستطرد سيف بن ذي يزن قائلاً: وأنا أتوقّع أنه وراء هذه الطرائف ـ أيضاً ـ أن يعلن بعض الشهداء طلاق زوجاتهم اللاتي غدرن بأزواجهن المقتولين، وأكلن من دمائهم، وبِعْن رؤوسهم بيعاً خسيساً رخيصاً، وأصبحن من أذناب السفّاحين، يخدمنهم، وينافقن لهم، ويدعين لهم بطول البقاء، وهم قتلة أزواجهن.

كان سيف بن ذي يزن يتحدّث في النقطة الأخيرة، الطريفة المثيرة، ووفد الشهداء يتململون؛ لهفةً إلى حضور المحكمة. وما كاد سيف يتوقّف عن الحديث حتى هبّ الجميع قياماً، متَّجهين إلى حضور هذه المحاكمة العجيبة.

حديقة واسعة الأرجاء، من الزهور المنسَّقة ذات الألوان الفنّيّة الفاتنة، كلّ مقاعدها ومكاتبها وقاعاتها قطعة فنّيّة واحدة، منسوجة من الزهور. وقد ظلَّلتها قبّة هائلة من الزهور ذات الألوان السماوية الزرقاء، تتخلَّلها زهور بيضاء تشبه النجوم، وهي تتحرَّك- أحياناً- لتسلِّط أضواءها السحرية على بعض الشخصيات التي يتَّجه إليها الاهتمام، وقد اندمجت، وسط نسيج الزهور السماوية الذي يكوِّن سقف القبّة، طيور من كلّ شكل ولون، كأنها إضافات فنّيّة تتمِّم سحر الزهور، وقد حضرت هذه الطيور، كما حضر الجمهور المتفرِّج، لتشهد محاكمات الحبّ، فهي، في الجنّة، معدودة من المخلوقات الواعية الناطقة، لا سيّما في شؤون العلاقات الجنسية، وأنها تفخر على الآدميين بأن الله أطلق سراح قلوبها من قيود الشرائع والأديان لتتخيَّر ما تشاء من ألوان الحبّ المقدَّس، ليس في الجنّة فحسب، بل في الدنيا، أيضاً.

وظهرت في المكان الرئيسي من منصّة المحكمة أسماء ذات النطاقين، وعلى يمينها رابعة العدوية، وغزالة الخارجية، وعن يسارها ليلى العامرية.

وفي المقاعد المخصَّصة لأصحاب الدعاوى والشكاوى، ظهر زوج أم آل أبي الدنيا وإلى جانبه كبار الشخصيات من الشهداء والصدّيقين، الذين يرغبون في الاقتران بالأم العظيمة، وظهرت هذه السيدة منفردة وحدها، في مكان فريد، وخلف هؤلاء جميعاً صفوف كثيرة من مقاعد جماهير الجنّة الذين حضروا ليستمتعوا بشهود هذه المحاكمة.

ودوّت جنبات المحكمة بأنشودة من أنغام الطيور الساحرة الأخّاذة، ودوّى صوت آخر من المنصّة هو صوت (أسماء) ذات النطاقين:

باسم الله الذي جعل الحبّ قوام الحياة وسرّ النظام والترابط في الكون، نفتتح المحكمة.

ثم قالت: أين المدّعي؟، فظهر الزوج السابق للأمّ العظيمة وقال:

ها أنا ذا.

ـ اشرح لنا دعواك.

أعلن إلى المحكمة الموقَّرة، قبل كلّ شيء، أنني أفخر بأنني كنت في الحياة الدنيا زوجاً لهذه الأمّ العظيمة، أمّ الشهداء الثلاثة من أبنائي، وأفخر، كذلك، لأنها بلغت من السؤدد والمنزلة الكريمة، بحيث يتطلّع،

للاقتران بها، عظماء الشهداء والصدّيقين، كما أعلن، من أعماق قلبي، أني لا أكنّ أيّ حقد أو ضغينة على هؤلاء الذين ينافسونني على زوجتي السابقة، فنحن، في الجنّة، كلّنا أخوة وأحبّاء، وكلّ ما هنالك هو المنافسة الشريفة المشروعة على الزواج بها، فأنا أقول: إني أحقّ بها من الناس جميعاً، لأني كنت زوجها في الحياة الدنيا، ولم يحدث ـ عدا الموت ـ ما يفصل بيني وبينها.

أحد الشهداء:

إن لها منزلة عظمى، لا تدانيها منزلتك، واقترانك بها يخلق مشكلة التوفيق بين منزلتين مختلفتين.

الزوج السابق:

أيلاحقنا إلى الجنّة نظام الطبقات؟

الشهيد:

الجنّة دار العدل، وليس من العدل أن يستوي، في الجزاء، مَنْ قَدَّم عنقه للذبح في سبيل الله، ومن مات على فراش وثير.

الزوج السابق:

ولكنها لم تُذبَح، فتبلغَ مرتبة الشهداء.

الشهيد:

ـ لقد ذُبِح أولادها الثلاثة، ومن تفقد أولادها بهذه الطريقة البشعة، وتثأر لهم، وتحتفظ بقدسيّة الوفاء، فإنها لاتقلّ ألماً واحتمالاً عن الذي يقدِّم عنقه للذبح، بل إن حنانها على أولادها جعلها كأنها ذُبِحت ثلاث مرات، وقد عرضت نفسها للذبح مرّةً رابعة، بمواجهة الحاكم القاتل.

الزوج السابق:

ولكن، ماذا يقول الفقهاء في هذا؟ إنني أحتكم إلى آرائهم.

وظهر بين جماهير المتفرِّجين فقيه شهير من رجال الفقه، هو العلّامة ابن مفتاح، شارح «متن الأزهار في الفقه الزيدي»، فنهض من مجلسه وقال:

أنا شخصياً أرشِّح نفسي للزواج منها.

الزوج السابق يضحك، ثم يشير بإصبعه إلى ابن مفتاح قائلاً:

حتى في الجنّة يحكمنا هؤلاء الفقهاء، باسم مذهب زيد، أليسوا هم الذين آزروا بعض الأئمّة الظالمين؟

ـ من قال لك إنني زيدي، حتى في الجنّة؟

ويظهر بين الجماهير شخص آخر، وينهض من مجلسه، ويقول:

وأنا فقيه آخر، اسمي سليمان بن فتح بن مفتاح، ولكني من فقهاء

الشافعية، ومن رجال الملكة الحرّة السيدة بنت أحمد الصليحية، ومن رأيي أنني حُرّ في أن أتزوّج أمّ الشهداء، إذا هي وافقت.

صوت من بين الجماهير يقول:

ما هذا السخف المذهبي؟ إن الحبّ فنّ إلهي، لايحسن فهمه الفقهاء المتذهِّبون المتعصِّبون.

أصوات أخرى تردِّد، وتهتف:

لا شافعية، ولا زيدية. أنقذوا المحكمة من هذا الإسفاف، أخرجوا هؤلاء الفقهاء.. واستحيا الفقيهان من السخف الذي بدا على موقفهما الرجعي، ومن الاحتقار الذي أحاط بهما، فخرجا من القاعة!

صوت آخر:

الرأي للمحكمة.. إننا ننتظر أن تصدر فتواها على الفور، وإننا نربأ بالجنّة أن يكون فيها معضلات الروتين المعقَّد البطيء.

عندئذ، تتحرّك رئيسة المحكمة نحو زميلاتها، ويتداولن الرأي، والجميع منصتون، ثم تقبل، بعد ذلك، على الجمهور، وتعلن القرار التالي:

ـ إن الشرائع السماوية كلّها، بما فيها شريعة الإسلام، ليست، في حقيقة الأمر، إلا نظاماً للناس في حياتهم الأولى، أمّا الآخرة فليست إلا دار جزاء، والجزاء إنما هو أجر لعمل مضى، ولو أجزنا استمرار التكليف

لكان معنى هذا أن الله يجزينا على العمل بالاستمرار في العمل نفسه، وهذا يتنافى مع الحكمة والعدل، ويترتَّب على ذلك أن نحتمل كلّ أعباء الشريعة وتكاليفها وواجباتها ومشقّاتها، وهذه نتيجة تناقض وجود الجنّة من أساسها، وسيكون علينا ـ حينئذ، لو أجزنا هذا الافتراض ـ أن نحزم أمتعتنا لنغادر الجنّة إلى مكّة، فنؤدي فريضة الحجّ، وأن نعلن التعبئة العامّة للجهاد، ونقيم معسكرات للتدريب على الجندية والفدائية، بل أن نرتفع إلى مستوى أرقى الدول، فنجري التجارب الذرّيّة في الجنّة، لئلّا نكون أقلّ من أعدائنا قوّةً وبطشاً، وعلينا، بعد ذلك، أن نتطوّع فنخرج من الجنّة إلى الحياة الدنيا مرَّةً أخرى، لنطهِّرها من الفساد والطغيان والاستعمار. وهكذا، تتسلسل التبعات التشريعية، وتترابط، وتنغمس في كلّ معارك الدنيا ومعضلاتها، والنتيجة أننا ـ باسم المبادئ الوطنية والدينية ـ سنحوِّل الجنّة إلى جحيم.

لذلك، قرّرت المحكمة أنه ليس هناك حلّ وسط، فلا يمكن الالتزام ببعض جوانب الشريعة دون بعض؛ لأن التكليف قد سقط عنا تماماً، ونحن قد تحوّلنا في دارنا هذه تحوُّلاً تامّاً إلى ما يشبه الطيور المتحرِّرة المنطلقة الهائمة، تصنع الحياة السامية، وتمارسها ـ تلقائياً ـ في آمادها البعيدة، دون قيود أو حدود، وأحبّ أن أذكِّركم ـ أيّها السعداء والشهداء ـ بأنه لايوجد في دار الخلد إلا شيء واحد مقدَّس، هو الحياة، أما العبادة الوحيدة التي نؤدّيها فهي أن نعيش هذه الحياة بكلّ ما في طاقاتنا من حبّ وظمأ وانطلاق.

وعلى ذلك، فنحن نعلن ـ فيما يتعلّق بهذه القضية التي نحن بصددها ـ

أن السيدة الأمّ العظيمة حرّة في أن تتزوّج من تشاء، وكيف تشاء، وأن تتزوَّج آحاداً أو مئاتٍ أو ألوفاً، وليس هناك شيء يحدِّد مشيئتها إلا مشيئتها.

فباسم الحرّيّة الخالدة في جنّة الخلد، أدعو السيدة أمّ آل أبي الدنيا أن تمارس حقّها في الاختيار لمن تشاء من الأزواج.

وهنا، قامت الأمّ العظيمة من مجلسها، فخورةً معتزّة، وقالت:

إنني أكرِّر ما أعلنته أمام الجميع بأنني لن أتزوَّج بأحد، حتى ينتهي في بلادي عهد الفساد والطغيان، وأن يذهب أقطاب ذلك العرش المتعفِّن، جميعاً، إلى الجحيم.

قالت ليلى العامرية:

يمكنك أن لا تقترني بأحد، وأن تعيشي عذراء مع الحبّ، كما سبق لي أن عشت حياتي الأولى، ولكن، من الخير أن تصارحينا، وتعيِّني خطيبك المختار حتى يستريح الآخرون من هموم التطلُّع، وأن تدَعي خطيبك وحده ينتظر.

وهنا، تطلع من قاعة الزهور وجوه كالأقمار لشهداء المذابح الوشّاحية، كلّهم ينتظرون أن يقع اختيار الأمّ العظيمة على أحدهم.

وقامت أمّ آل أبي الدنيا، بوجهها المشرق الخلّاب، تفحص الوجوه، وتتعرّف إلى كلّ وجه، وتتذكَّر ما وراءه من مواقف وأمجاد. وبعد تأمُّل

طويل واستعراض مثير، هَمَّت بأن تشير بإصبعها إلى خطيبها المختار، فهاجت أصوات عديدة تتسابق إلى لفت نظرها.

صوت شهيد:

تذكّري- أيّتها السيدة- أني نُكِبت، بعد مصرعي في حجة، بأن زوجتي أصبحت من أذناب الجلّاد الذي قتلني، وأنها تدعو له بطول البقاء، وقد طلَّقتها، وأدعو الله أن يرسلها إلى الجحيم، وأنا، الآن، أعدّ نفسي أرملاً في الجنّة...

صوت شهيد آخر:

وأنا الآخر طلَّقت زوجتي، لأنها تتناول قيمة دمي معاشاً من الجزّار الذي ذبحني، ولأنها- حرصاً على المعاش الرخيص الخسيس- أصبحت تلقِّن أولادي مبادىء الذلّة والعبودية والخضوع المطلق لقاتلي، بدلاً من أن تذكِّرهم بمصرعي، وتلقّنهم مبادىء الشجاعة والتضحية، ليكونوا في طليعة الأحرار المناضلين.

صوت شهيد:

أمّا أنا فإني أعلن الإعجاب المطلق بزوجتي، فقد ظلّت وفيّة لدمي ولأهدافي ولمبادئي، ولكني أبرأ من أولادي، فقد غدروا بدم الأب، وعقّوا شهامة الأمّ، وانحرفوا عن أهداف الشعب، فأنا أكرِّر البراءة منهم، ولو كان يُشَرَّع الطلاق للأولاد لطلَّقتهم ألف طلقة.

صوت شهيد:

كفى.. كفى! إن الدخول في الأمور الفردية سيضيّع علينا الوقت، وأنا أقترح أن تُصدر المحكمة حكماً عامّاً في هذا الشأن.

رئيسة المحكمة، أسماء بنت أبي بكر، تستجيب لهذا الاقتراح فوراً، وبعد مشاورة سريعة مع غزالة الخارجية أعلنت:

كلّ امرأة لا تلتزم الوفاء لمبادىء زوجها، ولقدسية الدم الذي بذله، وجاد به، هي امرأة مطلَّقة، وتُحرَم من ريح الجنّة. وكلّ امرأة تدعو لقاتل زوجها بطول البقاء، أو تنتظم في سلك الأذناب، أو تفكِّر في مصلحة نفسها ومعاشها وتأخذ ثمن دمه، أو تجبن عن الشكوى والتظلُّم، أو تربّي أولاد شهيدها الفقيد على خيانة أبيهم، وتشجّعهم على أن يكونوا أنذالاً، يأكلون من لحم والدهم، ويشربون مع الجزّارين من دمه، فهي امرأة فاجرة خائنة، لا مكان لها في الجنّة، ولا في الشرف، ولا في الوطنية؛ ذلك هو قرار المحكمة، وفيه الكفاية.

ثم استطردت (أسماء) ذات النطاقين، وقالت:

إنني أفخر بأن ابني، عبدالله بن الزبير، جاء إليّ ذات مرّة، وهو في عنفوان المعركة مع جنود الطاغية الحجّاج، فقال لي: يا أمّاه، ما رأيك أن بني أميّة يطالبونني بالهدنة والمصالحة، ويعطونني الأمان إذا سلّمت الأمر لهم، فغضبت من كلامه هذا، وعجبت له، وهو البطل الشجاع، وخشيت أن تكون قد ألمَّت به رذيلة الحرص على الحياة،

حينما بدأ يذوق مرارة الموت، ثم قلت له: يا بنيّ، إن كنت قاتلت بني أميّة من أجل نفسك، فوالله، لقد هلكت وأهلكت من معك، وخسرت الدنيا والآخرة، وإن كنت إنّما قاتلتهم في سبيل الحقّ، فلازال الحقّ قائماً، فاذهب للقتال إلى النهاية، ولاتعطِ رأسك الأبيّ الكريم لغلمان بني أميّة، يتلاعبون به، ويساومونك عليه، وإنني سألت الله أن يمنحني مزيداً من أيّام العمر حتى أشهد مصرعك، وأطمئنّ إلى أنك متّ شريفاً كريماً، وما إن سمع ابني عبدالله كلامي هذا حتى تهلَّل، واستبشر، وقال:

يا أمّاه، اطمئنّي، فوالله، ما كان في عزمي إلا أن أموت، ولكني أشفقت على قلبك الرقيق وسنّك وضعفك، أمّا وأنت هذه الأمّ، فأذهب إلى الموت كما يذهب الظمآن إلى الماء العذب.

قالت ذات النطاقين:

وكنت ـ يومئذ ـ قد تجاوزت الثمانين من عمري، وذهب بصري، ولمّا أقبل ابني عبدالله يودِّعني ويعانقني لمست أنه يلبس الدرع، فقلت له: ليس هذا ـ ياعبدالله ـ شأن من يطلب الموت. اخلع عنك هذا الدرع، واذهب إلى لقاء ربّك مسرعاً، فقال لي عبدالله: والله، يا أمّاه، ما لبست هذا الدرع إلا حرصاً على زيادة النَّيْل من الأعداء، وها أنا ذا أخلعه طوعاً لأمرك، ثم ودّعني ومضى، ولمّا رأيته مصلوباً سخرت من الحَجّاج وطغيانه وجنوده، وقلت لهم ـ وأنا أشير إلى ابني المصلوب المعلق ـ: أما آن لهذا الفارس أن يترجَّل؟، فاستحيا الحَجّاج وأمرَ

بدفن الفارس.

ثم قالت أسماء: إنني لا أفخر بنفسي، فلا مزيد لأحد من الفخر بعد الوصول إلى الجنّة، وإنما ذكرت هذه القصّة للعبرة والقدوة، فلا زالت أمّتنا في حاجة إلى مثل عليا. وكانت أمّ آل أبي الدنيا تستمع إلى رئيسة المحكمة، وهي واقفة، مأخوذة بسحر حديثها وروعته، فلمّا انتهت إلى عبارتها الأخيرة هزّتها كلمة المثل العليا، فأشارت تستأذن المحكمة في إعلان اختيارها لخطيبها، وما كادت المحكمة تأذن لها حتى أسرعت، وقالت:

أمّا إذا كانت أمّتنا في حاجة إلى مثل عليا من الشجاعة والشهامة والإقدام، فإنني ـ وأنا مطمئنّة راضية فخورة ـ أعلن اختيار هذا البطل...

وأشارت بيدها إلى أحد الشهداء، فدارت آلاف الرؤوس من الشهداء والمتفرِّجين إلى هذا البطل الذي وقع اختيارها عليه، والذي نهض واقفاً متهلّلاً فخوراً، وقال:

لعلّكم ـ ربَّما ـ تفاجَأون، وتعجبون من أنها اختارتني أنا، حيث لم تعرفوني في حياتكم الدنيا إلا مشرّداً أو سجيناً، تنصبّ لعنات الطاغية وأذنابه على رأسي، لكنني عشت حياتي كلّها شريفاً حرّاً أبيّاً: لم أساوم، ولم أضعف، ولم أسلِّم رأسي إلى يد الطغاة، يتلاعبون به، وفضَّلت أن أموت في المعركة.

أصوات: من أنت؟ من أنت؟ أَعْلن اسمك.

ـ أنا علي ناصر القردعي.

وهنا، دوّت القاعة بالتصفيق، وتلتها أنشودة من أنغام الطيور.

كان وفد الاستقبال في مقدِّمة الذين حضروا لشهود هذه المحكمة، ولمّا بلغت نهايتها كان من الطَبيعي أن ينضمّ الشهيد علي ناصر القردعي إلى أعضاء الوفد، إلى جانب خطيبته، وقد خرج هؤلاء الأعضاء جميعاً، بمن فيهم العضو الجديد، يرتادون مواطن الأخيار والشهداء، وبينما هم يتجوّلون في الحدائق التابعة للمحكمة إذ تبعهم جماعة من الناس، وأسرعوا إلى تحيّة الشهيد علي ناصر القردعي، وإلى تهنئته هو وخطيبته، وكان الجميع، يعرف بعضهم بعضاً، إلا العزّي محمود، فبادر الشهيد الموشكي، وقدّم رجلاً بارزاً في هذه الجماعة إلى الضيف قائلاً:

ـ هذا الإمام الهادي يحيى بن الحسين، وهؤلاء جماعة من أبطال (خولان) في عصر الهادي.

فرحَّب بهم العزي، وحيّاهم، ثم قال:

ألا يمكن أن نجلس قليلاً هنا، في هذه الحديقة؟ فوافق الجميع على هذا الاقتراح وجلسوا هناك، على سندس أخضر من أرض الحديقة، وبدأ الكلامَ كبيرُ (خولان)، فقال:

لقد كان اليوم لقاءً سعيداً، وكنا نبحث عنه، وإنها فرصة عظمى أن يجري هذا اللقاء بحضور الضيف الذي نرجو أن ينقل أحاديثنا إلى شعبنا.

والحقيقة أننا كنّا في نقاش طويل مع الأخ الهادي يحيى بن الحسين، وكنا نتمنّى أن يعرف الشعب نقاشنا هذا، ويتعرّف إلى آرائنا. ولعلّ العزّي يقرأ التاريخ، ويعرف أن خولان، قبل ألف سنة، بعثت بجماعة من شيوخها (ونحن هذه الجماعة) إلى جبل الرس في الحجاز، ليساهموا ـ أوّلاً ـ في إيواء المشرَّدين من العلويين، وثانياً للمبالغة في العطف عليهم ليرشِّحوا واحداً منهم إماماً يستقدمونه إلى بلادنا ليقود كلمة الشعب إلى الحقّ والعدل، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويجمع كلمة الشعب على الأخوّة والعدالة والمساواة وتطبيق شريعة الله، وأن ينفِّذ المبدأ العظيم الذي آمنّا به، وهو مبدأ الخروج عن الظالمين، ومبدأ المبايعة لمن يختاره علماء الشعب وأهل الحلّ والعقد فيه، وقد اختارت خولان هذا الإمام؛ لأنه يجمع شروط الإمامة، بحقّ وجدارة.

وهنا، لم يستطع الشهيد حميد صبراً على الاستماع حتى نهاية الكلام، فقاطع المتكلِّم قائلاً:

ـ إذاً، أنتمـ يارجال (خولان)ـ المسؤولون؟

فتكهرب جوّ الجلسة على الفور، وأسرع الإمام الهادي لتطليف الموقف، وقال:

بل أنا المسؤول وحدي، يا ابني. إن خولان قبيلة مؤمنة صالحة أبيّة تكره الظلم، وقد ساءها تمزُّق البلاد في ذلك الحين وقيام الحكّام الظالمين الفاسدين، وكانت تحبّ آل البيت، كما كانت حاشد وبكيل، حبّاً شديداً، وكانت تعرف المبادئ السياسية والدينية التي أدين لله بها، فاختارتني لقيادة الشعب، وبايعتني لأنهاـ كسائر أبناء الشعبـ تؤمن بأن الأمّة العربية واحدة، بل تؤمن بوحدة العالم الإسلامي كلّه، ولم تكن روح الأمّةـ يومئذـ تفرّق بين أن يكون الحاكم من خولان أو من ذبحان أو من دمشق أو مصر أو بغداد أو حتى تطوان، وأظنّ أن هذه هي الروح التي تسود عصركم الذي استشهدتما فيه، أنت وأبوك.

قال حميد:

ـ نعم، ولكن، أتدريـ يا أبتاهـ ماذا فعل بعض بنيك؟

الإمام الهادي:

ـ ومن هم بنيَّ هؤلاء؟

حميد:

الذين يسمّون أنفسهم أمراء المؤمنين، ولم تكن في قلوبهم ذرّة من

الإيمان.

الإمام الهادي:

من صَلُح فهو مني، ومن خَبُثَ فهو من الشيطان...

حميد:

فمن هم أبناؤك؟

الإمام الهادي:

أبنائي هم الشعب كلّه، إنني لا أخلق عنصرية منفصلة عن الشعب.. إنني أريد الشعب كلّه أسرةً واحدة، لا فضل فيها لفرد على فرد إلا بالتقوى. إنني أرى فيك أنت، وفي بطولتك واستشهادك ومحاولتك الخروج على الظالمين، ابناً من أبرّ أبنائي، فنحن ـ آل البيت ـ لسنا أسراً قيصرية ولا كسروية، إننا مبادئ شريفة سامية، إن رسالتنا تجاوزت مرحلة السلالة والعشيرة، بل تجاوزت مرحلة الروابط القبلية والروابط القومية، وبلغت من النضج والتسامي إلى الإيمان برابطة عالمية: «أيّها الناس، كلّكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى»، فالأغبياء الذين يثيرون العصبية لسلالة بيت واحد يهبطون بنا من ذروة العالمية والقومية والقبلية، ويرتدّون بنا إلى مرحلة العشيرة.

ثم استدرك الإمام الهادي قائلاً:

ولكن، حذارِ من الخطأ في الفهم، فإنني إذا كنت لا أرضى لنفسي أن أتعصّب للظالمين الطغاة من قرابتي، فأنا لا أرى أنه من الجائز أن يتعصّب أحد، فيخلط بين الصالحين والطالحين من أبنائي.

وهنا ظنّ حميد أنه يعرِّض به، فأسرع إلى الردّ قائلاً:

ـ أَوَ قد انطلى عليك أنت ـ أيّها الإمام العظيم ـ ما أشاعه السفّاحون ضدّي من إشاعات؟

لقد قالوا عني إنني ناديت بطرد الهاشميين من البلاد، وهذا بهتان مبين لفَّقوه عني، بما كتبوا من رسائل باسمي، بل ـ ربَّما ـ زيَّفوا خطّي، فإن أساس دعوتي هو التعاون بين جميع فئات الشعب وقبائله، من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، وأنا لا أعدّ الهاشميين إلا جزءاً أصيلاً من أبناء الشعب، لو نازعتني الدنيا كلّها عليهم لقاتلت في سبيل الاحتفاظ بهم، كما أقاتل من ينازعني على جزء من أرض بلادي، وأعدّ هذا وذاك غاصباً معتدياً أثيماً، إنني ناديت وأنادي بالقضاء على الظلم والظالمين، من أيّة أسرة ومن أيّة قبيلة، حتى من أسرتي أو من من قبيلتي..

ثم اتَّجه حميد الشهيد إلى العزي، وقال له:

إنني أرجوك أن تنشر هذا للشعب حتى يعرف جليّة الأمر.

قال العزي:

اطمئنّ، إنني سوف أفعل، وسوف أكون، لرسالتك ولدمك الزكي، وفيّاً. إنني أرى أن دمك الذي سال على الأرض إنما هو دمي، وإذا كان بعض رجال قبيلتك قد خذلوك فإننا سنبرهن لهم أنهم ليسوا بقبائل، إنما هم بيّاعون للعهود والذمم، إنهم يبيعون إخوانهم، ويبيعون رؤساءهم، ويخربون بيوتهن بأيديهم وأيدي المجرمين الظالمين.

واستطرد العزي: وإني أعجب جدّاً ممن يشيعون عن الأحرار بأنهم يعملون ضدّ الهاشميين، فمن هم الأحرار إذا لم يكن الهاشميون، في جميع أطوار الحركة، من رجالها العاملين المناضلين؟ من هم الأحرار، لو أسقطنا من قادتهم رجال الحركة عام 48؟ ماهي الثورة الفكرية للأحرار لو أسقطنا أقطابها وأئمّتها الأوائل، كالشهيد المسموم عبدالوهاب الوريث، والشهيد المذبوح أحمد المطاع؟ ومن هم الأحرار في المهاجر، لو أسقطنا الأبطال الهاشميين منهم، سواء في الوطن أو في المهجر، خصوصاً في بورت سودان ونيروبي وغيرهما؟ كيف يستقيم هذا المنطق للناس لولا الجهل وفقدان الاتّزان؟

قال الإمام الهادي:

اسمحوا لي أن أسألكم عن كلمة تتردَّد على ألسنتكم، وترمز إلى شيء كبير، لعلّي لا أحسن فهمه تماماً: ماذا تعنون بكلمة الأحرار؟

قال العزي:

الأحرار عبارة تقال، في اللغة، ضدّ العبيد، وهذا ما لا نظنّ الإمام

الهادي يجهله، وأصل استعمالنا لهذه الكلمة ينبثق من هذا المعنى، غير أننا قد تعارفنا على أن تُضاف، إلى المعنى الأصلي، معانٍ أخرى تدعمه وتفسّره، وتحقِّق له وجوداً وتطبيقاً على نطاق منظّم واسع، فإن الأحرار هم الجماعة الذين يرفضون أن يكونوا عبيداً، أو يسلكون مسلك العبيد، فيتمرَّدون على الظالمين، ويعارضونهم، وينتقدونهم، ويأمرونهم، بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، يفعلون ذلك بالألسنة والأقلام، وبواسطة التنظيم والتجمُّع للقوى الشريفة، في كلّ طبقات الشعب وفئاته، فإن لم يجد هذا فإنه يوجد فيهم- أحياناً- من يستخدمون العنف عند الضرورة القصوى وعلى مسؤوليّتهم الخاصّة الفردية.

وحينما كان العزّي يشرح هذه الكلمة كان وجه الإمام الهادي يبدو مبتسماً مندهشاً فرحاً مسروراً، وقد عَقَّبَ على ذلك، فقال:

- إنها لبشرى بالغة الأهمّيّة في نظري: إنك قد وضعت يدي على أعظم كنز من كنوز المجد، أفخر به وأعتزّ، إنني أعدّ هؤلاء الأحرار خلفائي الحقيقيين، وهم حَمَلة رسالتي، وإن كنت أنا- في الحقيقة- قد ذهبت إلى أبعد مما ذهبوا إليه. أتدرون إلى أيّة غاية ذهبت في تطبيق مبدأ الخروج على الظالمين؟ أنني قرَّرت (وهذا ما سيندهش له رجال السياسة والفكر في عصركم)، في صلب مبادئي الأساسية، أن الإمام الجائر حدّه القتل.

واندهش العزّي وهو يستمع إلى هذا التصريح الخطير، فقال معقِّباً:

أمّا أنا فإني أعترف بأن هذا الكلام لم أطَّلع عليه، ولم يكن يخطر في بالي، وأعتقد أن عصركم كان، في بعض جوانب الحياة، أكثر تحرُّراً وانطلاقاً من عصرنا، فإن عصرنا، لِما تربَّض على صدره من مخلَّفات المدنيات المعقّدة، لايحتمل مثل هذه الآراء الثورية المتطرِّفة، وقد يوجد من يطبِّقون هذه النظرية تطبيقاً تآمرياً سرّيّاً، ولكن، لايوجد من يعلنونها مبدأً عامّاً متداولاً بين الناس.

قال الشهيد علي ناصر القردعي يستفتي الإمام الهادي:

ما رأيك- يا أمير المؤمنين الأحرار- في المبدأ الذي يُعَدّ من أصول مذهبك، وهو مبدأ الخروج على الظالمين؟ هل يمكن تطبيقه إذا كان الظالمون يعدّون أنفسهم من سلالتك؟

وما كاد الشهيد ينطق بهذه العبارة حتى غضب الإمام الهادي غضباً عاصفاً، وكاد يقوم من مجلسه، ولكنه تماسك، وقال بصوت يبدو عليه الانفعال:

سلالتي... سلالتي...! وهل لي، أو لغيري سلالة تتميَّز بشريعة خاصّة بها؟ وهل أنزل الله على محمد (عليه الصلاة والسلام) شريعتين اثنتين: شريعة لسلالته، وشريعة لأمّته؟ إن مثل هذا الكلام لا يقوله الملحدون ولا الوثنيون ولا المجانين. إنني قرَّرت مبدأ الخروج على الظالمين، ولم أكن أقصد به خديعة التاريخ أو غشّ الأمّة، فأطبّقه على بني أميّة، فإذا جاء أحد من أهلي، وبَزَّ بني أميّة في الطغيان تراجعت عن مبدئي، واستثنيته. إنني كنت مخلصاً في هذا المبدأ، وأنا مستعدّ- لو خرجت

إلى الدنيا ـ أن أطبّقه حتى على فلذة كبدي. إن رسول الله (عليه الصلاة والسلام) يقول: «والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها».

فأشرق وجه القردعي، ولم يقل شيئاً، غير أنه راح يردِّد، بصوت منخفض، يغمره الفرح: الحمدلله... الحمدلله..

وقد فهمت أمّ آل أبي الدنيا المغزى من هذا السؤال ومن هذا الجواب، فراحت تصافح خطيبها، وتهنِّئه.

وفي هذه اللحظة، قام الشهيد حميد آل الأحمر، ومعه كبير خولان، فأخذ بيد الشهيد ناصر القردعي، وانفرد الثلاثة يتحدّثون حديثاً خاصّاً، وبعد قليل، عادوا جميعاً إلى الجماعة بوجوه أكثر إشراقاً وارتياحاً.

وجلس شهيد حاشد حميد، وجلس بعده كبير خولان، والقردعي كبير مراد، وقال حميد للحاضرين:

لقد كان بين مراد وخولان مشكلة معقّدة؛ ذلك أن الشهيد البطل القردعي قُتِل في أرض خولان، قتله بعض جنود الطغيان وأذنابهم الدخلاء على خولان، وخولان بريئة منهم، ولكن هذه الحادثة سبَّبت وحشة مزمنة وخلافاً بين قبيلة مراد وقبيلة خولان، وقد تحدَّثنا، الآن، في هذا الموضوع، وعلى الشيخ علي القردعي أن يعلن رأيه.

صحيح أني قُتِلت في أرض خولان، ولكن الذي قتلني هم بعض

الحرّاس من جنود الظلم، وبعض أتباع الظالمين، وما أظنّهم إلا دخلاء على خولان. والواقع أنه كان من الممكن أن يقتلني هؤلاء حيثما كنت، ولو في عقر داري، فخولان، في الحقيقة، غير مسؤولة عنهم، وهي بريئة من دمي، وليس في قلبي لخولان إلا الحبّ والتقدير، فنحن أخوة وجيرة في الدار، وأبناء شعب واحد، وما فرّق بيننا إلا الجهل والظلم والبلاهة. إنني أرجو من الزميل العزّي أن يبلّغ رسالتي إلى قبيلة مراد، وأن يقول لها إني قد أسقطت كلّ حقّ لنا على خولان، وإن على قبيلة مراد أن لا تنخدع بمن يفسد بينها وبين جارتها خولان، فإننا أخوة وأهل، وعدوّنا واحد هو الظلم. إن الذي قتلني هم الظالمون الكبار، وهم الذين قتلوا أخي أحمد برصاص بنادقهم، وهو أسير في سجونهم، وهم الذين غدروا بالشيخ جارنا العظيم بعد أن أعطوه العهود والمواثيق، وهم الذين اضطهدونا، وأذلّوا قبائلنا، وجعلونا عبيداً لهم، إن على مراد إذا أرادت أن تكون وفيّة لدمي- أن تتآخى مع خولان، وتتعاون ضدّ الظلم والطغيان. إن أيّ مراديّ من قبيلتي يعادي خولان فهو ليس مني، ولا أنا منه، إن خولان، الآن، هي التي تنتقم من الظلم، وتأخذ بثأري وثأر الشعب كلّه، فإذا خذلتها مراد أو حاربتها فإن هذا إهدار وخذلان لدمي ودم أخي الشهيد أحمد، وقلْ لقبيلتنا إنه من العار أن تكون خولان أكثر وفاءً للقرادعة من مراد.

قال كبير خولان:

شكراً لأخي علي القردعي، فقد أنصف خولان أعظم إنصاف، والحقيقة أن خولان تقوم بالنيابة عن الشعب كلّه، وهي لم تعمل إلا

عملاً مشروعاً. لقد بلغ من حماقة الظالمين وغرورهم أنهم يطلبون من القبيلة أن تسلِّم رجالها وزعماءها للذبح، وهذا تكليف بما لا يطاق، وأيّة قبيلة عربية تفعل ذلك؟ إنه يوجد في بلادنا ذنوب وجرائم، في قاموس دولتنا، لا نظير لها في العالم. إنهم سيعدّون قبيلتنا التي رفضت أن تقتل زعماءها قبيلة عاصية ومذنبة، فما رأي الإمام الهادي في هذا المنطق العجيب؟

وقال حميد، شهيد حاشد:

إن هذا موقف التصفيق، إنني أشكو إلى الإمام الهادي مافعله الأشراف في الجوف معي: إنني، حينما اشتدّ الخطر عليّ في المشرق، قرّرت أن ألجأ إلى شهامة أشراف الجوف، وأن أضع رأسي وحياتي وحياة أسرتي كلّها في أيديهم، لأني أعتقد أنهم قبائل أشراف وأوفياء، وأنهم سيقاتلون في سبيل الدفاع عن كلمتهم ووجههم وذمّتهم، وقد أعطوني وجوههم وعهودهم بأنه لن ينالني سوء ولا مكروه، واعتبرت هذا عهداً منهم ووجهاً شريفاً لم يعطوه لي وحدي، إنما أعطوه لحاشد كلّها، وقد سلَّمت نفسي إليهم بناءً على هذه الثقة، وقالوا إنهم سيأخذون لي أماناً من الحكومة، يصون وجوههم وشرفهم، وقد أعطاهم الطغيان كلمة، فسلّموني إليه، ولكنه ذبحني.

فإن كان الأشراف متَّفقين مع الطغيان على الغدر بي، وأنا من رؤوس

حاشد، وقد لجأت إليهم باسم حاشد، فيا للعار والفضيحة! كيف يغدر العربي بمن لجأ إليه؟ وإن كان الأشراف مخدوعين مثلي، وكان الطغيان خدعهم ونكث بعهده معهم، وأخزى وجوههم، فعليهم- حينئذ- أن يأخذوا من الطاغية حقّهم وحقّي، وأن ينتصفوا لي ولأنفسهم، وأن يكونوا يداً واحدة مع حاشد وبكيل وخولان ونهم ومراد والزرانيق والحجرية وإب.

إن هذه القبائل تستطيع أن تردّ الحقّ إلى نصابه، وأن توقف الطغيان عند حدّه، إنني- يا أمير المؤمنين- شابّ صغير، ذبحني الطاغية وأنا في زهرة العمر، وسلبني الحياة، وعذَّب والدي بقتلي، ثم قتله، وليس لي ذنب إلا أنني أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، وغضبت لله وللشعب، وقد سخروا مني وقالوا: كيف تطمح إلى هذا وأنت قَبَليّ؟

كان الحاضرون جميعاً منفعلين جدّاً، وهم يستمعون إلى هذا الكلام، وكان الإمام الهادي يحيى بن الحسين أشدّهم انفعالاً، فقال في غضب:

أنت قَبَليّ، نعم.. وفي هذا فخر كبير، ومن أيّد الحقّ ورفع راية العروبة والإسلام إلى أقطار المعمورة غير القبائل؟ إنهم الفئة التي تعمل لوجه اللّه، وتبذل أرواحها وأعمارها، وتقيم الممالك، وتحمل أعباء المعارك، وتسكب كلّ دم جديد في عروق المجتمع المتحضّر كلّما شاخ وأصابه الهرم، ومع ذلك فهي تبقى راضية بالقليل من الجزاء، وبالخشن من العيش، وبالشظف من الحياة، وتظلّ مجنّدة بالفطرة والغزيرة طوال العصور، فهي الحامية المانعة، وهي المعقل والحرز، وهي السلاح في يمين الشعب، يهزّه كلّما ألَمَّت به الملمّات، ولولاها لَفَنِيَ العرب، وانقرضوا، وانحلّت قواهم في سموم المدينة، وانسحقوا تحت أقدام الغزاة. إن القبائل هي ينبوع العروبة، تتفجّر به الصحاري

والجبال منذ القدم، يتدفّق كالنهر العظيم، ويتسلَّل إلى كلّ مصبّ من مصبّاته في المدنيّات: البابلية، والأشورية، والفينيقية، والمصرية، ويغذّيها بعناصر العروبة المتجدّدة القويّة النامية على مَرّ العصور، حتى جاء الإسلام ووجد في هذه البلدان قاعدة شعبية عريضة من العروبة القديمة الأصيلة، تجاوبت، سريعاً، مع جيوش الفتح، وطردت فلول الرومان والفرس، واتَّحدت كلّها، والتحمت، وانسجمت كماء البحر، تحت راية واحدة.

ثم أخذ الإمام الهادي يحيى بن الحسين يردِّد:

نعم أنت قَبَليّ ياحميد آل الأحمر، وياشهيد حاشد وهمدان، وأنت أَوْلى ألف مرّة بالحقّ وحمل الرسالة المتحرِّرة من الذين عَيَّروك وقتلوك؛ إنهم جبناء وقساة.

قال الشهيد الموشكي:

ولكن، ما رأيك- يا أمير المؤمنين- في موقف أشراف الجوف؟ إنه موقف مخجل.

قال حميد:

إنني متنازل عن حقّي للأشراف، شرط أن يقفوا، من الآن، إلى جانب إخوانهم من القبائل المطالبة بالحقّ والعدل.

قال الإمام الهادي:

إنني، الآن، قد بعثت إشارة روحية إلى نقيب الأشراف الشريف الضميم، وهو رجل عربي شهم، وله منزلة كريمة في الجنّة، وأنا أتوقّع حضوره قريباً.

ومرّت لحظات قليلة، والجماعة كلّها واجمة، ثم إذا بسرب من جياد الجنّة المجنّحة تحوم على مكان الاجتماع، ثم تهبط، وعليها رجال، عليهم ملامح الجدّ، وماكادت تهبط حتى أخذت تنزل من فوق جيادها، وتتقدّم إلى الجماعة، فتصافحهم واحداً واحداً، وكان يتقدّمها رجل مهيب الطلعة ساطع الجبين، وعلى وجهه آثار الحزن والوجوم، وقد قدَّم نفسه إلى الإمام الهادي قائلاً:

أنا الشريف الضميم، وهؤلاء رفاقي من الأشراف القدامى، وقد عرفت

فضيحة الأشراف مع حاشد، وتسليمهم للشاب الثائر حميد إلى الطاغية الذي يذبح الأطفال والشرفاء والأبطال، ويهدر دماءهم كما يفعل الجزّار مع الشاه والغنم، وأنا في حزن وفي خجل مما حدث.

قال حميد آل الأحمر:

إنني أرحِّب بنقيب الأشراف العظيم، وأبشِّره بأني قد تنازلت عن حقّي للأشراف، شرط أن يضعوا أيديهم في أيدي أخوانهم من القبائل المكافحة المناضلة.

قال الشريف الضميم:

يسرّني أن ألمس فيك هذه الروح المتسامحة، ولكن الأمر ليس أمر عفو، يسمح به فرد واحد؛ إنها مسألة مبدأ يتعلّق بالشعب كلّه، ومشكلة دم وعار، تتوارثه القبائل جيلاً بعد جيل. ماذا أصاب عقول أشراف الجوف حتى يقبلوا تسليم رأس من رؤوس حاشد، لجأ إليهم واحتمى بشرفهم وشهامتهم، فيقدّمونه إلى جزّار متعطِّش للدماء يذبحه؟

إن العرب لايقبلون هذا على أنفسهم، ولو كان الذي لجأ إليهم ألدّ أعدائهم! أيخاف الأشراف من هذا الطاغية الذي يحكمهم؟ وماقيمته وأهمّيّته وخطره؟ إنه شيخ مسنّ، وسيزول قريباً، ويزول عرشه، ويبقى الأشراف وسط بحر من القبائل التي لابدّ أن تكرههم وتحقد عليهم بسبب هذا الحادث، إن الطاغية فرد زائل، أمّا حاشد فهي خالدة باقية، وعلى الأشراف أن يصفّوا حسابهم مع الطاغية الذي سَوَّدَ وجوههم،

وإلا فالويل لهم، والعار.

قال أحد شيوخ خولان:

ـ إن المسألة، في نظري، يمكن حلّها بسهولة ويسر، كما فعلت خولان، فإن خولان كانت لها قضية مشابهة مع الشهيد القردعي الذي قُتِل في أرضها، فلمّا نهضت الآن، ووقفت في وجه الطغيان صفَّت حسابها مع قبيلة مراد، وقضت دَيْنَها، واستردّت شرفها. وهاهو زعيم مراد الشيخ علي ناصر القردعي إلى جانبنا راضياً مغتبطاً؛ لأن خولان تنتقم له، الآن، ولأخيه الشهيد الشيخ أحمد، أكثر مما فعلت مراد نفسها.

قال الإمام الهادي:

ـ أظنّ أن هذا الرأي سليم، وأعتقد أن الشريف الضميم سيقتنع به، وتطمئنّ نفسه إليه، وعلى ضيفنا العزّي أن ينقل رأينا هذا، جميعاً، إلى أشراف الجوف، ويبلغهم أن قرارنا هذا يتّفق مع واجب الدين والعروبة ومقتضيات الشرف. وعندنا، الآن، مَثَل واضح صارخ، هو هذه الأمّ العظيمة أمّ آل أبي الدنيا: لقد استطاعت وحدها أن توقف الطاغية الأب عند حدّه، فيما يتعلَّق بسفك الدماء، فهل يعجز الأشراف عن أن يقوموا بهذا الدور وبهذا الواجب متعاونين مع القبائل الأخرى؟ إن أقلّ مايُطلَب منهم أن يثبتوا آدميّتهم ووجودهم بالمطالبة بحقّ الحياة والوقوف في وجه الجّزار، كلّما أراد أن يذبح آدميّاً من الآدميّين.

قال الشهيد حميد:

ياليت ذلك يتمّ، وعندئذ أطمئنّ، وتطيب نفسي بمصرعي، وأشعر أن دمي كان له ثمن كبير؛ أنني فداء لشعبي وبلادي.

قال الشيخ/عبد الوهاب نعمان:

عندي اقتراح، وهو أن نحوّل من مجموعتنا هذه دعاةً لمؤتمر، نحاكم فيه الطغيان، ونتدارس مشاكلنا، ونضع القرارات والحلول؛ وذلك بأن نجمع مايمكن جمعه من رجال بلادنا وغيرهم من الصدّيقين والشهداء ليشهدوا مناقشاتنا، ويشترك في المناقشة من يرغب في الاشتراك، ويكون هذا بحضور الجميع عند الإمام علي (عليه السلام)، وسأقوم أنا والعزّي محمود الضيف، والشهيد الموشكي، والشهيد حميد آل الأحمر، بالطواف على بعض من نعرف، لإقناعهم بالفكرة، ويقوم منكم من يذهب لإقناع من يعرف ودعوته إلى الحضور.

فوافق الجميع على هذا الاقتراح، وذهب كلٌّ إلى وجهته.

ونهض الأربعة، وركبوا على الجياد المجنَّحة، وحلَّقوا في الفضاء على الفور.

قال العزّي محمود:

وتداعى رجال الجنّة من شهداء (واق الواق) إلى مؤتمرهم الضخم، وأشركوا معهم بعض أعلام البلاد من العلماء الأحرار، أمثال العلّامة محمد بن إسماعيل الأمير الذي كان من أولئك المفكِّرين الأحرار المناوئين لحكم الطغاة، من الأئمّة السابقين.

وقد استعرضت بعض وجوه الحاضرين الذين توافدوا على المؤتمر، وأذكر، من رعيلهم الأوّل، العلّامة الهمداني صاحب الإكليل، ونشوان الحميري، وسيف بن ذي يزن، وأسعد تبّع، وبلقيس، ولميس، والسيدة بنت أحمد، والإمام الهادي، والعلّامة حسن الجلال، ومحمد بن إبراهيم الوزير، والقاضي جغمان، وأمّ آل أبي الدنيا، والعلّامة المقبلي صاحب العلم الشامخ، والعلّامة الشوكاني، وغيرهم. ومن الرعيل الأخير الشهداء: محمد صالح المسمري، وأحمد حسن الحورش، ومحيي

الدين العنسي، وأحمد البراق، وعبدالوهاب نعمان، والخادم غالب الوجيه، ومحسن هارون، وعزيز يعني، وصالح بن حسين الشايف، ومحمد ريحان، وهارون بن محسن هارون، وزيد بن علي الموشكي، وسيف الحق إبراهيم، وعبداللّه بن أحمد الوزير، وعلي بن عبداللّه الوزير، ومحمد بن علي الوزير، ومحمد بن محمد الوزير، وعبداللّه بن محمد الوزير، وحسين الكبسي، وأحمد المطاع، وعلي بن ناصر القردعي، ومحمد الراعي، وأحمد ناصر القردعي، ومحمد القردعي، وأحمد القردعي، وأحمد العنجبة، وعبداللّه أبو رأس، وعلي سنهوب، ومحمد بن ناجي الحسيني، ومحمد قايد الحسيني، وعبداللّه وحمود الحسيني.

كل هؤلاء الأبطال من شهداء الدستور إلا أحمد ناصر القردعي فقد أُطلِق عليه الرصاص وهو في السجن، بعد بضع سنوات من سقوط الحكم الدستوري.

وأذكر من شهداء الثورة الثانية ثورة الشهداء: يحيى بن أحمد السياغي، وشقيقه حمود السياغي، ومحمد حسين عبدالقادر عبدالرحمن الغولي، وعلي حسن المطري، ومحمد ناصر الجدري، وعبدالرحمن باكر، وعلي حمود السمة، وقايد أحمد معصار، وحسين الجناتي، ومحسن الصغر، وأحمد الدفعي، وأحمد الثلايا، وغيرهم.

ومن شهداء المحاولة الثالثة: قاسم حسن أبو رأس، وعبداللطيف بن راجح، وحسين بن ناصر الأحمر.

وقد جلس هؤلاء الشهداء الأربعة من شهداء حاشد وبكيل، ومعهم الشهيد عبدالوهاب نعمان، شهيد معافر الحجرية، على منصّة المؤتمر، بالقرب من مكان الإمام عليّ بن أبي طالب، والحسين بن علي، وزيد ابن عليّ، عليهم السلام.

وجلس المؤتمرون، جميعاً، في قاعة ضخمة مترامية الأطراف، ودوّى صوت رائع: محكمة اللّه، ثم تلاه صوت آخر:

المحاكمة غيابية، ثم أعقبه صوت ثالث:

عليّ بن أبي طالب، رئيس المحكمة، يأمركم بالسكون والإنصات..

كلمة الشهيد حسين بن ناصر آل الأحمر:

يا أمير المؤمنين، نحن حاشد وبكيل، نحن همدان، نحن القوّة الكبرى للعروبة والإسلام، ولقد عرفتنا معك يوم الجمل، وعرفتنا في صفّين، لقد ضحّينا بالرجال البواسل من قبيلتنا استجابةً لدعوتك واقتناعاً برسالتك وإيماناً بأنك ستفضي بنا إلى المحجّة البيضاء، وستمكِّننا، في بلادنا، أن نعيش أعزّةً أحراراً، نعبد اللّه ولا نعبد أحداً سواه، وقد كنت معنا ـ يا أمير المؤمنين ـ كريماً وفيّاً، فاعترفت بجهدنا وإخلاصنا، وأكرمتنا بوعد كريم، لم تكرم به أحداً سوانا، فقلت:

ولو كنت بوّاباً على باب جنّة، لقلت لهمدان: ادخلوا بسلام.
ولقد اعتبرنا هذا عهداً مقدَّساً منك، وتأكد لنا أن كل الأئمة من بعدك سيسيرون سيرتك، وينهجون نهجك، وفعلاً تحقَّق ما توقّعناه منك في

نفر من الأئمة الغرّ البهاليل الأطهار، وعلى رأسهم الإمام الهادي يحيى بن الحسين، جاؤوا في فترات متقطِّعة من تاريخنا، ووجدوا عندنا من الوفاء والودّ والولاء لهم ما كنت تجده أنت، ووجدنا عندهم سيرتك وأخلاقك ونهجك حتى لقد قال قائلهم: إنْ هي إلا سيرة عليّ، وإلا فالنار.

فجاهدنا في سبيل اللّه وراءهم، وعادينا من عاداهم، حتى لو كان من جيرتنا أو من لحمنا ودمنا.

ولكنه، يا للأسف! خلفهم، من بعد ذلك، خَلَف انحرفوا عن الطريق التي رسمتها، واتّخذوا من الإمامة ملكاً عضوضاً، يتوارثه أبناؤهم وأحفادهم، كما فعل بنو أميّة وبنو العباس، بل لقد كان البعض منهم أكثر بطشاً وأضلّ سبيلاً.

لقد اتّخذوا من اسمك ومن قدسيّتك في قلوبنا أداةً للعبث بنا، وسلاحاً للبطش بشعبنا وتمزيقه واستعباده، فقسّمونا أقساماً ليضربوا بعضنا ببعض، نسبوا البعض منا إليهم، فقالوا (زيدية)، ونسبوا البعض الآخر إلى غيرهم فقالوا (شافعية). لقد جعلوا الزيدية جنوداً لهم ينهبون القسم الآخر باسمهم، ويبطشون بهم، ويستبيحون أموالهم.

وقد زعموا لنا أنهم كفّار تأويل، وسلَّطونا عليهم ظلماً وعدواناً. إنهم يجيعوننا ويفقروننا، ثم يسلِّحوننا، ويطلقوننا كالوحوش الكاسرة النهمة على إخواننا وأبناء جلدتنا، في بلادنا الجنوبية. استعبدونا بالعقيدة والفقر، واستعبدوا إخواننا الآخرين بسلاحنا، وجعلوا منا أداةً للنهب

والسلب.

ولقد تحرَّكت ضمائر الأحرار العلماء الأتقياء من أبنائك، فأنكروا هذا الظلم، وندّدوا بالظالمين من الأئمّة، وفضحوهم فضيحةً، لا ينساها التاريخ، ومن هؤلاء ابن الأمير صاحب سبل السلام الذي ترك لنا قصيدة تدمغ العهود المظلمة بالعار، وتنقل شكوى الأجيال إلى الأجيال.

وإنه ليسعدني أن أراه، الآن، بين الحاضرين من العلماء الصدّيقين، وأرجو أن يُسمِعك قصيدته بنفسه، بعد قليل.

لقد كانت قصيدته الثورية إعلاناً لعزيمته واتّجاهه إلى اقتلاع عروش الطغيان، ولكنه هُدِّد في حياته، وتسلَّط عليه أذناب الطغاة من الفقهاء والغوغاء، فانطوى على نفسه، ولم يستطع أن يصنع شيئاً، وانطلقت شرور الطغيان، يتوارثها طاغية بعد طاغية، حتى بلغت ذروتها في عهد العماد (أبو الوشّاح ياجناه)، ثم بلغت ذروة الذروة في عهد ابنه الوشّاح. إنني لا أستطيع أن أعدّد فظائع عهده ومنكراته، وإنما أنا أشكو وأتظلَّم إلى قلبك العظيم.. فهل تسمح لي ـ يا أمير المؤمنين ـ أن أتكلَّم، بصراحة، ضدّ من ينتسب إليك؟

فاكفهرَّ وجه عليّ (رضوان اللّه عليه)، وقال:

أو تظنّني كسرى أو قيصر حتى تتحرّج من الصراحة ضدّ العصبيات القبلية والعائلية، ولقد قاتلت أنا أهلي بالسيف، وقاتلتهم، جنباً إلى جنب، مع الأوس والخزرج. ألا، فاعلمْ أنكم أَوْلى بي من أيّ ظالم

يدّعي الانتساب إليّ، فإنه ليس في الانتساب إليّ أو إلى رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) شافع يشفع له، بل إن فيه زيادة في الحجّة، ومضاعفة للملامة والعقوبة، ولو كان في الانتساب إلى الأنبياء والصدّيقين مايعصم من الإثم أو من عقوبة الإثم وعاره وشناره لكان أبناء نبيّ اللّه آدم، جميعاً، في عاصم أبديّ من المعصية أو من عقابها.

إن بني آدم، جميعاً، من نسل نبيّ اللّه آدم، ومن نسل نبي اللّه نوح، ولقد علَّمَنا اللّه، في كتابه الذي أنزل على محمد (عليه الصلاة والسلام)، أن الانتساب إلى الأنبياء لا ينفع ولا يفيد، فضرب لنا مثلاً بقابيل قاتلِ هابيل، واعتبره عدوّاً لله، كما ضرب لنا مثلاً آخر بابن نوح الذي أغرقه الموج على مرأى من أبيه، نبيّ اللّه، ولمّا حاول إنقاذه قال اللّه سبحانه: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}.

ولقد خشي الرسول (عليه الصلاة والسلام) أن يعتمد أهله على قرابتهم منه، فأنزل عليه: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ}، ولقد جمعنا وأنذرنا، وأعلن إلينا أنه لا يغني عنا من اللّه شيئاً، وأعلن أنه لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع يدها، ونزلت سورة كاملة في ذمّ عمّ رسول اللّه أبي لهب، ودمغته باللعنة والعار أبد الآبدين.

{ضَرَبَ اللّهُ مَثَلا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ

الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}.

فهل يكفي هذا، يابنيّ، وياشهيد همدان؟ فإذا تجرَّأ الظالم وافتخر بنسبه إليّ فأَفحِموه وتهكّموا بعقليته، وقولوا له إنكم أنتم ـ أيضاً ـ من آل نبيّ اللّه آدم وآل نبي اللّه نوح.

ثم قال عليه السلام: تكلَّم يابنيّ.. استمرّ، وقلْ كلَّ شيء، بصراحة.

فارتاح شهيد همدان، واستأنف يقول:

يا أمير المؤمنين، إن هذا الوشّاح ياجناه أطلق على نفسه، أو أطلق عليه حواريه وأذنابه، اسماً يدلّ عليه، ويكشف عن شخصيته وأسلوبه في الحكم وهو اسم (ياجناه): إنه مشتق من الجنّ أو من الجنون، وهم يفتخرون له، ويفتخر لنفسه بأن به لوثة من هذا المعنى. إن مثله الأعلى هو التهوُّر والمبالغة في البطش والخروج عمّا تواضع الناس عليه، وألفوه، من الاعتدال والاتّزان، ولقد ساد بلادنا، من هذا المزاج، لوثة عامّة أفسدت حياتنا، وقلبت أوضاعنا.

ولقد ضجّ منه أهله، وخافوه، واشتركوا في ثورة 55، وانتصر عليهم، وقتل أخويه مع من قتلهم من أحرار البلاد، وبقي أهل الحلّ والعقد في البلاد في حيرة من أمرهم: روساؤهم ومشايخهم وسادتهم وعلماؤهم لا يدرون ماذا يصنعون! إنهم يرون «ياجناه» يشحن البلاد باروداً وديناميتاً، ويحمي نفسه بالقتل والذبح والتهوُّر، فيخلق لمن وراءه جحيماً من الأحقاد والمشكلات، ولا يتورّع أن يصرِّح «أعيش أنا،

ومن بعدي الطوفان».

كانت عيون الملايين من أبناء الشعب تنظر إليه في ذعر وعجز، وهو يعدّ البلاد كلّها للنسف والتدمير.

ولا يوجد، في أبناء الشعب، من يجرؤ على أن يقول له كلمة حقّ أو كلمة نصح صادقة مشفقة. إنه الحاكم بأمره، يقبع في قصره الشهور الطوال، ويترك الناس يواجهون الحريق صامتين مستسلمين؛ لأنهم يرهبون فيه شيئاً أكثر من الحريق.

إنه وحده المتصرِّف بكلِّ صغيرة وكلّ كبيرة في الشعب، فإذا هو عكف في بيته تعطّل كلّ شيء، ومَسَّ الناس الضرّ، وأصيب أصحاب المشاكل والقضايا والشكاوى بنكبات، يعجز عنها الوصف، وكنت أنا في عداد السجناء، وكان ابني الشهيد سجيناً كذلك؛ لأنه مرهون باسمي وباسم قبيلتي.

واستمرَّ ابن الأحمر قائلاً:

نعم يا أمير المؤمنين، إن قبائلنا لا تستطيع أن تعيش في بلادها وبلاد أجدادها إلا إذا رهنت أبناءها وأطفالها الأبرياء، ووضعتهم في السجن، وأصبح هذا المنكر الشنيع كأنه أمر طبيعي وحقّ مقدَّس للحكام، من اعترض عليه أبيح دمه وماله.

كنّا، يومئذ، في السجن، ولكن رجال الشعب، وفي مقدمتهم كبار السادة وأمراء المناطق والعلماء ومعظم أهل الحلّ والعقد، كلّ هؤلاء

كانوا يعرفون أن قوّة الشعب المتسلِّطة على الشعب هي في حاشد وبكيل، وكانوا يعرفونني جيّداً، ويثقون بي وبمكانتي ومنزلتي في قبيلتي، فاتّصلوا بي عن طريق الحرّاس، وناشدوني ديني وذمّتي وشهامتي وضميري، وطالبوني بالنجدة من حاشد، النجدة لإنقاذ البلاد من أخطار النسف والحرق والبوار والاستعمار والانقسام، هذه البلايا التي يهدّدنا بها الوجود المشؤوم لهذا (الوشّاح ياجناه).

وقد شاورت نفسي وأهلي وأصحابي في الأمر، وتروَّيت فيه طويلاً، ثم اتّصلت بالذين اتّصلوا بي، وقلت لهم: إنني أنا واحد من الشعب، ليس لي فضل ولاحول ولا قوّة على أحد.. وإذا كانت لي منزلة ومحبّة في قبيلتي فليس ذلك إلا لأنني أجعل نفسي شخصاً عاديّاً بين رجال حاشد، أشاورهم في كلّ صغيرة وكلّ كبيرة، فإذا كنتم تريدون أن أكون جبّاراً في موضع الوشّاح الجبّار فإنكم ـ حينئذ ـ لم تصنعوا شيئاً.

قالوا: فكيف تريدنا أن نطفئ الحريق الذي يهدِّد مستقبلنا؟

قلت لهم:

سألخِّص ذلك في أمرين رئيسيين:

الأمر الأوّل: أن يكون الأمر كلّه للشعب كلّه، لا لقبيلة دون قبيلة، ولا لقسم دون قسم، ولا لفئة دون أخرى، فإن سلامة بلادنا إنما تتمّ إذا عالجنّاها من العلل القاتلة التي تعانيها، وأخطر هذه العلل هي الفرقة والانقسام والشكوك، هذه العلّة المتوحِّشة التي تفترس مصير بلادنا،

بلا رحمة ولا عقل. ولكن، كيف يتأتّى لنا أن نقضي على الفرقة والشكوك، وأن نوحِّد فئات الشعب، إذا أبقينا أسباب الانقسام التي افتعلها الطغاة كما هي عليه؟ لقد صنع الطغاة مايسمّونه (شافعية، وزيدية)، وميَّزوا البعض على البعض، وأتاحوا للزيدية من الفرص مالم يتيحوه للشافعية، وأعطوهم من الجاه والسلطان مالم يعطوه لإخوانهم، هذه علّة يجب أن نعترف بها، ونعالجها بطيبة من أنفسنا.

قال الذين يمثِّلون الزيدية: نعم.

وقال الذين يمثِّلون الشافعية: نعم.

قلت: إذاً، فنحن نستطيع أن نرجع إلى أصلنا: أخوة لا يفرِّق بيننا مفرِّق، ولا يتميّز بعضنا على بعض، ولا نتيح فرصة الحكم إلا لمن يكسب الأكثرية في الأصوات.

قالوا: نعم.. وعاهدوني على ذلك.

قلت لكبار الهاشميين: لقد صنع الطغاة مايسمّونه (هاشمية، وقحطانية)، وبنوا على أساس هذا التقسيم سياسة ونظاماً وألواناً سخيفة من التفضيل والتمييز، فهل أنتم معنا أم مع الطغاة؟

قالوا: بل نحن معكم، قلت: وهل تكونون واقعيين، وتواجهون الحقيقة، وتعترفون بأن هذه التسمية المفتعلة قد خلقت بعض الفروق والامتيازات الحقيقية لبعض كبار الأسر؟

قالوا: نعم.

قلت: وهل أنتم على استعداد للتنازل، بطيبة من أنفسكم، عن هذه الفروق وآثارها، لكيما نكون أخوة، بحقّ، في وطن مشترك، يظلّنا جميعاً؟

قالوا: نعم.. نعم..

وقلت للذين يمثِّلون سكّان المدن في الشمال والجنوب: ألا ترون أن الطغاة قد أثاروا الشكوك والأحقاد بين سكّان المدن والقرى، وتحيَّزوا إلى المدن، وأهملوا شأن القبائل والمزارعين، وتبع هذا الإهمال ضربٌ من ضروب الاحتقار، وترتَّب على الاحتقار ظلم واقتيات ونهب وسلب واختلاف وتفاوت في المعاملات: فالجنود يرسَلون إلى القرى دون المدن، والخطاط والسخرة من الأمور التي لا تعرفها إلا القرى، وهكذا أساليب السلب والنهب.. إلخ؟

قالوا: بلى.

قلت: وهل أنتم على استعداد لإنصاف المزارعين والقبائل وإزالة أسباب الفرقة بينكم وبينهم، والحياة على قدم المساواة والعدل معهم؟؟

قالوا: نعم.. نعم..

واتّصلتُ بقادة القبائل ورؤسائها، فتفاهمنا جميعاً، وتذكّرنا العِبَر

والعظات التي مرّت بنا في حياتنا، فرأينا أن الطغاة إنما تغلبوا علينا لأنهم يضربون قبيلة بقبيلة، فيوماً يضربون خولان بمراد، ويوماً مراداً بخولان، وإذا غضبوا على حاشد سلطوا عليها بكيل، ثم يغضبون على بكيل فيسلِّطون عليها حاشداً، وهكذا، كأننا عندهم قطعان من الكلاب المدرَّبة على الصيد، يوجِّهونها إلى من يشاؤون من ضحاياهم، فتنهش هذا، وتمسك بأذيال ذاك، وهي لا تعقل، ولاتدري ماذا تعمل! وقد أجمعت كلّ القبائل على أن هذا حال لا يجوز أن يدوم، وأن كلّ قبيلة يجب أن تمتنع عن حرب أيّة قبيلة أخرى، وتعاهدنا، جميعاً، عهود الدين والشرف والقبيلة، ومن أخلَّ بهذا العهد حَلَّ، به وبقبيلته، العار.

وتفاهمت القبائل كلّها على طريقة الحكم، وأنه يجب أن يكون في المستقبل كما كان في أيام معين وقتبان وسبأ وحِمْيَر، حيث كان للقبائل مجلس خاصّ تتمثّل فيه القبائل كلّها، وتشارك في الحكم، بحيث يقنع كلُّ رئيس قبيلة قبيلته بما تطلبه الدولة من مشاريع، فتستجيب القبائل كلّها عن اقتناع وطيبة نفس، وبذلك استطاعت الحكومات القديمة أن تبني السدود في كلّ منطقة من مناطق بلادنا، لأن الشعب كان هو الذي يتولّى بناء السدود بنفسه، ومن هنالك، كانت بلادنا ـ على أساس من هذا النظام ـ جنّة من جنان الأرض كما وصفها القرآن الكريم، وكذلك، يجب أن تكون في المستقبل، بفضل التآزر والتعاون على قدم المساواة، والحياة المشتركة.

الأمر الثاني: وقلت للذين اتّصلوا بي: إنه بعد التفاهم المشترك على ضرورة تحقيق الأخوّة والمساواة بين جميع الفئات، والقضاء على كلّ

عوامل التميز والتفاضل والانقسام، يجب أن نعترف أن ذلك يستحيل تحقيقه في ظلّ من الحكم الإرهابي الرجعي المطلق الذي يمارسه الوشّاح ياجناه، وأن علينا أن نستفيد من التفاهم المشترك، وأن نجمع كلمة القادة من أهل الحلّ والعقد، فُتقَدَّم مطالب الشعب بصورة جماعية وسلمية وودّيّة، أيضاً، ولاشكّ أن الوشّاح فرد واحد، وإذا رأى مجموعة كبيرة من القادة قد اتّفقوا على كلمة سواء بينهم، وهي كلمة حقّ تعبِّر عن حاجات الشعب كلّه، فإنه ـ حينئذ ـ لا يسعه إلا أن يذعن ويستسلم؛ وبذلك يحصل الشعب على حقوقه بطريقة سلمية، بدون ثورة ولا دم ولا انقلاب.

إن كلّ ما كنّا سنطالب به أن يصبح مصير الشعب بيد الشعب، وأن تكون الحكومة معبِّرة عن الشعب، ونحن ـ في سبيل الحرص على الطرق السلمية ـ كنّا نقبل أن يبقى الوشّاح في منصبه على أن يكون مجرَّد رمز، أما السلطة الحقيقية فيجب أن تنتقل إلى يد الشعب وإلا حَلَّ به الخراب والبوار في المستقبل.

يا أمير المؤمنين، ذلك هو ما فعلته، وما حاولت النجاح في تحقيقه. إن بلادنا يحكمها الجنون والرعب والإرهاب، وتسودها الفوضى، ويعطِّلها الشلل، وهي مهدَّدة، إن لم تحقَّق المساعي التي قمت بها أنا وزملائي من المشايخ والزعماء، بأعظم الأخطار. إنها مهدَّدة بانفجار البارود الذي يجمعه الوشّاح، ويوزِّعه في أوصال الشعب لينسف جثته إرباً إرباً.

لقد كان عملي مفيداً ومشروعاً، وهو الطريقة الوحيدة لإطفاء الحريق، كما أعتقد، وهو، بعد ذلك كلّه، مجرّد تحايل لتحقيق واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذلك الواجب الذي فرضه الإسلام على كلّ فرد من أفراد الناس، ولمّا عجز الناس، وذلّوا، وتهاونوا بهذا الواجب، واعتادوا الحرمان من حقوق آدميّتهم، حاولنا أن نجمع قوّة الشعب كلّها لتؤدّي الواجب الذي كان يؤدّيه أيّ فرد من أفراد الشعب، بسهولة ويسر، وبدون أن يخشى أذىً أو ضرّاً.

ولمّا أحسّ الطاغية أن القبائل رفضت أن يقتل بعضها بعضاً، وتستبيح الحرمات، هالَهُ هذا الأمر، وأفزعه، فطغى واستكبر، وفكَّر، ودبَّر، ثم قرَّر أن يلجأ إلى بلاد الأجانب، فسافر إلى روما عاصمة الطليان بدعوى المعالجة، وتفاهم مع الدول الأجنبية، فلمّا رجع من روما استأسد على الشعب، وهدَّد، وتوعَّد، وطلب الشعب لمبارزته، ولم يسبق لطاغية من طغاة الأرض أن يطلب مبارزة الشعب، ثم أعقب هذا التهديد العام بتهديد خاصّ لحاشد وبكيل، ووجَّه التهديد إليَّ أنا، بالذات، وإلى ابني الشاب الشهيد حميد، وقد اختار أن يبدأ بحاشد قبل بكيل لأنه يحتقر حاشداً، ويعتقد أن في بعض رجالها فسولة ودناءة، وأن فيهم من لا يعرف الشرف ولا القبيلة، والسبب في اعتقاده هذا أنه يعرف بعض المشايخ الذين يبيعون أهلهم وعشيرتهم وقبيلتهم بثمن بخس: دراهم معدودة، فظنّ أن حاشد كلّها مثلهم.

لقد كان عليَّ، حينما استدعاني الجزّار، واستدعى ابني وفلذة كبدي.. كان عليَّ أن أفكَّر في الأمر، وأن أتروّى، وأن أبحث عن طريقة سلمية

مرضية تروِّض وتهدِّيء شراسة الوحش المتعطِّش لدمي ودم ابني، وحاولت أن أتلطّف بالاعتذار عن طريق ابنه ووليّ عهده، وعن طريق بعض المشايخ فلم يقبل الوحش عذري، ثم اعتذرت بالمرض فرفض العذر، ثم صارحته بأني لا أستطيع الحضور إليه إلا إذا أمنت على رأسي ورأس ابني، وكانت هذه- يا أمير المؤمنين- جريمتي الكبرى.

نعم، إنني مجرم ومباح الدم والمال والعرض والمسكن، لأني طلبت الأمان على حياتي وحياة أولادي، وقد جُنَّ جنون الوشّاح ياجناه، وأرعَدَ، وأبرَقَ، ثم أرسل جيشاً جرّاراً لمهاجمتي، وسحق قبيلة حاشد كلّها؛ ذلك لأنه لا يريد أن تتغيَّر القاعدة التي يقوم عليها عرشه الأثيم، تلك القاعدة التي تستلزم أن يبقى كلّ فرد من أفراد الشعب مباحاً دمه وماله، ذليلاً خائفاً قلقاً، كأن السيف مُصلت على عنقه. إنني طلبت الأمان فقط، وهذه جريمتي، لأن الطاغية لا يطمئنّ إلا إذا كانت أرواح الناس ملكاً حلالاً لسيفه، ينتزعها في أيّ وقت يشاء، فلمّا تردَّدت في تسليم رأسي أرسل جيشه ليستبيح حاشداً بأكملها، وفي الوقت نفسه أمر بهدم 16 بيتاً من بيوتي وبيوت أقاربي الأبرياء، واقتلع خمسين ألف شجرة من أشجار البنّ، ملك آل الأحمر.

لقد عَظُمَ عليَّ الخطب يا أمير المؤمنين، وتنازعتني مشاعر العطف على نفسي وعلى ولدي وعلى قبيلتي.. لقد كنت أستطيع أن أحاربه وسط قبيلتي، وأعتمد على الأبطال الأوفياء في حاشد، وكان أملي كبيراً في الانتصار عليه، ولكنني أشفقت على قبيلتي وكرهت أن تُسفَك دماء النساء والأطفال في حاشد بسببي، فقرَّرت أن أضحي بنفسي، وأفدي

قبيلة حاشد برأسي، لا سيّما، وقد تذكَّرت أنني شيخ كبير متقدِّم في السنّ، وقد عشت ما فيه الكفاية، فليس بكثير أن يكون رأسي الشائب الأبيض فداءً لحاشد.

ولكني، بعد ذلك، تذكرت الحبيب، ابني حميداً، وأنا أعرف أن الطاغية متعطّش لدمه أكثر مني، وأنه- ربَّما- ذبحه قبلي ليعذِّبني، ويقتلني بابني عشرين قتلة، ثم يذبحني بعد ذلك. ولمَّا حضر لي هذا الخاطر الرهيب تردَّدت مرَّة أخرى، وأبلست، وحار عقلي وقلبي بين التضحية بابني والتضحية بقبيلتي.. وأخيراً، عثرت على حَلّ، وهو أن يهرب ابني وينجو بنفسه خارج منطقة الجزّار، وأنا أسلِّم نفسي، وأكون، بذلك، قد فديت ابني وقبيلتي.

وخرج ابني من بلاد آبائه وأجداده هارباً، ورافقه جماعة من أوفياء حاشد وبكيل، فاعترضهم جنود الطغيان فدافعوا عن أنفسهم، ثم انهزموا، ولجأ ابني حميد إلى قبيلة الأشراف بالخوف، فأعطوه وجوههم الشريفة، وطلبوا من الوشّاح ياجناه أماناً، فأعطاهم الأمان، فسلَّموا حميداً.

أمّا أنا فقد كنت أعتقد أن ابني قد نجا، فطلبت- على سبيل الاحتياط- أماناً وعهداً من وليّ العهد، فأعطاني الأمان، ولكني لم أكن واثقاً بالأمان إلا أنني مستريح الضمير وطيِّب النفس برأسي وحياتي لأني قد فديت ولدي وقبيلتي. ولكن، يالفظاعة الكارثة لقد عرفت وأنا سجين أن ابني أيضاً سجين، وأدركت هول المصير، وأن الجزّار جبان وحقود،

ولابدّ أن يذبحنا معاً: أنا، وابني، وبعد ذلك سوف يذلّ قبيلة حاشد، ويحتقرها، ويشتري بعض المشائخ بالمال ليخونوا قبيلتهم وشعبهم، وسيسجن الأبطال الأوفياء، ويجعل البعض منهم كالسجناء في بيوتهم.

وقد حدث كلّ ما توقّعت، في فظاعة ووحشية.

لقد أرسل الطاغية أحد الزبانية يعذِّبني عذاباً وحشياً دنيئاً، جاء إليّ الجلّاد الوحش، وأنا أحمل الحديد في زنزانتي، وقال:

- أتدري- يا زعيم حاشد- من أين جئت الآن؟ إنني جئت من المسَنّ!

قلت: أي مسَنّ تعني؟

قال: كنت أسنّ السيف لأن الأمر صدر بذبح ابنك. إنني أنا الذي سأذبحه من قفاه، لقد ذهبت إليه، وعرضت عليه السيف الذي سنذبحه به، فلمّا رآه اشمأزّ وأغمض عينيه، ويظهر أنه شاب صغير حريص على الحياة. إن هذا السيف سيُفقِده عمره كلّه، أما أنت فإنه لا يأخذ منك إلا عشر سنوات على الأكثر، فلمّا رأيت ابنك يغمض عينيه أخذت يده بالقوّة ووضعتها على حدّ السيف، فلمّا لمس السيف قال لي: اتّقِ اللّه يافلان.. هذا سيف قد صدىء، فهو لايقطع العجين، فضلاً عن لحم صلب في عنق شاب قويّ خشن!

قال الجلّاد: فقلت له: ما أصنع؟ إن هذا أمر شريف.

قال حميد: إنني سأعطيك بعض النقود، وسأتنازل لك عن بقية

الوجبات الأخيرة في حياتي، في مقابل أن تختار سيفاً آخر تذبحني به.

قلت له: لا أستطيع أن أغيِّر السيف، ولكني سأصلحه قليلاً، وأعطاني حميد شيئاً من النقود التي كانت معه، فقلت له: إن هذه النقود لا تكفي.

قال حميد: اتّقِ اللّه، إنني لا أملك غيرها، وقد تنازلت لك عن وجباتي كلّها.

قلت له: ياحميد، يجب أن تعرف أنني لا أستطيع أن آخذ منك الوجبات كلّها، لأني أخشى أن تموت من الجوع، والمطلوب أن تموت من الذبح، وهناك شيء آخر ياحميد، هناك طريقة القتل، ولابدّ لي فيها من المساومة، حتى لو أصلحت السيف.

قال حميد: وماهي هذه الطريقة؟

قلت له: هل تريد ضربة واحدة، أم ثلاثاً، أم سبعاً، أم عشراً؟

فامتقع لون حميد، وقال: ليس عندي ما أعطيك غير ملابسي كلّها، فخذها.

فقلت له: هذا لايكفي، ثم تركته، وذهبت لإصلاح حال السيف، وجئت إليك أنت، أبيه؛ لعلك ترحمه، وترحم نفسك.

قال حسين بن ناصر:

ذلك هو اللون المتوحِّش من التعذيب، يا أمير المؤمنين.

وقد أعطيت الجلّاد كلّ ما كان عندي، فلمّا همّ بالانصراف ضحك في وجهي ضحكة السخرية، وقال لي: اللّه يفرِّج عليك، يابن ناصر، ويحفظ مولانا ياجناه.. إنني سأضرب ابنك ضربة واحدة، إذا استطعت.

وتركني الجلّاد، ومضى.

كانت نفسي- يا أمير المؤمنين- موزَّعة بين آلام حميد، فلذة كبدي، وبين آلامي من أجل نفسي، ومن أجل الشعب.

لقد ضاقت زنزانتي بتأوُّهاتي، فكنت أودّ أن تنزل عليّ صاعقة أو قنبلة، ولكني- بقوّة جزعي على ابني- وجدت عقلي وقلبي وخيالاتي تجتاز أسوار السجن، وتشهد المذبحة بظهر الغيب.. أتصوّر ابني والجلّاد يداعبه كما يداعب الوحش فريسته، ثم يجرّه بقيوده وأغلاله إلى ساحة الموت، ثم يحدِّثه عن عدد الضربات، ويعرض عليه السيف بعد إصلاحه، ثم يشدّ يديه خلف ظهره، ثم يطلب منه أن يقف على قدميه، ويحني رأسه للضربة، ثم تصوّرت الضربات الغادرة وهي تخطئ المقتل، وتحزّ رأسه، مَرَّةَ بعد مَرّة.. كلّ هذا- يا أمير المؤمنين- تصوّرته يحدث لابني وفلذة كبدي، وهو في ربيع عمره، وفي سنّ الطهر والبراءة والسذاجة، فاستفظعته، وأنا أتلوّى وسط زنزانتي الصغيرة، وكدت أسقط على الأرض، ولكني قاومت ضعفي، وإن ظللت أتلوّى من الألم.

وبينما أنا في هذا، إذ دخل عليّ الجلّاد، وفي يده السيف، وفي فمه

ابتسامة الظفر، وقال لي: احمد اللّه يا شيخ حسين..

لقد فرَّج اللّه على ابنك، اللّه يحفظ الوشّاح يا جنّاه، وأشار إلى السيف الذي في يده، وقال لي: انظر.. هذا هو السيف.. ألا ترى أنني عند ذمّتي، وأنني قد أصلحته، وكنت أستطيع أن أكذب عليك وعلى ابنك، ولا تستطيعان أن تصنعا بي شيئاً؛ فأنتما، بعد صدور الأمر، ملك لي: أنا أذبحكما كيف أشاء، وبالطريقة التي أشاء، فمولاي ـ اللّه يحفظه، ويديم بقاءه ـ يعطيني الصلاحية التامّة، ولكني عندي ذمّة وضمير وكلمة شرف، ومن أجل هذا تراني أعرض عليك السيف، وقد غسلته لئلّا يشتدّ جزعك عند رؤية الدم، دم ابنك.. واستطرد الجلّاد يقول: إنني ـ يا شيخ حسين ـ ما حزنت على إنسان قتلته كما حزنت على ابنك: إنه شاب صغير جدّاً، إنني أعتقد أنه بريء، وإذا كان قد أذنب فهو في سنّ الطيش وسنّه يغفر له، ولكن أمر مولانا ـ اللّه يحفظه ـ أمر محتوم، ونحن كلّنا رعيّته وملك يديه، وعلى كلّ حال، فأنا ـ يا شيخ حسين ـ عبد مأمور.

لقد دخلت على حميد، وهو في زنزانته، فقلت له: تعال، فقال: إلى أين؟ قلت له: ألا تعرف؟ قال: لا أعرف.

وجلست إلى جانبه، وتحسّست قيوده، فوجدتها محكمة، ثم ضربت بيدي فوق عنقه من الخلف كأنني أداعبه، فتغيَّرَ وجهه وقال: اخرج من عندي، اتركني.

فضحكت، ولكن يدي ظلت تتلمّس مفاصل عظام رقبته، فأدرك

حقيقة الأمر، واشتدّ وجهه امتقاعاً، وقال لي: أصدقني الخبر، هل جاء أمر بقطع رأسي؟

فحلفت له بذلك، وأكَّدت له الحقيقة، فقال لي: ألا يمكن أن أعرف، أو أسأل، أو أناقش سبب قتلي، فقلت له: لايمكن. قال: أعطني الأمر لأراه، قلت له: إن الأمر إنما هو إشارة خفية تأتينا برقيّاً، وهي إشارة بيني وبين مولاي، وعليك أن تحضّر نفسك بغير إهانة، وغيّرت له وجهي ياشيخ حسين؛ لأني مضطر لإنجاز العملية، ولابدّ من الصرامة وإلا فشلت، وعذّبته، وتعذّبت.. فقام متثاقلاً من مكانه ومشى إلى ساحة الإعدام صامتاً. ولمّا بلغ المكان المحدَّد للذبح شددنا يديه إلى خلفه، وأردنا أن نعصب عينيه، فكأنه أحسّ بحلاوة الحياة، فقال: (يارباعياه، يا جماعة).. إنني، الآن، في حداثة سنّي، ولو لم تذبحوني فربّما عشت ستين أو سبعين عاماً، وأراكم، الآن، تريدون أن تنتزعوا مني هذه الأعوام كلّها.. إنني أرجو أن تعطوني منها خمس دقائق أتمتّع بها، وأدخّن سيجارة واحدة، وأصلّي لله ركعتين.

فأعطيناه السيجارة، وتركناه خمس دقائق، فكان يدخِّن السيجارة، ويلتفت يميناً، وشمالاً، ويتأمّل جبال حجة وجدران الساحة، ويتأمّل السماء والشمس والهواء، ويقول: إن الدنيا حلوة.. حلوة وجميلة، ثم صلّى ركعتين، ورأيت وجهه يتبلّج في الصلاة، ولم أمهله بعد ذلك، فأمرته أن يقوم ويحني رأسه، ففعل، ونفّذت الأمر الشريف.. اللّه يحفظ مولانا.

وأنت الآن، يا شيخ حسين، احمد اللّه واشكره، فقد فرّج اللّه عن ابنك، وما بقيت إلا أنت!!

فقلت للجلّاد: وأين الشيخ عبداللطيف راجح؟ قال الجلّاد: وهذا قد ذبحناه، ولكنه كان بذيء اللسان: شتم مولانا، وهذا إجرام كبير. هل يوجد أحد يبصق على قبلته؟ لقد قال: إن مولانا ظالم، وإنه طاغية سفّاح، وقد عذّبته لهذا السبب، وقتلته عدّة مرّات، لامَرّة واحدة، فأرجوك- يا شيخ حسين- أن تصون لسانك، وتحسن خاتمتك، وأنت شيبة كبير، لاترضى لنفسك بالعذاب والإهانة.

قلت للجلّاد: ولكن، أنا عندي عهد من وليّ العهد، قال الجلّاد: أنا لا أعرف إلا الأمر بقتلك.. قلت له: ولكن، أنا سلّمت نفسي، ولم أحارب، ولم أهرب، ولم أرتكب ذنباً، وقد وثقت بوليّ العهد، وبكلمته ووجهه، والعرب لا يغدرون! قال الجلّاد: الحقيقة (وأنت رجل ذكي) أنه لايمكن قتلك وحدك، ولا قتل حميد وحده، لابدّ من قتل الاثنين معاً.. قلت للجلّاد: إذاً، فمتى تقتلني؟ إنني أفضّل السرعة، لاتدعوني أتعذّب لمصرعي، ألحقوني به سريعاً، قال الجلّاد: لقد أمر مولانا- اللّه يحفظه- أن لا نقتلك قبل 15 يوماً.

وظللت- يا أمير المؤمنين- أتعذّب خمسة عشر يوماً: من أجلي، ومن أجل ابني، ومن أجل قبيلتي، ولم تنقضِ مدّة التعذيب حتى صار لقاء اللّه أعذب عندي من الماء الزلال.

يا أمير المؤمنين: إن الطاغية يريد أن يروّع الشعب كلّه بقتلي، كما يريد

أن يذلّ حاشداً، ويخزيها، ويحطّ من شرفها بين القبائل، إنه يفعل هذه الأفاعيل بهمدان كلّها، وبالشعب كله، وأنا، الآن، بين يديك يا أمير المؤمنين.. أقصّ عليك قصّة الجريمة التي تُرتَكب باسمك وباسم آل بيتك، بدون حياء من الجلّاد، ولا خجل.

إنه يرتكب كلّ جريمة، وينسبها إلى اللّه وإلى رسوله وإلى آل بيت رسول اللّه؛ فهو، بذلك، يسيء إليك وإلى آل بيتك أكثر ممّا يسيء إلينا.

كرَّم اللّه وجهك يا أمير المؤمنين، وطهَّر رسالتك وعترتك من دنس الأدعياء الظالمين.

كان أمير المؤمنين، عليّ بن أبي طالب، والحسين بن عليّ أبو الشهداء، وكلّ الشهداء إلى جانبهم، والصدّيقون، يستمعون إلى كلمة زعيم حاشد في تأثّر بالغ، ولمّا بلغ حسين بن ناصر الأحمر إلى وصف مأساة الذبح اقشعرّت الجلود، وسالت الدموع، وعلت أصوات النشيج في جنبات القاعة.

كان الجميع يشعرون بأن هذه ليست مأساة فرد واحد مع ابنه وفلذة كبده، ولكنها مأساة الشعب بأسره، فإذا كان الطاغية يصنع هذا الصنيع برأس قبيلة عظمى ذات بأس وعزّة ومنعة، فكيف يكون صنيعه مع الآخرين؟ لقد أدركوا أن هذا صنيع طاغية إباحي سفّاح، لايحجزه عقل ولادين ولا سياسة ولا ضمير. إنه وحش حاقد هائج، يمارس عملية الانتحار، والعجب لشعب يترك هذا المخلوق المتوحِّش الفاقد للرشد والصواب، يحكم، ويدير شؤونه على هذا النحو الذي قد يؤدّي

إلى نكبات تعمّ الجميع!

ولمّا انتهى زعيم حاشد من كلمته دوّى في القاعة صوت رائع جليل، هو صوت أمير المؤمنين، عليّ بن أبي طالب (كرَّمَ اللّه وجهه)، فقال:

أين حميد؟ أين حميد؟

فإذا بالشهيد حميد يسرع إلى أمير المؤمنين، فيضمّه إلى صدره، ويقول له:

يعزّ عليّ- ياقرّة عيني- أن يكون مصرعك على يد آثمة خبيثة، تريد أن تلوّث سمعة آل بيتي، اغفر- ياحميد- لآل بيتي فإنهم أبرياء، وستنزل لعنة اللّه قريبة رهيبة على هذا الوحش الذي يقتل شابّاً حدثاً في مثل سنّك، ويقتل شيخاً وقوراً جليلاً في سنّ أبيك، أَوَلا يعرف هذا الوحش أن زعماء بلادكم قبل الإسلام كانوا يفدون على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم)، فيطرح لأيّ واحد منهم رداءه؛ تعظيماً واحتراماً، ويقول: إنه كريم قوم، وكان يفعل هذا مع المشركين، بينما هذا الطاغية الذي يدّعي الانتساب إليّ يذلّ همدان كلّها، ويستبيح أكرم رجالها وأطهر قادتها بعد كلّ بلائهم معنا طوال القرون، وجهادهم وولائهم!

أما واللّه، لقد فعل بآل بيتي مالم يستطع أن يفعله بهم كلّ الأعداء، في كلّ العصور، ثم أخذ عليّ (عليه السلام) بيد الشهيد حميد، وأفسح له مكاناً إلى جانب مكان أبيه حسين بن ناصر، الذي كان لايزال على منصّة الخطابة، فقال له عليّ (كرّم اللّه وجهه):

لقد أحزنتنا يا زعيم حاشد، وأدميت قلوبنا، وجدّدت لنا أحزان كربلاء، وما كنت أحلم أنه سيأتي في ذريّتي من يصنع ويزيد، ولكني، مع ذلك، ورغم مأساتك الأليمة، لابدّ لي أن ألومك وأعاتبك لأنك رضيت بتسليم نفسك إلى من لايراعي في المؤمنين إلّاً ولا ذمّة، (ووالله، إن امرءاً يمكِّن عدوّه من نفسه، يعرّق لحمه، ويهشِّم عظمه، ويفري جلده، لعظيم عجزه ضعيف ماضمّت عليه جوانح صدره. أنت، فكن ذاك إن شئت.. أما أنا فوالله، أن أعطى ذلك ضرب بالمشرفية يطير منه فراش الهام، وتطيح السواعد والأقدام، ويفعل الله بعد ذلك مايشاء).

وأراد أمير المؤمنين أن ينهي هذا النقاش، فقال (كرَّم اللّه وجهه):

إن علينا، الآن، أن نستمع إلى محامٍ يدافع غيابياً عن قاتل ابن الأحمر، فهل، في الحاضرين، من ينتدب للدفاع عنه؟ وسكت عليّ (عليه السلام)،فلم يستمع إلى أيّ جواب، وكرَّر الدعوة، فتكررت النتيجة، ثم قال (عليه السلام): أنا أعرف وجهة نظركم، وأعذركم، فما فيكم إلا من يشمئزّ من ذكر هذا الإنسان، فضلاً عن الدفاع عنه، ولكن، عندي رأي مقبول سأنفِّذه حالاً: إنني أطلب من سلطات الجنّة أن تفتح لنا موجة مرئية مسموعة إلى جهنّم، وهناك سنجد في المجرمين والمجانين والطغاة من يدافع عنه، وما كاد (عليه السلام) ينتهي من إشارته حتى اهتزّت القاعة بصوت رهيب هو صوت اللّهيب، ثم تراءت للحاضرين صور بشعة فظيعة من ألسنة الجحيم، واستمع الناس ـ فجأةً ـ إلى الشهيد عبداللّه بن أحمد الوزير، وهو يتمتم بكلمات غاضبة

كمن يواجه عدوّه في معمعة: {فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ}، فلم يدعه عليّ (عليه السلام) يستمرّ، وقال: مهلاً يابنيّ، دعنا نتعرّف إلى هذه الوجوه، فسكت الشهيد ابن الوزير، واتّجهت الأنظار كلّها إلى مايشبه شاشة عريضة للسينما، تتراءى منها صور من الجحيم، وتُسمَع أصوات، ورأوا مخلوقاً في شكل ريال نمسوي يشتعل، وهو يقول: أنا العماد أبو الوشّاح يا جنّاه، أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم، قال عليّ (عليه السلام): إنك مسؤول عن نفسك، وعما خلّفته للشعب من وراثة الطغيان، فهل أنت مستعدّ للدفاع عن خليفتك؟

قال العماد:

معاذ اللّه! أن أدافع عنه؟ إنني أنتظره بفارغ الصبر في الجحيم إنه قتل أولادي وجنى على أسرتي، وكانت له يد سوء في مصرعي، فلن أدافع عنه، ولكل امرىء منا شأن يغنيه.

وتراءت في الشاشة صورة أخرى، وقدّمها صوت من الجحيم قائلاً:

ـ هذا «هولاكو»، قال له (عليه السلام): هل أنت على استعداد للدفاع عن طاغية غائب، أتوقّع أن يكون لك صديقاً؟ قال هولاكو:

لا صداقة في الجحيم: {لِمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لعَنَتْ أُخْتَهَا}.. إنني، فقط، مستعّد أن ألعنه معكم، ثم تراءت في الشاشة صور عديدة لطغاة التاريخ، وكلّهم يرفضون الدفاع، حتى ظهرت صورة طاغية قدّمها صوت من

الجحيم، وقال: هذا هو المدعو (المنصور فلان)، وقد أبدى استعداداً للدفاع عن قاتل ابن الأحمر، لسبب واضح هو أنه قاتل قديم لجدّ آل الأحمر، وبعد أن استمع إلى قضية الاتّهام كلّها بدأ يتكلَّم بحماقة ظاهرة، فقال:

ألا تزال حاشد، منذ تركتها إلى اليوم، عاصية باغية ضدّنا ـ آل البيت؟ ألا يوجد من آل بيتنا من يبيدها من الوجود؟

وقد ضجّت القاعة بالضحك من هذه البداية الحمقاء، ولكن الحاضرين لم يعجبوا، ولم يفاجأوا لأن الجحيم لاتترك لأهلها سبيلاً إلى الإتّزان والرشد، ولكن عليّ بن أبي طالب انتفض غاضباً، وقال:

اخرس أيّها الأحمق.. ألم تستطع الجحيم، بكلّ آلامها، أن تعلّمك الحسرة والندامة والشعور بإنسانية الآخرين؟، أَوَ لا تخجل من أن تزجّ بنا ـ آل البيت ـ في هذه الجريمة؟ تكلّم ـ إن شئت ـ باسمك أنت وباسم الطاغية، وإلا غيَّبناك عن أنظارنا، فسكت المنصور قليلاً، ثم قال: نعم، سوف أفعل.

قال المنصور: إنني غاضب جدّاً، لأن الوشّاح ياجناه كان يكرم حسين بن ناصر إكراماً كبيراً.

قال عليّ (عليه السلام): يكرمه بالسجن؟

قال المنصور: بل يكرمه بالنقود.

قال عليّ عليه السلام: ومن أين للوشّاح ياجناه نقود؟ إنها أموال مغتصَبة من الشعب، يعطيها لمن يريد، ويحرم منها من يريد.. وإذا كان ما قلته حقاً، وكان الوشّاح يعطي زعيم حاشد عطاءً جزيلاً، فإننا نزداد إعجاباً بابن الأحمر، هذا الزعيم الأبيّ الوفيّ الأمين الذي أراد الطاغية أن يشتريه بالمال والعطاء الجزيل، فرفض أن يبيع شعبه وذمّته وضميره، واحتقر المال، وأنكر نفسه ومصلحته، وانضمّ إلى الشعب، وغامر بالحياة وبكل مايملكه في الحياة، ولم يفعل كما فعل الخونة من بعض مشايخ حاشد، الذين باعوا قبيلتهم بدراهم قليلة، وغدروا بها وبالشعب، فاستحقّوا المذلّة والخزي والعار.

إن الأموال التي في يد الشعب هي أموال مغتصبة، وهي ملك للشعب، وقد أخذ منها حسين بن ناصر، وأنفقها في تحرّكاته لجمع كلمة الشعب، والقضاء على أسباب الفساد.

قال المنصور:

ـ إنهم وجدوا أوراقاً، يُفهَم منها أن هناك حركة تريد طرد الهاشميين من البلاد.

قال عليّ (عليه السلام):

ومن أين جاءت هذه الأوراق؟ ومن جاء بها، وشَهِد أنها أوراقهم؟

قال المنصور:

لقد جاءت بها البغلة إليهم.

فضحك الإمام عليّ (عليه السلام)، وضحك الحاضرون، ثم قال:

حينئذ، نستطيع أن نفهم أن البغلة هي الشاهد الوحيد الذي شهد بأن الأوراق أوراق حميد!

قال المنصور:

بل خطوطهم دلّت عليهم، أيضاً.

قال عليّ (عليه السلام):

أين الخبراء والشهود العدول الذين أثبتوا أن الخطوط هي خطوطهم؟ ومن الذي يضمن أن الخطوط غير مزيَّفة؟ هل تستطيع البغلة ـ أيضاً ـ أن تكون خبيرة في معرفة الخطوط؟!

فلم يستطع المنصور جواباً على هذا السؤال بالذات؛ ولذلك زاغ عنه إلى سؤال آخر، فقال:

إنني أناشدك اللّه ـ يا أمير المؤمنين ـ: هل ترضى لأحد أن يتمرّد على خليفتك، أمير المؤمنين الوشّاح.

قال عليّ (عليه السلام):

ـ أفٍّ لك ولمنطقك! ومن قال لك أن الطاغية خليفتي؟

قال المنصور:

ـ أليس هو أمير المؤمنين، وأنت أمير المؤمنين؟!

قال عليه السلام:

ـ إنه ليس أميراً للمؤمنين، إنما هو مغتصب لحكم الشعب بالقوّة والإرهاب والوراثة الملعونة التي لعن اللّه يزيداً بسببها.

قال المنصور:

ـ على كلّ حال، إنه حاكم، والحاكم يجب أن يُطاع.

قال عليّ (عليه السلام):

من قال لك إن الحاكم يجب أن يُطاع؟ وإذاً، فلماذا تمرَّدَ الحسين ابني على يزيد، وتمرَّد زيد على هشام؟

إن الحاكم الذي تجب طاعته هو الذي يسير سيرتي في الحكومة الدينية، ويحمل اسم الخلافة، بشروطها المعروفة وحقّها المعلوم، وكذلك الحاكم الدنيوي الذي يبايعه الشعب، ويرضى بحكمه ويشاركه في تدبير شئون الدولة، ووضع تشريعاتها، ويملك ـ مع ذلك ـ حقّ عزله إذا شاء... أما أن يأتي شخص، في يده سلاح وإلى جانبه عصابة مسلّحة، ويقول للناس أنا حاكمكم، أنا أمير المؤمنين، أنا ورثت التسلُّط عليكم من أبي وعليكم طاعتي، فإن هذا لا يقال له (أمير المؤمنين)، وإنما يقال له رئيس عصابة!!

قال المنصور:

أَوَ ترضى- يا أمير المؤمنين- بالتمرُّد والفوضى؟

قال عليّ (عليه السلام):

إن المتمرُّد الحقيقي هو الذي يحمل السلاح لقهر إرادة الشعب، والخروج على سلطة الأمّة، ويقول لها: أنا الحاكم المتسلِّط، إن هذا هو الباغي على سلطة الأمّة، وهذه هي عقيدتي، التي قاتلت مؤمناً بها، وآثرت الحروب الطويلة لإقرارها، وكذلك فعل ابني الحسين وأبنائي الآخرون. إن الحاكم الذي يحكم بالوراثة، كما فعل يزيد وهشام وغيرهم، ثم ينتسب إلينا- آل البيت- إنما يطعن في رسالتنا من أساسها.... إن الحجّة الوحيدة التي حاربنا على أساس منها هي أن الخليفة يجب أن يكون جامعاً لشروط الخلافة، وأن يبايعه أهل الحلّ والعقد، بمحض الرضى، وأن يلتزم السيرة التي سرنا عليها، فإذا خالف ذلك وجب على الناس عصيانه والخروج عليه، والتضحية بحياتهم في مقاومته، وذلك هو نفس ما فعله الأئمّة الراشدون من آل البيت، ويا ليت حسين بن ناصر غامر بالحرب ضدّ الوشّاح، وتمرَّد تمرُّداً ثائراً عاصياً، إذن، لكانت منزلته عندنا أكبر مما هي عليه الآن.

قال المنصور:

إن ابن الأحمر تمرَّد، وأثار الفتنة.

قال عليّ (عليه السلام):

لقد قلت لك إنه لم يتمرَّد، وخطؤه عندنا هو خطأ الاستسلام، وهو خطأ وقع فيه بحسن نيّة، وقد شفع له عمل عظيم جليل قام به، وهو أنه محتسب لوجه اللّه جمع شمل البلاد، ووحَّد كلمة الشعب، كما لم يفعل أحد مثله من قبل، وكان ينوي أن يتقدّم بمطالب الشعب باسم الشعب كلّه، ويقضي على الظلم والفساد بطريقة فذّة رائعة، وينصف كلّ الفئات وكلّ الطبقات، ومنهم آل البيت.

إن عمل ابن الأحمر مبرور سليم، حتى ولو كان في ظلّ حكومة عدل وحق، وفي ظلّ أمير المؤمنين بحقّ.. إن رجال الشعوب في كلّ العالم يقومون بمثل هذا العمل، ويُعتبر عملهم في عهدنا، أمراً بمعروف ونهياً عن منكر، وسعياً في سبيل الخير العام، وفي العصر الحديث يعتبر هذا العمل إصلاحاً اجتماعياً وسياسياً يساعد الدولة، ويرشدها، ويبصّرها، ودول العالم كلها تقدِّر عملاً كهذا، وتشكر القائمين به وتحترمهم أيّما احترام، فمن العجب العجاب أن يبلغ الطغيان بالوشّاح إلى الحَدّ الذي يجعل التحرُّكات الإنسانية المبرورة في سبيل جمع الكلمة جريمة، يستحقّ صاحبها القتل، فإذا امتنع الخائف عن تقديم نفسه للقتل، استوجب حكماً آخر بالقتل وإباحة أمواله وحقوقه وإهدار دماء قبيلته كلّها.

ثم قال عليّ (كرّم اللّه وجهه):

وخلاصة ما نستخلصه في هذا الجدل: أن الوشّاح يا جنّاه ليس خليفة شرعياً، ولا حاكماً شعبياً، ولا يمثِّل سلطة دينية ولا دنيوية، وإنما هو رجل استولى على أموال الشعب بالحيلة والوراثة المجرمة والإرهاب وسفك الدماء، وهو لا يجمع شروط الخلافة الدينية، ولا شروط الحكم الحديث، وهو يرتكب الفظائع والمنكرات، ويحمي نفسه من الشعب بالدول الأجنبية، ويعرِّض البلاد لأخطار لا تحصى، وإذا كان يجني على الشعب كلّه، بصفة عامّة، فهو يجني على آل البيت، بصفة خاصّة.

مثل هذا الحاكم، لا يُعتَبر الخروج والتمرُّد والثورة عليه جريمة، وإنما يُعتَبر أمراً بمعروف ونهياً عن منكر، وجهاداً في سبيل اللّه، ومثل هذا الأمر نهض به شهداء آل بيتي، فاستحقّوا مكان القدسية عند اللّه والناس.

ومع ذلك، فالحسين بن ناصر لم يعلن ثورة، ولم يعلن عصياناً، وكلّ ما فعله أمران اثنان: الأوّل أنه نهض لدعوة الشعب إلى جمع الكلمة ونبذ الفرقة والمطالبة الجماعية بالإصلاح، والقضاء على الرشوة والطغيان، بالوسائل السلمية.

والأمر الثاني أنه امتنع عدة أسابيع عن تقديم نفسه للموت. وفي النهاية ضحّى بنفسه فداءً لقبيلته، واستسلم.. فهل هذا الاستسلام في وقت الرعب والفزع يُعتَبر تمرُّداً أو ثورة؟

أما ما يقوله المتقوِّلون من أنه وُجِدت أوراق عند الشهيد حميد تدلّ على أنهم كانوا يريدون قتل الهاشميين أو طردهم.. فأين هذه الأوراق؟ لماذا لا تُنشر على الشعب في محكمة عادلة؟ ولماذا لم يسمحوا لحسين بن ناصر أو ابنه حميد أو عبداللطيف بن راجح بالدفاع عن أنفسهم؟ وإذا وُجِدت الأوراق، فمن الذي يستطيع أن يثبت بأنها خطوطهم؟ أين خبراء الخطوط؟، وأين الشهود العدول؟ ثم، ماهي العبارات المحدَّدة التي فُهِم منها هذا الأمر الخطير؟ لماذا لا ينشرونها بنصوصها وبشهادة خبراء الخطوط حتى يستطيع الناس أن يحصلوا على الأمر اليقين؟

وأكرِّر القول: إن زعيم حاشد لم يرتكب، هو ابنه، عملاً ما يستحقّ العقاب: لقد امتنع الأب عن تقديم نفسه للوشّاح، ثم قدَّمها في النهاية، وهرب الابن لينجو من الموت، ثم دافع عن نفسه في الطريق ضدّ المهاجمين. هذا هو كلّ ماحدث.

ثم قال عليه السلام:

إنني أحبّ أن أذكر قضية عامّة حسّاسة بالنسبة إليّ وإلى حكّام هذه البلاد: إن الوشّاح ياجناه يضلِّل الناس بشبهة سخيفة لاسند لها من الشريعة، إنه يزيّف اسم الخلافة لنفسه، ويغتصب هذا الشرف الجليل بدون حقّ، ويجعل نفسه خليفة الله بدون حياء ولا خجل، ثم يرتّب على ذلك أموراً في غاية الخطورة، فيرفع نفسه، في مراتب القدسية، إلى مرتبة الله ورسوله، فيأخذ الآية الكريمة مثلاً، وهي قول الله سبحانه: {إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ}.

إنه يأخذ هذه الآية، فيزعم أن الذين يحاربونه إنما يحاربون الله ورسوله، فالذي أراه:

أوّلاً: إنه لا يستطيع أن يثبت لنفسه شروط الخلافة كما أسلفت، وثانياً: حتى لو كان خليفة، وكان في مثل مقامي في الخلافة، فإنني أنا، وقد حاربني أعدائي وقتلوا عشرات الألوف من أصحابي، بعد أن نكثوا ببيعتي، وبغوا عليَّ بالباطل.

أنا- عليّ بن أبي طالب- كنت أحاربهم في المعركة، فإذا أسرت أحداً منهم فإنني لا أقتله، ولا أستبيح دمه، رغم أنه قد قاتلني، وبغى عليّ، وسفك الدم الحرام، وقد كنت أنا أوّل من ابتُلِيَ بقتال البغاة من المسلمين، فأحدثت تشريعاً محدَّداً في حكم هؤلاء البغاة، وكنت أنهى عن اتّباع المدبر منهم، وعن الإجهاز على الجريح، فإذا ظفرت بأحد منهم فلا يمسّه مني سوء ولا مكروه.

ثم يجيء مثل هذا الوشّاح الطاغية، فيتّهم زعيم حاشد بأنه رفض الاستجابة له، أو بأنه جمع شمل الشعب، لتقديم مطالب الشعب، ثم يأتي بشهادة البغلة التي شهدت بأن الأوراق التي عليها هي أوراق حميد؟!!

يجيء الطاغية المتألِّه الذي استخفّ بعقول شعبه، فيزعم للشعب بأنه يذبح الأبطال باسم الله واسم آل رسول الله، ولا بأس أن يكون هذا الذبح مستنداً إلى شهادة البغلة أيضاً!! أين هذا الشعب الذي يحكمه الوشّاح؟ أين علماؤه؟ وأين أذكياؤه؟ أين رؤساؤه؟ كيف يتركون هذا الطاغية يستبيح الدماء الغالية الخطيرة، بمبرّرات من هذا السخف وهذا الهراء؟ أليس في الشعب كلّه من يضع حدّاً لهذه المذابح وهذه

المهازل؟، ثم اتّجه الإمام عليّ (عليه السلام) إلى المنصور، وقال له:

أمّا الآن، فغيِّب وجهك عنا، وانتظر حتى يلحق بك الطاغية الوشّاح في مكانه المرموق في جهنّم، وتغيَّب وجه المنصور من الشاشة، والتفت الإمام عليّ (كرّم الله وجهه) إلى الحاضرين قائلاً:

يكفي ما وصلنا إليه من هذه الحقائق والتحقيقات، ولم يبقَ إلا أن نستعدّ لإصدار أحكامنا وقراراتنا الأخيرة التي نقدِّمها إلى الشعب، وسأترككم الآن ليتناقش ممثِّلو الشعب، ويربطوا بين المشكلات وحلولها، ويجهِّزوا كل ما نحن في حاجة إلى إصداره، بصورة جماعية.

ونهض أمير المؤمنين، عليّ بن أبي طالب، من مكانه، ومضى.

الشهداء والصدّيقون يتدارسون مشاكل البلاد.

وانطلق صوت يملأ رحاب القاعة الكبرى: انتظروا، فالمؤتمر منعقد ومستمرّ.

وقعد الجميع على مائدة مستديرة واسعة، كانت في ركن من أركان القاعة الكبرى، وانطلق الصوت المدوّي مرّةً أخرى: ها أنتم، يامن تمثِّلون كلّ فئات الشعب، قد اجتمعتم، وعليكم أن تثيروا كلّ مشاكلكم بصراحة تامّة، فكلّكم هنا مُطَهَّرون مُنَزَّهون، وليبدأ الكلمة أحدثكم استشهاداً، وأقربكم إلى روح الشعب وإلى التحسُّس بالمأساة.

ونهض آخر الشهداء، زعيم حاشد، حسين بن ناصر، ووقف في مكانه،

ثم قال:

إخواني:

لقد تركت الشعب وهو يغلي غليان المرجل، فلم يبق عرق في حياة الملايين إلا وهو ينبض بالثورة والحقد، وليس هناك ما يمنعه عن إعلان إرادته إلا رأب الصدع الذي أصابه بمصرعي، لقد كنت جمعت كلّ القوى وكلّ القيادات. وبطبيعة الحال، كان في بعض الذين ارتبطت بهم وتعاهدت معهم فسولة، وفيهم خسّة، لا سيّما في حاشد التي وجد فيها مشايخ ممن عاهدوني عهوداً غليظة، باعوني وخانوا الأمّة، وباعوا حاشداً والشعب كلّه ببعض المال التافه النجس، ويوجد مشايخ تردّدوا وخافوا، وتركوني، وسكتوا فلم يكونوا لي، ولم يكونوا عَليّ.

إننا نعزّي شعبنا لوجود هذه العناصر التي فقدت رجولتها بين الرجال، هذه العناصر التي لا تعرف معنى الشرف، ولا معنى الكرامة، ولا معنى التحرُّر والانعتاق، ولكنّا، من جهة أخرى، لا ينبغي لنا أن نأسف، ولا أن نحزن فإن المشيئة الإلهية تعمل عملها الرائع في بلادنا دون أن نشعر: إنها تنتزع كبار القادة، وتقودهم إلى مصارعهم، وتختار لهم جوار ربّهم، حتى لاتتغوّل شخصياتهم، وتصبح أكبر من القضية التي يمثّلونها، إنها تبعد الوكيل وهو القائد، ليستطيع الناس أن يتعرّفوا إلى الأَصِيل، وهي الفكرة، إنها تطفئ حياة أفراد، وتشعل روح الملايين.

لقد كانت حاشد تعرفني، وتعرف أسرتي، فاختارت مشيئة الله الحكيم أن تجعل مني درساً، تتعلّم منه حاشد أسرار القضية التي قتلتُ لأجلها،

فربّما كانت القضية غير واضحة وضوحاً تامّاً، لأن الناس كانوا ينظرون إلى القائد الذي يمثّلها، ويشغلهم الاهتمام به عن الاهتمام بها، أمّا الآن، فإن القضية هي موضع الدرس والتعرُّف والاهتمام.

والحكمة الأخرى أن الأقدار تُجري، في الوقت نفسه، عملية تمحيص واختبار وغربلة في صفوف الرجال الذين لم يُكتب لهم شرف الاستشهاد، ولا شكّ في أن الذين كانوا قد عاهدوني وغدروا بالعهد، قد انكشفوا للشعب، فأدركهم على حقيقتهم، ولن يأتمنهم على عمل شريف آخر، وسيبقى للقضية الرجال الذين امتحنتهم فنجحوا في الامتحان، واجتازوا، كلّ مراحله، أمّا الذين سقطوا في الامتحان فهم كما قال القرآن الكريم، وهو يكشفهم لنا: {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} أو كما قال: {وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}.

يا حضرات السادة:

إن الطغيان يعتقد أنه، بالقضاء علينا، سيتخلَّص من الرسالة التي نمثّلها، وهذا غباء مضحك، ما أشبهه بصنيع إنسان أبله، تغيظه الفكرة في كتاب مطبوع يقرؤه، فيحرق هذه النسخة التي كان يقرأ فيها. وهو يظن أنه تخلَّص من الفكرة كلّيّةً، ومن الكتاب، ولا يستطيع غباؤه أن

يدرك أن الذي أحرقه نسخة واحدة من ألوف النسخ!

إن الذي كان مكتوباً في صدر عبدالوهاب نعمان، وعبدالله الوزير، وعزيز يعني، ورعيلهم الأوّل جميعاً، كان مطبوعاً في صدري طبعته الثانية المصححة يوم قتلت، كما هو مطبوع في ملايين الصدور. فليحرق الطاغية ما شاء من النسخ، فإنه لو بقيت نسخة واحدة لكانت نواة لطبع الملايين على غرارها.

وقد قلت إن الشعب لا يمنعه من أن يتحرّك إلا رأب الصدع الذي أصابه بمصرعي؛ أي تصحيح النسخة، فأنا ـ ربّما ـ قد أخطأت في الثقة بمن لا يستحقّون الثقة، ولا شكّ في أنهم، الآن، قد انكشفوا للشعب، وربّما أخطأت لأني بالغت في التروّي وفي الحرص على الطريق السلمية، وتركت للطاغية فرصة المبادءة والمبادرة، وطمعت أنه سيترك لنا فرصة الترفُّق بمصيره ومصير عائلته، والخروج من المحنة، بطريقة لا تسوؤه كثيراً، وتبين، الآن، أن ذلك وهمٌ في وهم..

والخطأ الكبير الذي أعترف به، وأنا أشعر بالخجل، أني رغم اعتزامي الأكيد على التضحية بحياتي وافتداء قبيلتي، إلا أنه كان يوجد عندي بصيص خفيّ من الأمل في النجاة، ولو أنني جعلت شعاري: (النصر أو الموت)، لكنت قد نجوت بكلّ تأكيد، لأني كنت سوف أستميت، وأواجه الجزّار في المجزرة، ولو بعدد محدود من رجالي، وكنت سوف أنتصر حتماً، فوجود الأمل الكاذب هو الذي أجهز على حياتي وعلى عزيمتي، كما فعل من قبل، بثوار 48 و55. إن الطمع في الحياة عند

العدوّ الغادر سراب قاتل، طالما غَرَّرَ بالرجال.

تلك بعض الأخطاء البارزة، ولا بدّ أن الشعب سيعرفها ويتجنّبها؛ وبذلك يرأب الصدع، ويصحِّح النسخة، ويصدر الطبعة الثالثة!

إنني أطلب ـ يا حضرات الزملاء الشهداء ـ أن تساهموا مع الشعب في تصحيح النسخة الأخيرة. وبما أن فيكم الممثِّلين لكلّ الفئات فإني أرجو أن يبدي كلّ ممثِّل لفئة ما رأيَه صريحاً.

ونهض الشيخ عبدالوهاب نعمان، فقال:

علينا ـ أيّها الأخوان ـ أن ندرس القضية على أساس جديد، فلقد كنت سمعت من الأستاذ العزّي محمود تقريراً مفصّلاً عن الموقف، وعرفت منه التطوّر الهائل الذي تطوّر إليه الوعي في البلاد.

لقد كنّا عام 48 نتمتّع بنعمة الوفاق، ولو بشكل سطحي ظاهري، على معظم أسس الحياة، وكنّا طليعة محدودة العدد، يمكن أن تكون العلاقات الشخصية الودّية بين أفرادها عاملاً مهمّاً في توجيه سياسة الدولة وتكييف برامج الإصلاح والتطوّر.

أما اليوم، ففي البلاد تيّارات وفلسفات وفئات، يوجد فيما بينها خلاف موضوعي، لا تغني فيه الصلات الشخصية، ولا النوايا الطيّبة الغَناء الحاسم الذي كانت تغنيه من قبل.

وهذا الخلاف يتحوّل إلى خوف من المستقبل. والخوف قد يدعو

بعض الفئات الخائفة إلى البحث عن الطمأنينة المحرَّمة، وقد يؤدّي إلى أن تنتكس بعض الفئات الواعية، وترتدّ عن مستواها التقدّمي إلى مستوى رجعي، ظانّة أنها تبحث عن سلامة مستقبلها، وقد يلجأ البعض إلى تدعيم العهد الرجعي الباغي الذي ضحّينا بحياتنا في سبيل التخلُّص منه.

ومعنى هذا- والعياذ بالله- إلغاء كلّ معنى وكلّ قيمة لتضحياتنا بجماجمنا ودمائنا، فلنبحث هذه العلّة الجديدة، وليكن رائدنا الصراحة، لكي نشخّص المخاوف، ثم نبحث عن وسائل الأمن التي تصلح أن تكون ملتقى للجميع، فتسير كلّ الفئات في طريقها، وعندها ضمانات الأمن والطمأنينة.

وأنا أستطيع أن ألخِّص المشكلة القائمة اليوم بأنه لا توجد في الوطن فئة من الفئات تستطيع أن تنفرد بتغيير الأوضاع، والسيطرة على أزمة الحكم نيابةً عن بقية فئات الشعب، ولكن الوجه الآخر والأخطر، للمشكلة، أن كلّ فئة- مهما صغرت- قد تستطيع أن تقوم بدور التخريب والتعويق ضدّ أيّة حركة شعبية ثورية تقوم بها فئة أخرى أو عدّة فئات؛ وذلك طبقاً للمثل القائل: (مخرّب غلب ألف عمّار)، كما تستطيع أصغر فئة ثورية أن تقلق راحة الطبقة الحاكمة، وتنغِّص عليها حياتها، وتجعلها محرومة (أو كالمحرومة) من كلّ مكاسبها.

وحلّ المشكلة، من وجهيها، هو أن يكون بين فئات الشعب عهد مشترك ضدّ مثل هذا التخريب، ولن يتمّ مثل هذا العهد، بطبيعة الحال،

إلا إذا أمنت كلّ فئة على مصيرها ومستقبلها، في ظلّ أي حكم يخلف هذا الحكم الراعن.

وقام الشهيد الأحمر، فقال:

هذه فكرة بالغة الأهمية. وإذا تمّت فسوف تأمن الحركة الوطنية من أن تُطعَن من الخلف. وعند قيام عهد جديد سيكون محوَّطاً بحراسة الشعب كلّه، وسيكون آمناً من الخيانات والغدر، وإن لدينا عبرة قريبة: لقد قمنا بحركتنا الأخيرة، فاستطاعت فئة قليلة مستضعفة أن تقوم بدور خطير للقضاء على مجهودنا، عن طريق الدسّ والوشايات وإفشاء الأسرار وتحريض الطغيان ضدّنا، وأنا، الآن، لا أحبّ أن أكشف دورها في الخيانة ولا أن أصرِّح بالأسماء؛ لأني لا زلت أطمع في مزية التضامن الجماعي رغم أن هذه الفئة حاولت ـ حتى بعد مصرعنا ـ أن تفتري علينا الأكاذيب، وتنسب إلينا خطّة ضدّ الهاشميين، نحن مُبرَّؤون منها، ولو كنا قد نجحنا في إقناع جميع الفئات بنوايانا، وقدّمنا لها ضمانات الأمن على مستقبلها لتغيَّرَ مجرى الأحداث. نعم، إننا حاولنا ذلك بكلّ ما نملك من جهد، غير أننا لم نستكمله، فأعجَلَنا الطغيان بدسائسه، وقضى علينا.

ونهض، بعد ذلك، الشهيد عبدالله بن أحمد الوزير، فقال:

وأنا أؤيِّد هذا الرأي من كلّ قلبي، وأذكر ـ للعبرة ـ أنني منذ فجر حركتنا، عام 48، انفجرت الشكوك في نفسي ضدّ الأحرار جميعاً، وتوجَّست خيفةً، حتى من ابن عمي الشهيد علي بن عبدالله الوزير،

وأبلغني أنهم كانوا ينوون إزاحتي، ووجدت نفسي بين نارين: نار العدو، ونار الصديق.

وقام الشهيد عزيز يعني، فقال:

ـ وأنا موافق على الفكرة، وأشهد ـ بكلّ صراحة ـ أن الشهيد عبدالله بن الوزير كان قد تغيَّر عند نجاح الثورة تغيُّراً أدهشني وأفزعني، وأنا أَلْصَق الناس به، فقد كان يصارحني بأنه سوف يتخلّص من الأحرار، وقد أفضيت بهذا السرّ إلى البعض منهم، ولمّا أصبحت في السجن صارحتهم بالحقيقة كاملةً، وعزوت الفشل إلى ما عرفته من الشكوك والنوايا الخطيرة المبيَّتة التي جعلت رجال الثورة يتصارعون فيما بينهم، بينما عدوّهم لا يزال يواجههم في الميدان، مجمع القوى والعزم، في شخصيته المنفردة. وقد كنت أرى قائد الثورة وهو متردِّد في إجراءاته الثورية وممسك بالعصا من الوسط، كما يقولون، فتلكّأت خطوات الثورة، بينما كان وارث العرش يمضي قُدُماً، مستميتاً، بلا تردُّد. أقول هذا بكلّ ودّ وإخلاص، ونحن في دار الخلد، حيث نزع الله من قلوبنا الغلّ، وأصبحنا كلّنا أحبّة. غير أن هذه الصراحة تُعتَبر أمانة في أعناقنا لمن بعدَنا، كي لا يقعوا فيما وقعنا فيه، وأنا أشكر زعيمي، الشهيد عبدالله بن أحمد الوزير على أن بدأ هو بلَمْس هذه النقطة الحساسة، كما أشكر الشهيد (حميد).

ونهض الشهيد علي بن عبدالله الوزير، فقال:

أنا مرتاح جدّاً لهذا النقاش، فليس كالصراحة الهادئة الهادفة شيء

يصفّي القلوب والمواقف، وأنا أعترف بأنني كنت مرتاباً في ابن عمي الشهيد عبدالله بن أحمد الوزير، وكنت أخشى أن يرتدّ بنا إلى ما يشبه العهد الذي تخلَّصنا منه، وكنت لا أخفي عنه مخاوفي، بل أواجهه بها علناً، أمام الناس، فكان هو يزداد ريبةً وتلكُّؤاً.

وعلى أثر ذلك، قام العزّي محمود، وقال:

يسعدني أن أحضر معكم أيّها الشهداء، ويكون لي شرف هذا الحضور، وأنا أودّ أن أساهم في تصفية الموقف بكلّ إخلاص، ولا أحبّ أن تُفهَم صراحتي إلا على أنها تهدف إلى مزيد من التلاقي والتقارب؛ وعلى هذا الأساس أذكر أني، في فجر الثورة، تقدّمت إلى الإمام، الشهيد عبدالله بن أحمد الوزير.

وماكاد العزّي محمود ينطق بكلمة (الإمام) الشهيد حتى اعترضه عبدالله الوزير نفسه، فقام من جلسته محتقن الوجه مقطِّباً، ونصب أصبعه، وألصقها بشفته، وأشار إلى العزّي محمود، وقال:

أص (صه)، أرجوك ـ يا أستاذ ـ أن تشطب كلمة (إمام) من اسمي، فقد صحونا في الجنّة، وأدركنا ما لنا وما علينا، وكلمة الإمام هذه كلمة ضخمة، لا أطمع لنفسي ولا لغيري أن نبلغ درجة الاستحقاق لها، وكلمة الفصل، في هذا الشأن، هي كلمة الإمام الهادي القائل: «إن هي إلا سيرة عليّ، وإلا فالنار»، وإن هذا العصر نفسه لا يحتمل كلمة الإمام، فقد وُلِدت مبادىء ونظم ومعتقدات وفلسفات تغمر روح الأرض جميعاً، فلو بُعِث الإمام الهادي نفسه، في الدنيا، مَرّةً أخرى،

لما استطاع أن يكون إماماً، لأنه من المستحيل على أيّ حاكم أن يقنع الناس بفكرة الإمامة ونظمها وتقاليدها، فليست المشكلة تكمن في شخصية الحاكم، فقد يأتي حاكم صالح على استعداد لحمل أعباء الإمامة وأماناتها، ولكن الإمامة هي نظام يشترك في تطبيقه وحمل أعبائه الإمام وشعبه معاً، فإذا لاحظنا أن الشعب تغمره روح عصر جديد أدركنا أن الملايين لا تستطيع أن تعيش بروحين، ولا بوجهين: وجه للقرن الثالث الهجري، ووجه للقرن الرابع عشر! أنا متنازل- يا أستاذ عزي محمود- عن هذا اللقب، وطيب النفس إذ أجدك تتكلَّم بصراحة، لأنك تخدم الفكرة التي استشهدنا جميعاً في سبيلها. لقد شفانا الفردوس من شعور بالنقص، يجعلني أرى عزيز يعني من خدّامي، وكانت المسافة بيني وبينه بعيدة، أما الآن، فإني أراه أخي، وها أنت تراه على قدم المساواة معي، وتسمعه يصارحني،وأنا مغتبط مسرور، وإذا كانت الحقيقة أننا أخوة، فإن الحقيقة جزء أصيل من حياة الجنّة.

وأخيراً، أرجو أن تستمرّ- يا أستاذ- في المضيّ بحديثك إليّ، حيث تشاء، بعد تصحيح اللقب.

استأنف العزّي محمود حديثه قائلاً:

أنا- وإن لم أكن من سكّان الجنّة- في هذه اللحظة، أشارك أخي الأكبر، الشهيد عبدالله بن أحمد الوزير في لذّته السامية بروح الأخوّة التي تسودكم، وجلال الحقيقة التي تحيا معكم في دار الخلود. والآن،

سأعود إلى الموضوع.

إنني في فجر الثورة، عام 48، جئت إلى الشهيد عبدالله بن أحمد الوزير، واقترحت عليه إصدار الأمر السريع بانتقال الشهيدين: عليّ بن عبدالله الوزير، وعبد الوهاب نعمان إلى منطقة الجنوب ليضمنا صمود المنطقة ضماناً أكيداً، فرأيت الشكّ في عيني الشهيد عبدالله الوزير، وعرفت أنه يظنّنا متآمرين ضدّه، وأننا نريد أن نركِّز في الجنوب قوّة مناوئة له، فتلكَّأ عن الموافقة، وماطَلَ حتى حلَّت الكارثة بالجميع.

ونهض الشهيد المسموم حسن الدعيس، فقال:

إننا نستطيع أن ننهي هذا الجزء من مناقشاتنا لنستنبط منه عبرة أو فكرة، فإذا نحن حدَّدنا جبهات الصراع المفهوم من هذه التصريحات العديدة المتعلِّقة بثورة عام 48، لوجدناها بارزة في كتلتين اثنتين: كتلة الأحرار الذين حملوا لواء الحركة التحرُّرية العلنية المنظّمة التي سبقت ثورة عام 48، فمهَّدت لها، وشاركت فيها، وكتلة الطبقة الحاكمة التي استجابت لدعوة الأحرار، وانضمّت إلى صفوف الشعب، وربطت مصيرها بمصيره، وكان انضمامها إلى الحركة عاملاً فعّالاً في سرعة قيام الثورة.

لقد فهمنا، الآن، أنه كان يوجد شكّ متبادَل بين الطرفين، رغم كلّ مظاهر الوفاق السطحي، وإذا كان هذا قد حدث في ذلك الوقت المبكِّر فإن مثل هذا الشكّ واقع قائم بشكل أخطر، بل إننا، الآن، لا نستطيع أن نسمّيه شكّاً، إنه عداء، قد يكون سافراً حيناً، ومقنَّعاً أحياناً،

فإذا رأينا أنه من الضروري، لنجاح ثورة البلاد وتطوُّرها السليم، أن تتعايش الكتلتان وتتعاونا على نجاح الثورة، ويساهم كلّ منهما بالعمل الذي تسمح به ظروفه لكي يشتركا معاً في التعايش بسلام، في ظلّ العهد الثوري، فإننا ـ حينئذ ـ ملزمون بتعيين حدود الملتقى بينهما، وهو، في نظري، يتلخّص فيما يأتي:

يتعهّد الأحرار عهد الشرف بإسدال الستار على كلّ التبعات والمسؤوليات التي يحمل عبئها فرد أو أفراد من الطبقة الحاكمة، إذا رغب، أو رغبوا، في تغيير الأوضاع الفاسدة، وساهم، أو ساهموا، بنصيب معترف به في المجهود الثوري، قبل حدوث الثورة وفي أثناء حدوثها، كما يتعهّد الأحرار بأن يتيحوا لمثل هؤلاء الأشخاص فرصاً في مجال الحياة السياسية، تكافئ فرص الأحرار المعارضين الذين رفضوا الاشتراك في الحكم الفاسد وتبعاته، ويتعهَّد الأحرار بأن لا يسمحوا بوقوع أيّ نوع من الأذى أو المؤاخذة أو الانتقام ضدّ أيّ فرد من هؤلاء الأفراد المذكورين آنفاً، بشرط أن يقلع هؤلاء الأفراد، منذ صدور عهد الشرف هذا، عن أيّ عمل أو قول يضرّ بالمجهود الثوري.

إن عهد الشرف هذا يُلزم الأحرار برعايته والوفاء به، وإلا كان الأحرار قد ارتضوا لأنفسهم أن يبدأوا عهدهم بعمل مشين ضدّ العهد والشرف، ويستثني من هذا الاحتياطات الضرورية في أثناء فترة الثورة، إذا رأى الثوار لزومها، بشرط أن تكون احتياطات غير ضارّة وغير مهنية. أما الأشخاص من هذه الطبقة، الذين لا يريدون المساهمة في المجهود الثوري، أو لا يستطيعون ذلك، ولكنهم يتجنّبون، منذ صدور عهد الشرف

هذا، ارتكاب أيّ عمل أو قول ضدّ المجهود الثوري، فإن الأحرار، كذلك، يسدلون الستار على ماضيهم، بحيث لا يتعرَّضون لعقوبة أو انتقام، ولكنهم لا يلتزمون لهم بفرص في المجال السياسي. والمعوّل في مثل هذه الفرص، على إرادة الشعب واتّجاهاته.

ونهض، بعد ذلك، زعيم العدين، الذي مات كمداً في السجن، فقال:

ما دامت الصراحة تبدو جميلة ورائعة على هذا النحو، فإني مضطرّ أن أفترض وجود مشكلة، كانت ذات أثر في أوائل العهد الأسود الذي عشت فيه، ومتّ فيه.

هذه المشكلة التي أفترض وجودها هي أن هناك، بين بلادنا العليا وبلادنا السفلى، ثم بينهما معاً وبين تهامة، نوعاً من الشعور بالمذهبية، وهذا ليس مجرّد شعور فحسب، بل هو متجسّد في فرض نوع الحكم الذي يدين به، (مذهباً)، سكّانُ المناطق العليا، كما كان عهدي بهم من قديم، وهو نظام الإمامة الذي لايدين به سكّان المناطق السفلى، ولا يعترفون به، ويشعرون ـ تبعاً لذلك ـ أنه لا يمثِّلهم، ولا يعبِّر عنهم، بل هو مفروض عليهم فرضاً، ولا ريب في أن الحرص على وحدة البلاد يفترض أن يُستبدل بهذا النظام نظام آخر يعبِّر عن الشعب كلّه، وتتضاعف خطورة هذا النظام السياسي العتيق إذا نظرنا نظرة شاملة إلى الجزء المستقلّ وإلى الجزء المحتلّ، فإن سكّان المناطق المحتلّة يشعرون، كذلك، بأن نظام الإمامة نظام يناقض مذهبهم وعقيدتهم الدينية، والاستعمار يستغلّ هذا التناقض، ويتّخذه ذريعةً لتدعيم

الاتّجاهات الانفصالية.

وقد نشأ عن هذا النظام المذهبي تمييز بين المواطنين في نوع المعاملات الحكومية، وفي فرص العمل والتوظّف، وفي التشريعات القضائية المشتقّة من نظام الإمامة.

فأيّ تفكير في وحدة البلاد: العليا والسفلى، المحتلّة والمعتلّة، بل أيّ تفكير في الوحدة العربية، سوف تكون دعامته، في المستقبل، اختيار نظام حكم شعبي يمثّل الشعب كلّه، على أسس ديموقراطية، ويترتّب على النظام الديموقراطي الشعبي حياة للمواطنين، على قدم المساواة، في كلّ شأن من شؤون الحياة،كما يترتّب عليه- أيضاً- قدرتهم على تحقيق الوحدة العربية. إن نظام الحكم هو الضمانة الوحيدة القادرة على خلق شعور من الاطمئنان المطلق إلى العيش بأمان في ظل وحدة محلّيّة في الوطن الصغير، كما أنه الضمانة الوحيدة التي تمكِّن الشعب، وتتيح له أن يختار طريق الوحدة العربية، إذ إن نظام الإمامة يتنافى مع الأسس السياسية للوحدة القومية التحرُّرية، لأنه نظام لايتحرَّك مع الزمن، ولايتيح للشعب أن يختار، وأن كلّ الذين يؤيِّدون بقاء العرش الراهن وبقاء النظام نفسه، وهو نظام الإمامة، هم- في الواقع- يحاولون توطيد حاجز أبدي، يمنع البلاد من تحقيق الوحدة بينهما وبين الأقطار العربية الأخرى.

فلنضمّ إلى عهد الشرف ما يأتي:

إلغاء نظام الإمامة؛ حرصاً على استبداله بنظام يمثِّل الشعب، على

أسس ديموقراطية سليمة، ويطمئن المواطنين في المناطق العليا، والمناطق السفلى، وفي الجزء المحتلّ والجزء المعتلّ، إلى العيش على قَدَم المساواة الكاملة، في ظلّ وحدة شاملة، كما يُطَمئِن المواطنين إلى إمكان السير في طريق الوحدة العربية، وتحقيق خطوتها الأولى في الانضمام إلى الجمهورية العربية المتَّحدة.

وهنا، تحرَّك ـ لأوّل مَرّة ـ نشوان الحميري، وفاجأ الشهداء، جميعاً، بحماس حادّ، وقال:

أنا لا أعرف، في بلادي، شافعية ولازيدية، وإنما هي حِمْيَر وحدها سيّدة بلادها، إلا أنني أعرف أن الإمامة قد خلقت فروقاً بين أبناء الشعب الواحد، وأنني، منذ هذه الجلسة، لأستمع إليكم، في رعب شديد، لأسماء سمّيتموها، ما أنزل الله بها من سلطان، فلنضع حدّاً لهذه الفروق.

وقال الشهيد زيد بن علي الموشكي:

الواقع، وبكلّ صراحة، أنه يوجد ـ أيضاً ـ فروق بين ما يسمّى هاشمي، وما يسمّى قحطاني. وفي رأيي أن هذه الفروق مصدرها هي العلة الكبرى أمّ العلل جميعاً، وهي الإمامة، وحين يحكم الشعب نفسه بنفسه حكماً ديموقراطياً سليماً ستكون لكلّ فئة من فئات الشعب فرصة عادلة للتعبير عن وجهة نظرها والمطالبة بحقوقها، فإن الحكم الشعبي ـ وإن كان هو حكم الأكثرية ـ ينطوي على ضمانات شرعية لحقوق ذوي الأصوات الأقلّ عدداً، وإن الذين يطالبون بالجمهورية وبالديموقراطية

ما نظنّهم في حاجة إلى المطالبة بالمساواة.

نعم، إن هناك شيئاً جديداً، لابدّ أن ينضمّ إلى كلمة الديموقراطية، وهو العدالة الاجتماعية. ولكن.. ولكن الديموقراطية النزيهة السلمية في عهد ثوري نظيف ستتيح للأكثرية الكادحة أن تختار الاشتراكية نظاماً اقتصادياً، يجعل العدالة والحرّيّة والمساواة والوحدة القومية حقيقةً واقعية، لاكلاماً ضائعاً في الهواء.

وفي وقت واحد، نهض الشهيد أحمد المطاع، والشهيد المسموم أحمد بن عبدالوهاب الوريث، ثم عاد الشهيد الوريث فقعد، وأتاح الفرصة لزميله أن يتكلَّم. قال الشهيد المطاع:

ـ لقد تحدّثتم، جميعاً، عن صور عديدة للفُرقة، وتناسيتم أخطر صور الخلاف في العصر الحديث، وهي تيّارات المذاهب الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسة، والتيارات القومية، وأجلّها شأناً، بالنسبة إلينا، هو التيار العربي الوحدوي التحرُّري. ولاشكّ في أن هناك فئات عديدة أو نواة فئات تعتنق هذا المذهب أو ذاك، ولابدّ أن تعطي الضمانات على مستقبل مذهبها العقائدي، أيّاً كان لونه.

ونهض الشهيد الوريث مرّة أخرى، ليعقِّب على كلام زميله قائلاً:

الحقيقة ـ يا إخواني ـ أن الديموقراطية هي الجواب عن كلّ سؤال، وهي الحلّ الحاسم لكلّ إشكال. إننا نريد أن تتاح، في ظلّ الديموقراطية، الفرص الكاملة لكلّ المواطنين، لكي يعبّروا عن احتياجاتهم ومذاهبهم

واتّجاهاتهم، بكل حرّيّة، ولكنا نريد أن يمارسوا حقوقهم هذه في ظلّ كتلة أو جبهة واحدة؛ بحيث لاتتحوّل الفئات الصغيرة إلى شعوبيات ضيّقة صغيرة، وأوطان شائهة بتراء، يحارب بعضها بعضاً. إن الخلافات حقّ مشروع من حقوق الإنسان، وهي سبيل التطوُّر والتقدُّم، على أن لايُتاح لهذه الخلافات أن تعلو على الولاء الجماعي للكتلة المتضامنة المتَّحدة، أو على الولاء الأكبر للوطنية المحلّيّة والوطنية القومية. إن تغليب الولاء للكتلة الكبرى وللوطنية والقومية هو المعيار الحاسم لما يجوز، ولما لايجوز، من الخلافات.

وقام الشهيد المسموم قاسم حسن أبو رأس، زعيم بكيل، وقال:

إنني أعتقد أنكم قد استوفيتم بحث المشكلات، وانتهيتم إلى حلول مرضية للجميع، وإني لأرى وجوهكم جميعاً، وهي ناطقة بالغبطة والرضى، فلتُقَدَّم هذه النسخة المصحَّحة، في طبعتها الثالثة، إلى شعبنا، وليطمئنّ أخي وزميلي، الشهيد حسين بن ناصر، وابني الشهيد حميد، وزميلي الشهيد عبداللطيف بن راجح، فإن الشعب سوف يتلقّى هذه الطبعة الثالثة، ويخرج بها رافع الرأس مشرق الوجه إلى المحيط العربي والعالمي. إن هذا الذي وصلنا إليه، في مؤتمرنا الأخير، هو أهمّ شيء يقدِّمه ضيفنا العزّي محمود إلى عالمه الذي سيرجع إليه، وإنا أحمّله تحيّاتي إلى الشعب كلّه، وإلى بكيل الباسلة الشامخة، وإلى نهم وخولان ومشايخها الأحرار الأبرار.

وهنا، نهض ـ لأوّل مَرّة ـ قائد ثورة 55، الشهيد أحمد يحيى الثلايا،

فقال:

أراكم ـ يا أخواني ـ قد ذهبتم بعيداً عن الخنجر الذي ينهش صدر الشعب، وهو الوشّاح ياجناه. إنه يعلنها اليوم حرباً شعواء على خولان الباسلة المناضلة، فلماذا لاتصدرون قراراً إلى الشعب كي يتحرّك مع هذه القبيلة الأبيّة؟

وتحرَّك كذلك، ولأوَّل مرّة، الشهيد سيف الحق إبراهيم، فقال:

إن الذي سمعناه اليوم أهمّ بكثير من أمر الوشّاح: إنه العقار السحري الذي سيختنق فيه الطاغية، ولايجد معه متنفَّساً في الحياة، إنه الذي سيفرِّج الغمّة عن خولان وغير خولان، إنه سيتيح الفرصة حتى لأفراد أسرتي، إذا استطاعت أن تكيِّف نفسها وأمزجتها وأخلاقها مع العصر الذي نعيش فيه، وأن تقبل دفع بعض الثمن للأخطاء التي جناها أقطاب عائلتنا، أما إذا صمَّمَت، وعاندت تيّار الأحداث الجارف، ووقفت مع المجانين والمنتحرين، فستضطرّ أن تدفع الثمن كاملاً. إن الباب مفتوح لتراجع الطبقة الحاكمة نفسها، بما فيها أفراد أسرتي، على الأسس التي تَمَّ بحثها الآن.

ولقد بعثت إليهم الصيحة بعد الصيحة في حياتي، وهأنذا أبعث إليهم صيحة الآخرة، وإني لأضرع إلى الله أن يعطيهم القدرة على المرونة والتطوُّر مع الزمن، قبل أن يقصم التيّار ظهورهم، كما أسأله ـ سبحانه ـ أن يجعلهم قادرين عل الفهم والإدراك والإيمان بأن عقارب الساعة لاتعود إلى الوراء!

وعلى أثر سيف الحق إبراهيم، ظهر، بين الصفوف، شهيد باسل من شهداء جنوب بلاد (واق الواق)، وهو بطل مغمور، لايكاد يذكره الناس: إنه الشيخ بن عواس. لقد نهض وقال:

اسمحوا لي ـ أيّها الصدّيقون والشهداء ـ أن أعتب، وأن أشكو.

إنني هنا في ملكوت الله، حيث وضعني الله ـ كما ترون ـ في المقام الكريم؛ تقديراً لعملي ومثوبةً لفدائيتي التي أعتز بها، والتي لاأجد في بني وطني من يتحدّث عنها بإنصاف، أو يستفيد منها كعمل من الأعمال البطولية التي تصنع المثل العليا في نفوس الناس.

إن الحاكم المستعمر تحدّى كرامتي ذات يوم، وجاء مدلّاً بقوّته وغروره وعساكره، وفي يده حبل يهدِّدني بأنه سيربطني به، وفي يده الأخرى بندقيّته، ومن حوله جنوده، وماكدت أسمع تهديده حتى أطلقت عليه

الرصاص وقتلته، وانتقم الجنود حالاً، فقتلوني، ومنحوني شرف الشهادة.

وقد كان هذا الحاكم المستعمر، إمعاناً في خداع الشعب، قد تظاهر بالإسلام بعد أن رأى أن الإسلام الزائف عند الحكّام (العماديين) لم يعصمهم، ولم يمنعهم من ارتكاب أفظع الجرائم، بل لقد ساعدهم على أن يصبغوا الجريمة صبغة مقدَّسة، ولقد عجب الحاكم المستعمر من هذا الأسلوب، فأعلن إسلامه؛ ومن ثّمَّ وضع للنهب والسلب والسرقة اسماً إسلامياً، هو الزكاة، كما يفعل حكّام الإسلام في جيرانه، وأعتقد أنه لو عاش طويلاً لأعلن نفسه خليفة من الخلفاء المسلمين، و-ربَّما- ادّعى أنه من سلالة آل البيت، نزح آباؤه في موجة الفتح إلى أوروبا! ولكنني قطعت حبل هذه الأكذوبة، ولله الحمد.

والآن، تستطيعون أن تتطلَّعوا إلى سواء الجحيم، فتجدوا هذا الحاكم الأجنبي المستعمر، جنباً إلى جنب، مع حكّام العماد في دركات الجحيم، فكلّه حكم طغيان، وكلّه من عمل الشيطان، وكلّه كذب في كذب، وبهتان في بهتان.

والعبرة البالغة في هذه الواقعة، أن الإمامة- كما قال أكثر المتكلِّمين الشهداء- بلاء في بلاء: بلاء على الشمال، وبلاء على الجنوب، فيجب أن يكون منطق النضال في الجنوب وفي الشمال هو اقتلاع هذه الخدعة الكبرى من جذورها.

إن هذه الخدعة تُعَدّ أكبر حماية لظهر الاستعمار، وأنفع له من جيوشه

وقواعده الذرّيّة، لأنها قلعة روحية، ممتدّة جذورها إلى ألف عام.

إن الاستعمار، في هذه المنطقة، ينعم بسعادة وغبطة، لاينعم بمثلهما في أيّ مكان في العالم.

لقد أصبح عمله في هذه المنطقة سهلاً ميسّراً، فهو لايحتاج إلا أن يربط حباله بهذه الجذور التاريخية: إمّا أن يقلِّدها ويأتي بأحسن منها، أو يرتبط معها بنوع من التحالف: الظاهر أو الباطن؛ وبذلك يعيش قرير العين، رافه البال.

وقام، بعد ذلك، العلّامة الحرّ، السيد محمد بن إسماعيل الأمير، صاحب سبل السلام، فقال:

إن هذا هو رأيي ورأي زملائي العلماء الأحرار في الأئمة والإمامة، وقد بلونا شرّها قبل عصر الوشّاح بمئتي عام، وحذّرنا، وأنذرنا...

ثم لمع في الأفق ضوء يخطف البصر، واتّجهت الأنظار إلى الفضاء، فإذا هو الإمام الأعظم عليّ بن أبي طالب (كرّم الله وجهه)، مضيء الوجه، وهو يمتطي جواده المجنَّح، وحوله أسراب من الجياد، عليها من حور العين ما يخلب الألباب.

وهبط (كرّم الله وجهه) إلى القاعة الكبرى، واتّجه إلى مكانه حيث المنصّة، فقام الشهداء جميعاً إليه، وصافحوه، واعتنقوه، ثم جلس كلّ منهم في مكانه الذي كان فيه قبل المؤتمر الأخير.

وهنَّأهم الإمام عليّ (عليه السلام) على النتائج العظيمة التي توصّلوا إليها، فقد انتقلت إليه- بحذافيرها- عن طريق الأمواج الفكرية، ثم قال لهم:

إننا كنّا في صدد الحكم على الوشّاح يا جنّاه. والواقع أنه لا توجد عقوبة توازي جسامة الخيانة أو تُدانيها، ولكنكم قد عثرتم على أعظم عقوبة تصدرها محكمة على طاغية، تلك العقوبة هي بعث الشعب وتجميع قواه وتوحيد كلمته، والشعب وحده هو الذي يستطيع أن يجد الجزاء العادل أكثر ممّا تستطيعه الملائكة، وأكثر ممّا يستطيعه الشهداء والقدّيسون، بل وأكثر ممّا تستطيع أن تفعله جهنّم، بكل خطوبها وأهوالها، فويلٌ لمن غضبت عليه الشعوب.

والآن، تعالوا -أيّها الشهداء والصدّيقون- ننتظر النتائج، ونستعرض في شاشتنا مناظر في جهنّم، وعسانا نراها، قريباً، وهي تستقبل الوشّاح يا جنّاه، بعد أن أصدرتم قراراتكم الحاسمة، ونفختم في روح الشعب كلمة الله الكبرى، وهي الوحدة والتجمّع.

وهنا، نهض العزّي محمود واقفاً أمام الإمام عليّ بن أبي طالب، وقال له: كرَّم الله وجهك، يا أمير المؤمنين، لقد كان بودّي أن أجلس إلى جانبكم لأشهد مناظر الشاشة، ولكن كلمتك الأخيرة حملتني على الإسراع إلى وداعكم، وحرمان نفسي من شهود الوشّاح، وهو في جهنَّم، لأني أفضِّل أن أشهد مصيره على مسرح الحياة ذاتها.

...

وانتهى العزّي محمود من سرد هذه الرؤيا الطويلة المرهقة إلى الشيخ زكي سعدان، فأقبل الشيخ سعدان عليه، واتَّخذ إجراءاته اللازمة لاستعادة العزّي محمود إلى صحوة، فإذا به ينتفض من سباته ذاهلاً مندهشاً، وأقبل عليه جماعة العلماء يهنِّئونه قائلين: مبروك أيّها الضيف، لعلك، الآن، عرفت وطنك جيِّداً، وعرفت موقعه على وجه الأرض، بعد هذه الرحلة الروحية!

وتلفّت العزّي محمود حائراً مرتبكاً، ثم قال: الحقيقة أنها مجرّد رؤيا مروِّعة، وممتعة أيضاً، ولقد غسلت بها أوصار قلبي، ولكن وطني لا يزال ضائعاً.

قال العلماء:

ـ ألم تقل إنك وجدته، وتذكَّرته؟

قال العزّي محمود:

ـ إنها كانت مجرّد رؤيا، صنعها التنويم.

قال العلماء:

ـ إنك ذكرت أشخاصاً معروفين لنا في بلاد العرب، وذكرت مدناً ومناطق معروفة، كصنعاء وتهامة والحجرية مثلاً.

قال العزّي محمود:

- إن النائم يخلط في تصوّراته للأشياء التي يوجد بينها علاقة من التشابه، ويستعير صور الأشخاص والبلدان والأشياء والوحوش، وأسماءها، كرموز لنظائرها وأشباهها. بالضبط، كما يصنع الشعراء والروائيون.

صدر في سلسلة كتاب الدوحة

1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
	• فتنة الحكاية جون أبديك - سينثيا أوزيك - جيل ماكوركل - باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي

31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلي العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة "العصفور الصغير" - مختارات شعرية	
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبَّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل - ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زِينة المعنى (الكتابة ، الخط ، الزخرفة)	يوسف ذَنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق (تحوُّلات الصفوة العارفة في المجتمع العربي الحديث)	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت - ترجمة وتقديم: بوداود عمير
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة: عبدالسلام الغرياني
55	مأساة واق الواق	محمد محمود الزبيري

يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلة الدوحة الإلكتروني www.aldohamagazine.com

صدر في سلسلة كتاب **الدوحة**

يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلة الدوحة الإلكتروني **www.aldohamagazine.com**

مأساة واق الواق

محمد محمود الزبيري

(وانتهى العزّي محمود من سرد هذه الرؤيا الطويلة المرهقة إلى الشيخ زكي سعدان، فأقبل الشيخ سعدان عليه، واتّخذ إجراءاته اللازمة لاستعادة العزّي محمود إلى صحوة، فإذا به ينتفض من سباته ذاهلا مندهشا، وأقبل عليه جماعة العلماء يهنّئونه قائلين: مبروك أيّها الضيف، لعلك الآن عرفت وطنك جيداً، وعرفت موقعه على وجه الأرض، بعد هذه الرحلة الروحية!.
وتلفّت العزّي محمود حائرا مرتبكا، ثم قال:
الحقيقة أنها مجرّد رؤيا مروّعة وممتعة أيضا، ولقد غسلت بها أوصار قلبي، ولكن وطني لا يزال ضائعا).

وزارة الثقافة والفنون والتراث
الدوحة - قطر
www.aldohamagazine.com

تم إعادة الرفع بواسطة
مكتبة عسكر
ask2pdf.blogspot.com